مرايا-19

الهوس بالإسلام

الانتخابات الأمريكية
وإنقاذ الديموقراطية

الأنفلوانزا الإسبانية وكوفيد ١٩

حيرة المترجم
ومعضلات الترجمة

بين لوركا وعبدالوهاب

٢٠ عاما على اللجنة الشعبية

مرايا - 19

الهوس بالإسلام

الناشر دار المرايا للإنتاج الثقافي

الكُتاب

أسماء سعد - أسماء يس - باسم عبد الحليم - دينا قابيل - حسام الخول - خالد يوسف - سارة عابدين - سوزان واتكينز - عاطف سعيد - الأمريكية - عماد أبو صالح - عمر الشافعي - ماجد وهيب - د.محمد أبو الغار - محمد جاد - مصطفى عبد الظاهر - منى أبو النص - هشام أصلان - يحيى فكري - أحمد عبد اللطيف - أحمد محسن - أشرف الصباغ - إسلام سعد - سها السباعي - محمد حسني - محمد فتحي خضر - محمود عبد الغفار - نانسي محمد - هبة شريف -

دينـا جميـل

رئيسة تحرير مرايا

2020 – 2017

حضـــور دائـــم

المشرف العام على التحرير

يحيى فكري

المحرر التنفيذي

يحيى وجدي

تحريـــر

أسماء يس، صفاء عصام الدين

الإخراج الفني والتنفيذ

أحمد نجدي - المصطفى نجدي

شكر خاص للفنان الكبير
سامـــح الكـاشـــف

مرايا 19

- «مرايا» كتاب ثقافي/ نظري يعنى بنشر المساهمات ذات القيمة في الفلسفة والفكر، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، والنقد الأدبي والفني.
- يعطي كتاب «مرايا» الأولوية لنشر الكتابات التي تلقي ضوءًا على الواقع المصري والعربي والشرق أوسطي.
- يرحب كتاب «مرايا» بالإسهامات المتميزة غير المنشورة سابقًا، ويترجم نصوصًا منتقاة منشورة بلغات أخرى.
- لا ينشر كتاب «مرايا» نصوصًا تروج للرجعية والطائفية والعنصرية والذكورية، أو تحرض على الكراهية، أو تحتوي على عبارات السب والقذف.
- يلتزم كتاب «مرايا» بالرد على مقدمي المقترحات والنصوص، مع احتفاظه بالحق في تحديد توقيت نشر النصوص المقبولة، وفي تحريرها وفقًا للحدود المتعارف عليها.
- يتلقى كتاب «مرايا » المراسلات على البريد الإلكتروني marayajournal@elmaraya.net

الآراء المنشورة تعبر عن رأي كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كتاب «مرايا »

رقم الإيداع: 2038 / 2021

الترقيم الدولي: 9 - 86 - 6648 - 977 - 978

المراسلات

23 شارع عبد الخالق ثروت، وسط البلد، القاهرة ،

جمهورية مصر العربية

تليفاكس: 223961548

البريد الإلكتروني:

marayajournal@elmaraya.net

◆◆◆◆◆◆

١٦٠ صفحة

المقاس ١٩× ٢٧,٥ سم

يناير - ٢٠٢١

المحتويات

• **بداية** 7

• **هوامش**
• كورونا وعصر جديد من تراجع فرص العمل في الخليج ..... محمد جاد 10
• ملاحظات أولية حول الانتخابات الأمريكية ..... عاطف سعيد 16

• **رؤى**
• الإنفلوانزا الإسبانية وكوفيد 19 ..... د. محمد أبو الغار 22
• "إلا رسول الله" مبتدأ الشعار وخبره ..... مصطفى عبد الظاهر 26
• في الطريق إلى بيت سعيد الكفراوي ..... هشام أصلان 30

• **نظر**
• من الأساطير حتى الأطواق الكهربائية.. أكاذيب الفاشية بين المرح والكابوس ..... خالد يوسف 32

• **سجالات**
على هامش ذبح المدرس الفرنسي .. الهوس بالإسلام بين الغيرة والرهاب ..... عمر الشافعي 41

• **هموم صناع الثقافة**
• حيرة المترجم ومعضلات الترجمة ..... المحرر 58
• أحمد حسان: لست ترجمانًا ..... حوار- أسماء يس 57
• الرقابة.. كسف نترجم كتبًا تقول إننا محقون ..... أحمد عبد اللطيف 66
• نواجه سوقًا غير مستقرة ..... أحمد محسن 69
• الفوضى الإدارية وازدهار الفساد الثقافي والسياسي ..... أشرف الصباغ 73
• الترجمة: الصعوبات والتحديات والطموحات ..... إسلام سعد 76
• من الآداب الآسيوية إلى اللغة العربية ..... محمود عبد الغفار 81
• ميزان لا يميل ..... سها السباعي 83
• كيف لا نكره ما نحب! ..... نانسي محمد 85
• مهمة المؤسسات الحكومية ..... هبة شريف 87
• نتحدى خيار اللاختيار المحدودة ..... محمد فتحي خضر 91
• الترجمة عن العبرية.. سباق قفز الحواجز ..... محمد حسني 93

• **تواريخ**
• عشرون عامًا على تأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة ..... يحيى فكري 98

• **دراسات**
• أي نسوية ..... سوزان واتكينز/ ترجمة: أسماء يس 110

• **فنون**
• لوركا وعبد الوهاب ..... عماد أبو صالح 120
• وسط البلد: أنا لا أكذب ولكني أتجمل
• الفن التشكيلي هل يثبت أركان المدينة من جديد ..... دينا قابيل 124
• الإيقاع المرن للفوتوغرافيا ..... سارة عابدين 128
• نعومي كواسي.. الأسرة في مواجهة العالم ..... حسام الخولي 131
• مرسي جميل عزيز.. شاعرية اللفظ والمعني ..... ماجد وهيب 134

• **مراجعات**
• "الشعلة الخفية للملكة لوانا".. ترميم ذاكرة ضبابية ..... باسم عبد الحليم 138
• "أفكر في إنهاء الأمور".. الحياة داخل قبو عقل منهك ..... منى أبو النصر 142
• "أدب الحروب" كيف ألهمت المعارك الدامية الأيقونات الأدبية ..... أسماء سعد 149

بـــدايـــة

نحاول في هذا العدد من كتاب «مرايا» السعي لفتح مساحات من الاشتباك مع هموم قرائنا، ومع القضايا الأكثر إثارة للجدل داخل الساحة الثقافية في مصر. وسيجد القارئ أننا أضفنا قسمين جديدين إلى أقسام المجلة لتحقيق هذا الهدف؛ «سجالات»، و«هموم صناع الثقافة».

في قسم سجالات يقدم عمر الشافعي دراسة مستفيضة عن الإسلاموفوبيا وأزمة الإسلام، وذلك على هامش قصة ذبح المدرس الفرنسي، تحت عنوان: «الهوس بالإسلام بين الغيرة والرهاب». يتنقل عمر بين منعطفات تاريخية متعددة بحثًا عن جذور الهوس المعاصر بالإسلام، منذ ظهور الاستشراق، وحتى صعود اليمين الجديد في الغرب. وخلال ذلك يطرح عددًا من الأسئلة الرئيسية ويحاول الإجابة عليها، ويترك الباب مفتوحًا أمام عدد من الإشكاليات المتعلقة بأزمة الإسلام للنقاش والسجال حولها. وفي الأعداد المقبلة ستسعى مرايا إلى استكتاب عدد من المهتمين بهذه القضية من وجهات نظر مختلفة للمساهمة في تطوير النقاش.

أما قسم «هموم صناع الثقافة» فالهدف منه عرض وتحليل ونقاش المعضلات التي تواجه عملية الإنتاج الثقافي في مصر، من جوانبها المختلفة، ذلك من وجهة نظر أصحاب الهم أنفسهم، وعبر شهاداتهم وتحليلاتهم. وسنبدأ في هذا العدد بمناقشة معضلات الترجمة، وحيرة المترجمين. فالترجمة هي طريقنا الوحيد للمعرفة، طالما ظلت ثقافتنا لا تنتج ما يكفي من المعارف، إلا أن مجموع ما يترجم في مصر والعالم العربي أقل بكثير عما تحتاجه المكتبة العربية لملاحقة الإنتاج المعرفي الغزير في العلوم والآداب على مستوى العالم. كيف نواجه هذه المعضلة؟ كيف نتجاوز فقر المكتبة العربية؟ وعلى من تقع المسؤولية، على المترجمين، أم الناشرين، أم الدولة؟ يضم هذا القسم حوارًا مع الأستاذ أحمد حسَّان أحد أبرز المترجمين المعاصرين، كما يضم مقالات لمترجمين متميزين عن لغات متنوعة، يحاولون جميعًا تفكيك المعضلة والبحث عن حلول لها.

وبالطبع لا تزال المعركة في مواجهة فيروس كورونا تشغل الهم الأكبر لدى جميع البشر، ومن ثم لاتزال تشغل حيزًا مهمًا على صفحات «مرايا». ويسعدنا في هذا العدد أن نقدم مقالًا في قسم «رؤى» للعالم الدكتور محمد أبو الغار يقارن فيه بين وباء الإنفلونزا الإسبانية ووباء كوفيد19-، من حيث حجم الانتشار والآثار الصحية والاجتماعية، والتعامل الوقائي معهما. وفي قسم «هوامش» يقدم محمد جاد عرضًا لأحد أهم الآثار الاقتصادية لكورونا في مصر، الناتج عن تقلص فرص العمل في الخليج وعودة العمالة المصرية هناك بسبب الركود الناشئ عن الوباء.

يقدم «مرايا 19» قسمًا جديدًا آخر هو «تواريخ»، الذي نسعى من خلاله إلى الاحتفاء بأحداث ذات شأن مصرية وعالمية حملت تجارب وخبرات مهمة. وفي هذا العدد يكتب يحيى فكري عن ذكرى مرور 20 عامًا على تأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الفلسطينية.

يضم هذا العدد أيضًا عددًا من المقالات المتميزة؛ فيستعرض عاطف سعيد في «هوامش» ما جرى في الانتخابات الأمريكية؛ ويكتب خالد يوسف في «نظر» عن أكاذيب الفاشية بين المرح والكابوس؛ ويحكي عماد أبو صالح في «فنون» عن «الدويندي» أو «شيطان الجن» الذي أصاب لوركا وعبد الوهاب في مواقف مختلفة؛ ويحلل ماجد وهيب في «فنون» أيضًا شاعرية مرسي جميل عزيز بين اللفظ والمعنى. هذا إلى جانب عدد آخر من الرؤى والدراسات والمقالات والمراجعات.

كورونا وعصر جديد
من تراجع فرص العمل فى الخليج

محمد جاد

ملاحظات أولية
حول الانتخابات الأمريكية

عاطف سعيد

هوامش

1

كورونا

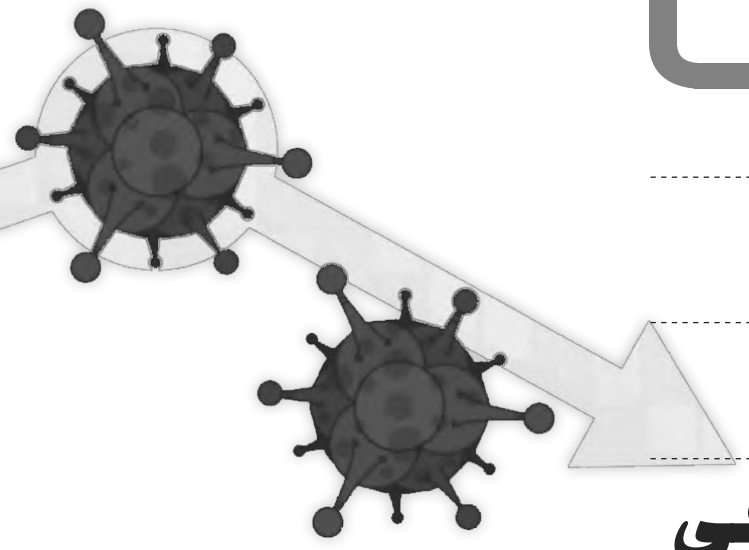

وعصر جديد من تراجع فرص العمل فى الخليج

محمد جاد

«أعنف أزمة تواجه سوق إلحاق العمالة بالخارج منذ نصف القرن..»، هكذا وصف عبد الرحيم المرسي؛ نائب رئيس شعبة إلحاق العمالة بغرفة القاهرة، حال سوق عمل المصريين في الخارج بعد أن تسبب وباء كورونا في تعطيل سفرهم، وانهيار معدلات منح تراخيص العمل في الخليج.

لم تكن كورونا هي الأزمة الأولى؛ فقد كانت أسواق بلاد النفط تنغلق في أوجه المصريين خلال العقود الأخيرة واحدة تلو الآخر، بدءًا بأزمة حرب العراق، إلى حرب ليبيا الأهلية، وأخيرًا تراجع أسعار النفط منذ 2014 وتأثيره على فرص العمل في دول مثل السعودية والإمارات.

لكن بلا شك فإن أزمة كورونا هي الأشد، فهي تعطينا إنذارًا بأننا قد نكون مقبلين على تغيرات عميقة في بنية الاقتصاد المصري، مع تراجع دور الريع النفطي في حياة الملايين من المصريين، والذي نشأ منذ السبعينيات، وأسهم في إعادة تشكيل حياة المصريين على أصعدة مختلفة.

تغيرات ما بعد كورونا

جاء رد فعل بلدان الخليج لوباء كورونا متسقًا مع ما جرى في العديد من بلدان العالم؛ إذ عُلِّقَت الفور الرحلات الجوية من وإلى البلاد. وهو ما تسبب في إصابة منظومة عمل الأجانب في هذه البلدان بحالة من الشلل؛ فمن ناحية كانت العمالة الأجنبية المقيمة هناك ترغب في الحصول على إجازة، والعودة إلى لبلدانها خشية عدم القدرة على زيارة ذويهم فيما بعد مع استمرار تعطيل حركة السفر، ومن جهة أخرى لم تفتح هذه البلاد أبوابها لتصاريح عمل جديدة إلا للضرورة القصوى.

وعلى الرغم من تخفيف قيود الإجراءات الاحترازية ضد كورونا في الخليج بدءًا من الصيف الماضي، فإن الأوضاع لم تعد إلى سابق عهدها؛ على سبيل المثال قررت الكويت عدم التجديد للعاملين ممن هم فوق الستين، وكذلك للعمالة متدنية المهارة، التي يطلق عليها العمالة الهامشية. كما قررت عدم التجديد أيضًا للمقيمين في البلاد ممن يتحايلون على السلطات بادعاء أنهم يعملون لدى شركات ليس لها وجود في الواقع. وتذهب تقديرات إلى أن إجمالي أعداد العمالة المتضررة من هذه السياسات الكويتية الجديدة تبلغ 360 ألف عامل.

بالإضافة إلى ذلك، فإن وضع الاقتصاد كان طاردًا حتى للعمالة التي كانت تقرر البقاء لفترة طويلة في البلاد، ولا تنوي العودة إلى بلادها في وقت قريب، على سبيل المثال تتحدث تقارير عن أن العاملين الأجانب في دبي ممن فقدوا وظائفهم بسبب التداعيات الاقتصادية للوباء

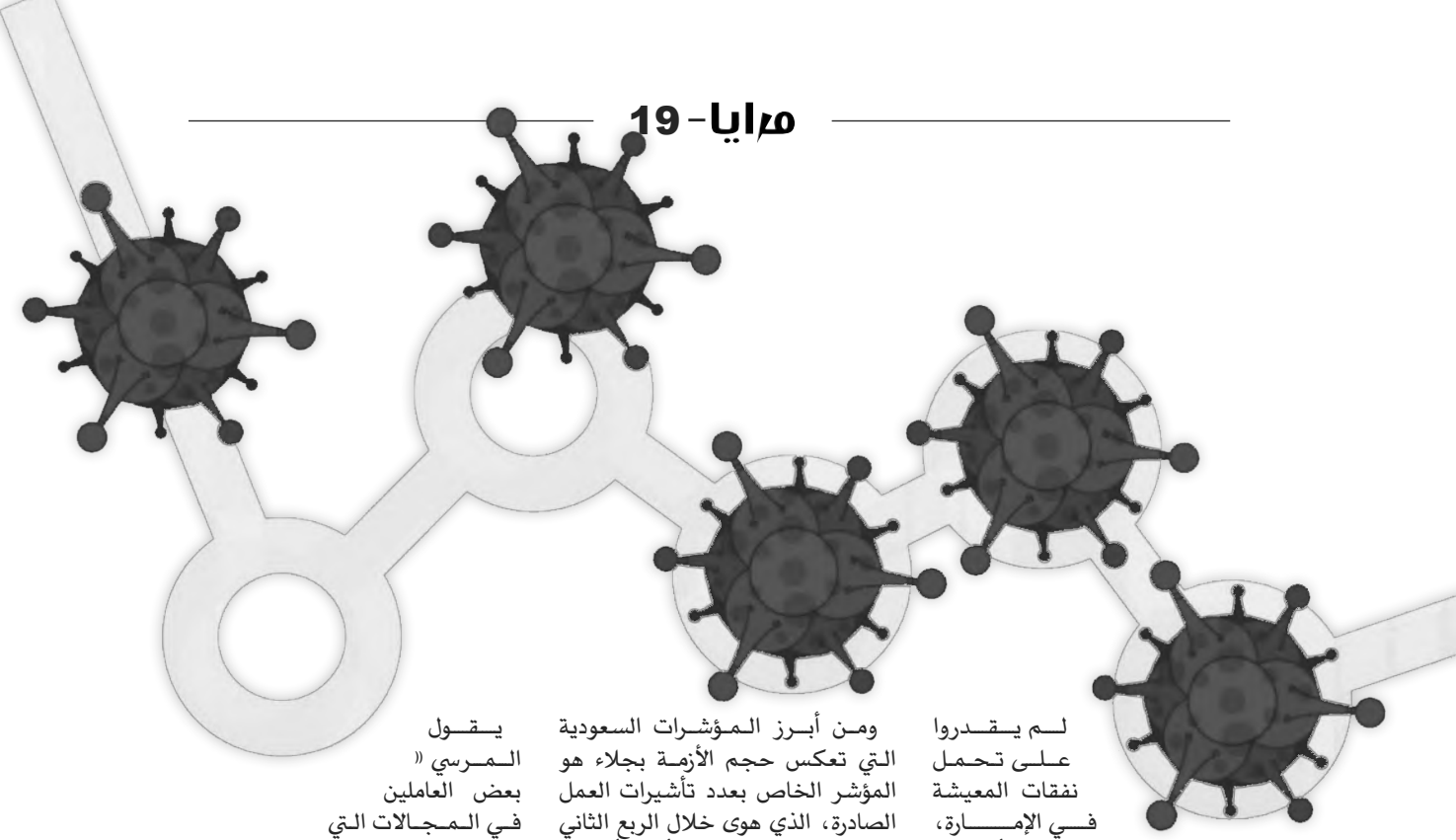

لم يقدروا على تحمل نفقات المعيشة في الإمارة، خصوصًا وأنهم، كأجانب، محرومين من أشكال الحماية الاجتماعية التي توفرها السلطات للمواطنين، وهو ما دفعهم إلى العودة. وقد حاولت السلطات الإماراتية أن تشجع على هذا التوجه من خلال إعفاء من أقاموا في البلاد على نحو مخالف للقانون من غرامات تلك المخالفات بشرط أن يغادروا البلاد فورًا. كذلك أسهم الانكماش الاقتصادي في السعودية لزيادة معدلات البطالة، وكانت هناك ضغوطٌ لأن تكون الأولوية في الاستغناء عن العمالة الأجنبية، وليس المواطن المحلي.

وأمام هذه الضغوط سمحت المملكة لأصحاب العمل بوقف العقود مؤقتًا بدلًا من إلغائها، وذلك في حالة ما إذا كانت الشركة متضررة من الإجراءات الاحترازية ضد كورونا، ولا تحصل على دعم من الدولة، كذلك شجعت البلاد على الاستفادة من فائض العمالة الوافدة الموجود في المملكة بدلًا من السعي لاستقدام عمالة جديدة.

لا توجد بيانات متاحة بشكل مفصل عن تأثير أزمة كورونا على حركة تشغيل العمالة الوافدة في الخليج، لكن ربما تكون السعودية هي الأكثر إفصاحًا عن أوضاع العمالة لديها، ومن حسن الحظ فإن المملكة تعد أكبر سوق عربي لتشغيل المصريين، لذا يمكن أن ننظر إلى بياناتهم باعتبارها مؤشرًا أساسيًّا لأحوال المصريين في الخارج.

ومن أبرز المؤشرات السعودية التي تعكس حجم الأزمة بجلاء هو المؤشر الخاص بعدد تأشيرات العمل الصادرة، الذي هوى خلال الربع الثاني من 2020 إلى نحو 50 ألف تأشيرة، بعد أن كانت أعداد التأشيرات تقترب من 600 ألف في الربع الأول من العام نفسه.

ويمكن أن نتفهم الضغوط الداخلية في السعودية لتخفيف أعداد العمالة الأجنبية، بالنظر إلى الفارق الكبير في مستويات البطالة بين السعوديين، والتي بلغت في الربع الثاني 15.4%، وغير السعوديين والتي تقتصر على 3.1%.

ويظهر من البيانات السعودية أن بطالة الوافدين تكاد تكون ظاهرة مستحدثة في المملكة بعد كورونا، فحتى الربع الأول من 2020 كان معدل بطالة السعوديين يقترب من الصفر، عند 0.5%.

ويقول عاملون في مجال إلحاق العمالة بالخارج في مصر إن طلب السعودية للعاملين من مصر لم يتوقف خلال أزمة كورونا، ولكن التركيز في بداية الأزمة كان على العاملين في القطاع الطبي، ثم تم السماح تدريجيًّا بدخول أنواع أخرى من العمالة بشرط الخضوع لتحليل كورونا.

ويروي عن حال العمالة المصرية في الخليج خلال هذه الأزمة، عبد الرحيم المرسي، نائب رئيس شعبة التوظيف بالغرفة التجارية، والذي ننقل شهادته كما هي لما تحمله من دلالات مهمة عن عمق تأثير هذه الأزمة، وما تطرحه من خيارات صعبة على العاملين.

يقول المرسي « بعض العاملين في المجالات التي تضررت، خصوصًا المطاعم والمحلات التجارية والسائقين والعمالة اليومية، كانوا أمام خيارات صعبة، وكان قرارهم بالبقاء حتى عودة الحياة لطبيعتها مرهونًا بعاملَيْن؛ أولهما مدخراته التي يمكنه الاعتماد عليها لتأمين مصروفاته خلال فترة الإغلاق، والثاني وضع عائلته في مصر، وإن كانت تعتمد على تحويلاته بشكل كلي أم جزئي، وهل سيقدرون على تأمين مصروفاتهم في مصر دون الاعتماد عليه، خصوصًا وأنهم يعانون بدورهم من ظروف الإغلاق الجزئي». ويضيف «بالنسبة للبعض؛ وهي نسبة ليست قليلة، كان البقاء في الخارج مكلفًا في ظل عدم وضوح الرؤيا حول موعد فتح الاقتصاد السعودي أو الإماراتي، وهو ما جعلهم يقررون العودة إلى مصر فور أن فُتح المجال الجوي، على أمل أن يعاودوا السفر مرة أخرى إذا ما وجدوا فرصة لوظيفة بعد تراجع الوباء.. بينما كان أمام البعض الآخر فرصة للاستمرار في الخارج، خوفًا من فقد الوظيفة نهائيًّا، وعدم القدرة على السفر مرة أخرى، حتى إن بعض المسافرين اعتمدوا على تحويلات عكسية؛ بمعنى أنهم تلقوا أموالًا من عائلاتهم في مصر، تساعدهم على تخطي الأزمة، وإن كانت هذه النسبة ليست كبيرة»[1].

(1) أجرى المقابلة شيماء حفظي الصحفية بموقع مصراوي

ما الذي يعنيه ريع الخليج لمصر؟

حتى عام 1969 كان عدد المعارين من قبل الدولة المصرية للعمل في الخارج يقتصر على 5545 فرد، وخلال ثلاث سنوات فقط تضاعف هذا العدد أربعة أضعاف ليصل إلى 20.6 ألفًا، كان ذلك إيذانًا بعصر جديد يصبح فيه الخليج أكثر من مجرد بلدان في الجوار، ليكون بمثابة امتداد للاقتصاد المصري يشغل نسبة رئيسية من قواه العاملة.

في ذاك الوقت كانت الشريحة الرئيسية من المعارين إلى الخليج هم من حملة المؤهلات العليا وكانت النسبة الأكبر منهم، أكثر من 60%، يعملون هناك في مجال التعليم، فقد استفادت مصر في ذلك الوقت من البنية الحضارية التي أسستها منذ القرن التاسع عشر، واستثمرت في أبناءها المتعلمين، ليصبحوا بمثابة مورد أساسي للنقد الأجنبي المتدفق من الخارج إلى أسرهم في مصر، والتي عادة ما تنتمي إلى الطبقة الوسطى.

والإضافة إلى الإعارات، كان تعاقدات العمل التي تتم بشكل شخصي بين المصريين وأصحاب العمل في الخليج تمثل رافدًا ثانيًا للانتقال إلى بلدان النفط، وكانت النسبة الأكبر من أصحاب هذه التعاقدات هم أيضًا من أصحاب المؤهلات العليا، ولكن يأتي بعدهم مباشرة شريحة من لا يحملون مؤهلًا دراسيًا على الإطلاق، وقد مثّلوا نحو 25% في 1972، ما يعكس احتياج هذا السوق أيضًا إلى العمالة التي تأتي عادة من الطبقات الأكثر فقرًا.

ومع توسع عملية التنمية في الخليج وفورة إيرادات النفط بعد حرب 1973، الناتجة عن الارتفاع الحاد في أسعار الخام، زادت أعداد المعارين للخليج بشكل ملحوظ.

ما بين 1970 و1975 ارتفعت أعداد المعارين إلى السعودية من438 إلى 10.1 آلاف، لتصبح أكبر مركز لاستقبال الإعارات المصرية في تلك الفترة، بنسبة 37.2% من مجمل الإعارات، بعد أن كانت حصتها تقتصر على 4.7%.

ومن خارج الخليج كانت ليبيا أيضًا مصدرًا أساسيًا للتشغيل؛ إذ تضاعفت أعداد المعارين إليها في الفترة نفسها تقريبًا، وجاءت في المركز الثاني بعد السعودية. وإجمالا زادت أعداد المعارين في 1975 لأكثر من 27 ألف معار؛ أي أننا نتحدث عن زيادة بنحو 6 أضعاف تقريبًا منذ نهاية الستينيات إلى منتصف السبعينيات.

هذا التوسع القوي لدور النفط في الاقتصاد المصري شجع البعض على التنظير بأن إيرادات البلاد من النقد الأجنبي الذي يحوله العاملين في الدول العربية لأسرهم في مصر أصبح من مصادر الريع المتدفق من الخارج، ما يعني أن الاقتصاد المصري أصبح يحمل ملامح الاقتصاد الريعي الذي يهيمن على الخليج.

وبحلول عام 1980، وضع جهاز الإحصاء الرسمي تقديرات بأن أعداد المصريين في الخارج بلغت 1.5 مليون نسمة، القوة العاملة منهم نحو 500 ألف.

وفي 2005 قُدرت أعداد العاملين في الخارج بنحو 800 ألف أغلبهم في الدول العربية. وظل الاحتياج قويًا لكل من الفئات مرتفعة المهارة القادمة من حاملي الشهادات العليا من الطبقة الوسطى، والذين مثلوا ربع العاملين، والفئات متدنية المهارة ممن لا يحملون أي مؤهل والذين مثلوا نحو 40% من العاملين.

لاحقا أعلن جهاز الإحصاء عن

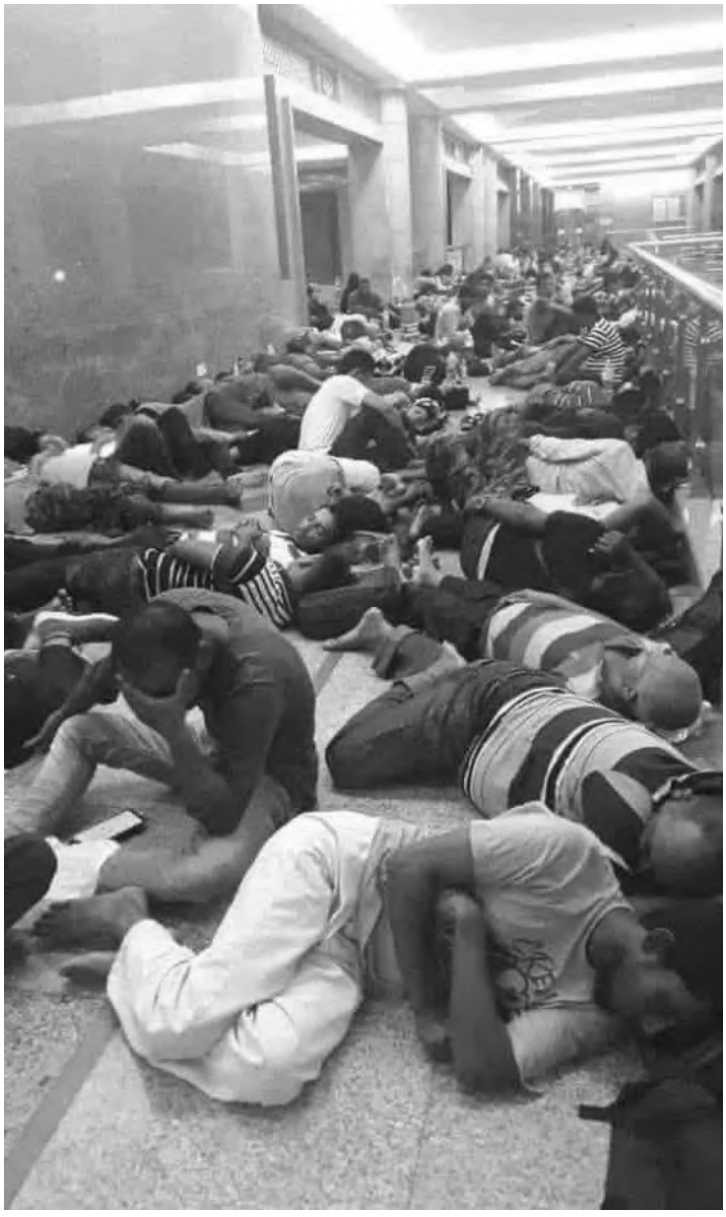

ALQABAS.COM
الخميس 2 ذو الحجة 1441 هـ - 23 يوليو 2020 - السنة الـ 49 - العدد 16849

04 الكويت

العمالة الهامشية.. والمسجلة على شركات وهمية.. ومن تجاوز الـ60

لا عودة لـ3 فئات انتهت إقاماتهم بالخارج

شرعت وزارة الداخلية، ممثلة في الإدارة العامة لشؤون الإقامة، في إعداد دراسة تعالج وضع 70 ألف مقيم انتهت إقاماتهم وهم خارج البلاد منذ بداية أزمة فيروس كورونا، حتى مطلع الأسبوع الجاري، لتحدد خلال الأسبوع المقبل مستحقي العودة منهم. كشفت مصادر رفيعة المستوى لـ **القبس** أن تلك الدراسة ستكون على طاولة القيادة العليا بالوزارة الأسبوع المقبل، وستحتوي على توصيات عدة بالغة الأهمية تحدد من يستحقون العودة إلى البلاد بإقاماتهم السابقة، ومن لا تنطبق عليهم شروط العودة.

محمد إبراهيم

تقسم الدراسة المقيمين الـ70 ألفاً إلى شرائح عدة لدراسة ملفاتهم بشكل مفصل ودقيق، وفق ضوابط وشروط مشددة لتحديد من انتهت إقاماتهم بسبب ظروف خارجة عن إرادتهم، ويحتاجهم سوق العمل ويستحقون العودة مرة أخرى.

توصيات الدراسة

وأكدت المصادر أن جميع توصيات الدراسة لن تتعارض مع التوجه العام لسياسات الدولة الرامية إلى تعديل التركيبة السكانية، وستضمن عدم تعطيل أو إبطاء تلك العملية توازياً مع ضبط سوق العمل.

وتوصلت الدراسة، بحسب المصادر، إلى أن بعض المقيمين انتهت إقاماتهم بسبب انتهاء جوازات سفرهم وهم خارج البلاد، ولم يتمكنوا من إصدار جوازات جديدة بسبب جائحة كورونا وإغلاق الجهات الحكومية في بلدانهم، وآخرون انتهت إقاماتهم بسبب وجود رموز على شركاتهم حالت دون تجديد إقاماتهم إلكترونياً، ومنهم موظفون حكوميون، وبعضهم من أصحاب التخصصات النادرة، ولديهم عائلات مقيمة داخل البلاد، ومنازل مؤثثة بالكامل وأمور عالقة معلقة.

وكشفت المصادر أن الدراسة ستوصي بعدم عودة العمالة الهامشية، ومن تخطت أعمارهم الـ60 عاماً، ومن ترجع إقاماتهم إلى شركات وهمية ليس لديها عمل حقيقي للمسجلين على كفالتها.

العمالة المنزلية

وفيما يخص العمالة المنزلية، قالت المصادر: «إن العمر والسجل الأمني هما الفيصل الرئيسي في عودة العامل من عدمها»، مبينة أن العامل المنزلي إذا تعدى عمره الـ60 عاماً فلا داعي لعودته وسيطلب من كفيلة استبداله بعامل آخر أصغر سناً، كما لن يسمح بدخول من قيدت ضدهم جرائم جنايات وجنح، وسجلهم الأمني غير نظيف».

المنتحلون بعائل

ولفتت إلى أن الدراسة ستعتمد على كشف بحركة دخول وخروج المنتحلين بعائل على أزواجهم، وذلك على أبنائهم وأقاربهم، لتحديد عدد تواجدهم داخل البلاد، مبينة أن العديد منهم لا يمكث داخل البلاد إلا لأيام معدودات، ويغادر إلى موطنه طيلة أوقات العام، ويدخل البلاد قبل انتهاء الـ6 أشهر وهو خارجها من باب الحفاظ على إقامته فقط»، موضحة أن «هؤلاء لن يسمح لهم باسترداد إقاماتهم مرة أخرى».

وأوضحت المصادر أن المقيمين المنتهية إقاماتهم في الخارج، ولن يشملهم قرار العودة، ستتولى الهيئة العامة للقوى العاملة جلب مستحقاتهم من الشركات العاملين فيها، وستكون المطالبة بتلك المستحقات عن طريق المنصة الإلكترونية التي أطلقتها الهيئة، لافتة إلى أن عملية تحصيل تلك المستحقات ستتم بطريقة قانونية تضمن وصولها إلى مستحقيها.

توجه لمنع العمالة الهامشية المنتهية إقاماتها من العودة إلى البلاد

العودة بتأشيرات زيارة

ذكرت المصادر أن المقيمين الذين سيشملهم قرار العودة وفق رؤية الدراسة ستصدر لهم تأشيرات زيارة بمثلهم بموجبها، ومن ثم يتم تحويل تأشيرات الزيارة إلى إقاماتهم السابقة.

«مباحث الإقامة» تحدد الشركات الوهمية

أرجعت المصادر إلى تقارير «مباحث الإقامة» الفضل الكبير في توصيات الدراسة، لأنها الجهة المخولة تحديد الشركات الوهمية التي تتاجر بالإقامات، والشركات القائمة التي لديها عمل حقيقي، وذلك من خلال الجولات الميدانية والتفتيشية على مقارها.

- «الداخلية» فتشت 70 ألف مقيم إلى شرائح لدراسة أوضاعهم
- بعضهم انتهت إقاماتهم لانتهاء جوازات سفرهم.. وآخرون على شركاتهم رموز
- جميع التوصيات لا تتعارض مع تعديل التركيبة السكانية
- كل ملف يُبحث منفرداً.. وقرار العودة سيشمل جميع المستحقين
- حركتا الدخول والخروج ستحددان مصير الملتحقين بعائل
- عودة العمالة المنزلية مرتبطة بالعمر والسجل الأمني
- من لن يعود وله مستحقات فستؤلها إليه «القوى العاملة»

هوامش

تعداد السكان، والذي قدر عدد المصريين المقيمين في الخارج بنهاية 2016 بنحو 9.5 مليون نسمة، هذا العدد يشمل بالطبع المهاجرون لأغراض العمل ولأغراض أخرى، ولكن تركز الهجرة في الدول العربية وتحديدا السعودية، كبلد مجاور لمصر ويوفر فرص عمل من الأيسر على المصريين الالتحاق بها مقارنة بالفرص المتاحة في الدول المتقدمة، ربما يدلل على أن الدافع الأساسي لهجرة المصريين هو البحث عن فرص لزيادة الدخل.

هذه القوة العاملة في الخارج تمثل رافدين مهمين للاقتصاد، الأول يتمثل في عوائد النقد الأجنبي التي تضخها تلك الفئات في بنوك البلاد.

صحيح أن ما يكسبه العامل المصري في الخليج هو دخله الخاص وليس دخل الدولة، ولكنه لأنه مقيم «بصفة مؤقتة» في الخارج يكون حريصًا على تحويل مدخراته إلى مصر، وتغيير تلك المدخرات داخل بنوك مصر من العملة الصعبة إلى الجنيه، وهنا يستفيد الاقتصاد المحلي من تلك العملات الصعبة التي تتدفق إلى احتياطاته دون أن تبذل الدولة أي مجهود.

أما الرافد الثاني فيتمثل في تعزيز طاقات الاستهلاك المحلي، لا شك أن أجور المصريين في الخليج ترتفع عن مستويات أجورهم داخل مصر، فهذا هو الثمن الذي يضحون من أجله ويتركون أهلهم وذويهم ليذهبوا للعيش في بلد آخر، ومع ترقي قطاعات من المجتمع طبقيًّا تتعاظم رغباتهم الاستهلاكية، بل ويلجأ الكثير منهم إلى الحفاظ على مدخراته في صورة سلع معمرة مثل شراء الشقق والسيارات، من هنا كانت الهجرة لبلاد النفط أحد المحركات الرئيسية لنشأة مجالات جديدة للنشاط الاقتصادي، مثل العقارات الفاخرة والتسوق في مولات تجارية متخصصة في بيع براندات عالمية مرتفعة الثمن، وغيرها من أشكال الرفاهية التي لم تكن منتشرة في بلادنا قبل فورة النفط.

وبالنظر إلى تطور تحويلات المصريين في الخارج، نجد أنها نمت بوتيرة سريعة من أقل من مليار دولار في السبعينيات إلى أكثر من 25 مليار دولار في الوقت الراهن. لكن من التبسيط المخل أن نتعامل مع تلك الأرقام بشكل مجرد عن الظروف المحيطة بها، فمن الوارد أن تكون التحويلات بقيم أكبر، ولكنها لم تظهر في البيانات الرسمية لأن التحويل لم يتم عبر البنوك؛ ففي الأوقات التي يتسع فيها الفارق بين سعر الدولار الرسمي وسعره في السوق السوداء يلجأ الكثيرون إلى إجراء تلك التحويلات خارج القطاع المصرفي.

ولكن بصفة عامة، فإن تلك التحويلات على مدار تاريخها الطويل منذ السبعينيات كانت عادة ما تمثل 10% من ناتجنا الإجمالي، وهي نسبة مؤثرة تجعل تغير أحوال العاملين في بلاد النفط صداعًا مزعجًا للاقتصاد بأكمله، فماذا جرى في أسواق الخليج خلال السنوات الأخيرة؟

حكايات السَعْوَدة

على الرغم من أن الوضع كان مثاليًا في السبعينيات، إذ كان النفط يتدفق بغزارة في شرق وغرب مصر، وترتفع أسعاره بشكل مذهل في بلاد تعاني نقص العمالة وتحتاج للمعلم والمهندس وعامل البناء، لكن خلال العقود التالية بدا الأمر وكأن لعنة ما تغلق أبواب تلك الجنة واحدا تلو الأخر!

بدءًا من أزمة العراق، بدا هذا البلد في نهاية الثمانينيات وكأنه يتحول إلى جحيم للمصريين مع فرض قيود على تحويل أموالهم إلى مصر وتأخر صرف الكثير من مستحقاتهم، بجانب موت الكثير منهم خلال الحرب مع إيران، أو حتى بعد انتهاء الحرب في ظروف غامضة، فيما يعرف بظاهرة النعوش الطائرة، وبحلول التسعينيات دخل العراق في دوامة الغزو الأمريكي التي جعلت العمل هناك عملًا انتحاريًا.

انتقالًا إلى السوق الليبية التي تحولت إلى جحيم هي الأخرى مع اندلاع الحرب الأهلية في البلاد بعد سقوط القذافي في 2011، كان هذا السوق القريب جغرافيًا من مصر ملجأ أساسيًا لقطاعات واسعة من فقراء الصعيد من العمالة متدنية المهارة، لكن مع صعود نفوذ التيارات المتطرفة في البلاد استُهدِف مصريون بالاغتيال، كما دخل اقتصاد البلاد بأكمله في دوامة من التدهور مع انقسام السلطة.

وعلى الرغم من استقرار الحالة السياسية في بلدان مجلس التعاون الخليجي، فإن اقتصاد هذه المنطقة تضرر بشدة منذ 2014 مع انخفاض أسعار النفط العالمية، الأمر الذي تسبب في تعطل حركة الإنفاق على الإنشاءات في السعودية على سبيل المثال، وما مثّله ذلك من نقص في فرص العمل لقطاعات واسعة من المشتغلين في الهندسة وأعمال البناء وغيرها.

كما أن بلدان الخليج كانت حريصة خلال العقود الأخيرة على توطين الوظائف لديها، وذلك لعدة أسباب أهمها رغبتها في الحد من نزيف الاقتصاد الناتج عن تحويل أجور العاملين الأجانب إلى بلادهم الأصلية، بدلًا من استهلاكها داخل البلاد.

بدأت السعودية في صياغة خطط خمسية لإدارة اقتصادها منذ الستينيات، وذلك بهدف تمدين المملكة واستثمار عوائد النفط في التنمية، وقد تبنت مفهوم سعودة الوظائف منذ الخطة الخمسية الخامسة للحد من تدفق الأموال للخارج.

وفي الوقت الراهن تدعم الدولة مؤسسة تحمل اسم «صندوق هدف»؛ والذي يقوم على تدريب العمالة المحلية، ودعم نسبة من أجورها لدى القطاع الخاص لتشجيع أصحاب العمل على تشغيل السعوديين.

كما أعلنت السعودية قبل أيام عن تعديلات جذرية في نظام الكفالة، وهو النظام الذي اعتبرته الدوائر الحقوقية الدولية أنه ينطوي على انتهاكات واسعة للحقوق الأساسية في العمل، وكانت المملكة ترى أيضا أنه في غير صالحها.

نظام الكفالة كان يقيِّد حق العامل الأجنبي في قبول عرض عمل آخر داخل المملكة غير الذي تعاقد عليه مع الكفيل، بل ويمنعه من السفر للخارج طالما لم ينته عقده مع الكفيل، هذا النظام كان يعزز من رغبة أصحاب العمل في تشغيل الأجانب، فهم لا يقدرون على التحكم والسيطرة على العمالة السعودية إلى هذه الدرجة، لذلك اتجهت المملكة قبل أيام للإعلان عن أنها سترفع هذه القيود في مارس القادم بهدف المزيد من السعودة.

الخلاصة

الجنة، كما تبدو في خيالنا هي مكان نشعر فيه بالأمان، لأن الأنهار تتدفق فيها من تحت أقدامنا ولا تنضب أبدًا، هكذا بدت أسواق العمل في بلاد النفط العربية خلال السبعينيات؛ حيث كانت إيرادات النفط تتدفق بلا توقف.

وبدت حكومات تلك البلدان في أشد الحاجة لنا وهي تتعطش لاقتباس خبراتنا الطويلة في المدنية عن طريق أصحاب المؤهلات العليا، كما تحتاج إلى العمالة متدنية التعليم أيضًا كي تشيِّد لها الأبراج على أنقاض حياة البداوة القديمة. وقد أسهم هذا التكامل، بين توفر الموارد والجوار المصري الغني بفائض ضخم من العاملين على مختلف مستويات مهاراتهم، في نقل جزء مهم من عوائد النفط إلى مصر، ومعها جرت تحولات عميقة في بنية الاقتصاد المصري وأنماط معيشة واستهلاك الأسر المصرية. لكن عدم الاستقرار السياسي في بعض بلدان النفط، وتراجع أسعار الخام لفترات طويلة، جعلت أنهار الموارد تبدو شحيحة للمرة الأولى منذ عقود. ولا يزال غير واضح مستقبل الاقتصادات النفطية في المنطقة وظروف العمل فيها، خصوصًا وأن أسعار النفط كانت تتراجع من قبل أزمة كورونا، مما يدلل على أن مشكلة أسعار الخام لم تكن أمرًا عارضًا يرتبط بالوباء وإنما أزمة تتعلق بأساسيات الاقتصاد العالمي. كذلك فإن تركيز بلدان الخليج على توطين فرص العمل لديها، خصوصًا في ظل شح الموارد في الفترة الأخيرة، يزيد من ضغوط وصول المصريين إلى فرص العمل في هذه الأسواق، كل هذه العوامل قد تنبئنا بأننا مقبلون على حقبة جديدة تختلف عما رأيناه منذ أن صعدت أسعار النفط في السبعينيات.

2

محاولات إنقـــــاذ الديموقراطيـــــة

ملاحظات أولية حول الانتخابات الأمريكية

عاطف سعيد

ما آخر أخبار نيفادا؟ هل من المعقول استغراق كل هذا الوقت لفرز الأصوات في دولة رأسمالية متقدمة مثل الولايات المتحدة؟ ليس معقولاً! لقد تحولت بنسلفانيا إلى الأزرق! من رابع المستحيلات أن تتحول جورجيا إلى الأزرق! نعم، لقد تحولت جورجيا بالفعل!

كانت هذه بعض تعليقات مواطنين مصريين وعرب ومتابعين بالآلاف حول العالم على وسائل التواصل الاجتماعي، وليس مواطنين أمريكيين. وهي تعليقات إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الانتخابات الأمريكية الرئاسية لعام 2020 كانت حدثًا دوليًا بكل المقاييس. حبست أنفاس الملايين طوال عدة أيام منذ بدء فرز الأصوات بعد 3 نوفمبر الماضي. وتابع أغلب المصريين والعرب والأوروبيين وغيرهم في أنحاء العالم النتائج أولاً بأول، وقارنوا بين نتائج وسائل الإعلام المختلفة الأمريكية والدولية، وكأنها انتخابات تحدث في دولهم. وبالطبع لا يوجد أي سبب سوى التخوف من دونالد ترامب، ومن فكرة ولاية ثانية له. ففكرة ولاية ثانية لترامب معناها الرعب، واستمرار كوارث متنوعة في جميع أنحاء العالم، لا في الولايات المتحدة فقط.. والنتيجة حصول بايدن على 306 صوتًا انتخابيًا في مقابل 232 لترامب. وحصل بايدن على ما يفوق عن 79 مليون صوت شعبي، بينما حصل ترامب على ما يتجاوز73مليون صوت شعبي. وبهذه النتيجة تأكد فوز بايدن بالأغلبية في كل من المجمعات الانتخابية، وكذلك الأصوات الشعبية. والطريف أن نتائج المجمع الانتخابي هذا العام تقترب من نتائج ترامب عام 2016 . لكن الأصوات الشعبية لبايدن هذا العام تفوق بكثير أي أرقام حصل عليها رئيس أمريكي من قبل. بل وتتجاوز الأصوات التي حصل عليها باراك أوباما عامي 2008 و2012 . وبنتيجة 2020 نجح بايدن في قلب نتائج ولايات ميشجان، وبنسلفانيا، وويسكونسن، بل وأريزونا، وجورجيا، لصالحه ولصالح الديموقراطيين، وهي جميعها ولايات صوَّتت لصالح ترامب عام 2016 .

ليس محل هذه السطور كتابة تحليل تفصيلي عن الانتخابات، لذلك سأكتفي بتقديم ملاحظتين عامتين فيما يلي:

أزمة عضوية ومركبة

لا شك أن الانتخابات الأمريكية أجريت في سياق أزمة مركبة وعضوية في المجتمع الأمريكي والرأسمالية الأمريكية. والقول بأنها أزمة عضوية مركبة يظهر في صورة تداخل أزمات كثيرة مع بعضها بعضًا، كل واحدة منها يمكن أن تؤدي إلى انفجار، إن لم تكن قد أدت الى بعض الانفجارات المؤقتة بالفعل. أهم هذه الأزمات هي الأزمة الصحية الخاصة التي خلفها ظهور وباء الكورونا، الذي وصل عدد ضحاياه في الولايات المتحدة إلى ربع مليون متوفى حتى الآن. هذا بالإضافة إلى أزمة العنصرية التي وصلت الى ذروتها بانتفاضة حركة «حياة السود مهمة» في نهاية مايو الماضي واستمرت لبعض الوقت. وسبب الانتفاضة هو استفحال حوادث القتل المنهجي للسود والملونين من قِبل الشرطة الأمريكية. هذا عدا عن الأزمة الاقتصادية السابقة على كورونا، والتي تكشفت بظهور الوباء واتشاره. وقد تغيرت أرقام البطالة من

شهر لشهر؛ ففي شهر فبراير الماضي كان إجمالي من فقدوا وظائفهم نحو 6.2 مليون الى 20.5 مليون في مايو الماضي؛ وهو رقم يصل إلى ما لا يقل عن 13٪ من إجمالي قوة العمل الأمريكية. ووفقًا لتقارير اقتصادية متخصصة عديدة، فإن هذه الأرقام والنسب تتجاوز بكثير النسب المناظرة لها في الأزمة الاقتصادية التي حدثت عام 2008 . تضافرت مع هذه الأمور مشكلات أخرى متنوعة استفحلت بوصول ترامب للحكم وإدارته السياسية داخليًا وخارجيًا (يكفي النظر إلى عدم استقرار إدارته وفضائح أعوانه وتغيير كل المناصب المهمة؛ على سبيل المثال المدعي العام، ووزيري الخارجية، والدفاع ومستشاريه للأمن القومي لمعرفة حجم عدم الاستقرار). من أهم هذه المشكلات والأزمات خروج الولايات المتحدة من منظمة الصحة العالمية (في ظل وباء عالمي)، وخروجها من منظمة «اليونسكو»، كذلك خروجها من معاهدة طوكيو للاحتباس الحراري، بالإضافة إلى عناد ترامب وسماحه باستخراج الغاز من مناطق خاصة بالسكان الأصليين، وسماحه بصيد حيوانات على وشك الإنقراض.. إلخ.

في هذا السياق اعتمد ترامب على سياسة شعبوية عنصرية وديماجوحية؛ إذ لعبت حملته على المزيج من الخطاب العنصري، ومغازلة اليمين الديني المتطرف.. إلخ، وقد جعل تداخل كل هذه الأمور السابقة الانتخابات قضية حياة أو موت لكثيرين. ولكن بسبب تداخل هذه الأسباب وتعقدها فإن نتيجة الانتخابات بفوز بايدن لن يتضح حلاً منظورًا لها قريبًا. والقول بأنها أزمة عضوية ليس مجرد رطان لغوي، بل هي حقيقة واقعة؛ إذ أن معظم هذه المشكلات ذات تاريخ طويل، ولم تستفحل الأمور إلا بظهور ترامب. حتى فكرة التهديد بالخروج من المعاهدات أو المنظمات الدولية أو تجاهلها، كلها أمور لها سوابق تاريخية متكررة في الولايات المتحدة. ولنتذكر على سبيل المثال إصرار جورج بوش، وحلفائه من بعده على الحرب على العراق عام 2003 على الرغم من عدم موافقة الأمم المتحدة. الفارق الكبير فقط بعد ظهور ترامب هو تأجيج وإظهار حدود نظرة أمريكا - البراجماتية والإمبريالية المأزومة ـ لنفسها وللعالم، هذا التأجيج جعل المسألة هي التخلص من ترامب بأي شكل، واعتبار التخلص منه تحجيمًا ووقفًا للخسائر وإنقاذًا لسمعة الولايات المتحدة. لكن التخلص من ترامب شيء، والقضاء من الأسباب الهيكلية لهذه الأزمات المتضافرة شيء آخر. وبسبب هذا التعقيد والتداخل نفسه فإن إدارة بايدن لن تكون سوى إدارة انتقالية لعلاج آثار مرحلة ترامب داخليًا وخارجيًا. لذلك يمكن القول ببساطة إنه وبسبب كونها أزمة عضوية ومركبة، فلا يمكن حلها بالانتخابات أو نتيجتها، حتى ولو بدت النتيجة مطمئنة للملايين في الولايات المتحدة والعالم كله.

أمل في الديموقراطية؟

وعلى الرغم من تحولها شبه الكامل إلى النيوليبرالية السلطوية، فلا تزال الديموقراطية الأمريكية بها بعض الحياة.. فهزيمة ترامب تعتبر هزيمة للفاشية، وفي هذا السياق تحدث الكثير من الديموقراطيين عن انتصار الديموقراطية أو إنقاذها من دورة ثانية لترامب وفاشيته. وفي مقابل كلام الديموقراطيين عن انتصار الديموقراطية الأمريكية أو ما تبقى منها، يتحدث ترامب وأنصاره عن أن ما يفعلونه هو إنقاذ الديموقراطية من مؤامرات «الشيوعيين الفوضيين الديموقراطيين والدولة العميقة الأمريكية». فأين الحقيقة؟ وهل يبالغ الطرفان؟

في الحقيقة يمكن القول إن الطرفين يبالغان في موقفهما. ودون اختزال مخل يمكن القول أيضًا إن الديموقراطية الأمريكية تحولت كما ديموقراطيات برجوازية كثيرة في العالم في عصر النيوليبرالية وترسخها إلى مسخ من الديموقراطية الإجرائية إن لم تكن سلطوية نيوليبرالية. والمقصود بالسلطوية النيوليبرالية الحكم الوحشي والمتطرف للسوق، وأن المؤسسات الحاكمة كلها أصبحت نفسها محكومة بالشركات الرأسمالية الكبرى، معظمهم من الممولين للحملات الانتخابية، وأصبح دور المؤسسات الحاكمة يتلخص في مزيج من القمع والبروباجاندا لمصلحة السوق وهذه الشركات الكبرى.

حتى رئاسة أوباما نفسها كانت أحد نماذج هذا الحكم (النيوليبرالية السلطوية). ففي الفترة الأولى لأوباما؛ بخاصة بعد كساد2008 ، توسع الديموقراطيون في منح سلطات لأنفسهم ولأوباما، في الوقت الذي كان الديموقراطيون يتحكمون في كل مؤسسات الدولة. هذا السياق ساعد الجمهوريين في استكمال المسيرة عندما تولى ترامب الإدارة عام 2016 . فقد توسع ترامب في استخدام القرارات الرئاسية التنفيذية بقانون (مثل قوانين تحجيم الهجرة، وبخاصة من بعض الدول الإسلامية من بين قوانين أخرى، وقرارات منع تدريس العنصرية من وجهة نظر نقدية، ومنع تمويل الدولة لأية جهة تعليمية تدرس تلك المناهج، من بين أمور أخرى). وقد عيّن ترامب على سبيل المثال في ولايته المنقضية

ثلاثة قضاة من المتشددين في المحكمة الدستورية، وعيَّن ما لا يقل عن 194 قاضيًا في المحاكم المختلفة، ويمثِّل هؤلاء نسبة لا تقل عن 24 ٪ من القضاة الجالسين. ومع ذلك لم يساعده هذا الأمر في قضاياه الهشة التي قام فيها بادعاء وجود تزوير شاسع في الانتخابات.

والكثير من المحللين يتحدثون عن المشكلات الهيكلية في الديموقراطية الأمريكية؛ مثل وجود فكرة المجمع الانتخابي التي ظهرت لإرضاء ولايات الجنوب بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، باعتبارها انتهاكًا لفكرة أساسية هي المساواة بين أصوات المواطنين، إذ من الممكن أن يفوز رئيس بالانتخابات بنتيجة المجمع الانتخابي ولو خسر الأصوات الشعبية، مثلما حدث مع ترامب عام 2016 . وبالإضافة إلى هذا يجمع الكثير من الباحثين على تأثير الأموال الضخمة على الانتخابات، ناهيك بالتشكيك في ماكينات التصويت، ووجود عراقيل كبيرة، بل ومنع للملايين من المواطنين من حقهم في التصويت إذا سجنوا، في سياق تنتشر فيه القضايا الظالمة والحبس المنظم للفقراء السود والملونين بفداحة. كل هذا بالإضافة إلى العمل المنهجي الذي قام به الجمهوريون في العقد الأخير لتعديل دوائر الانتخابات بطريقة تقسم الأصوات لضمان حصولهم عليها، واستمرار ممارسات منهجية وخصوصًا في الجنوب؛ وفي الولايات التي يسيطر عليها الجمهوريون، بوضع عراقيل لتصويت السود والملونين مثل إثبات شخصيتهم، وتسجيلهم في وقت مناسب قبل الانتخابات، وتوفير صناديق وأماكن للانتخابات. كل هذا بالإضافة إلى تحول الدعاية لماكينة رهيبة من الكذب والتدليس والتحريض ضد المنافسين، وارتباطها بالشركات المالكة لوسائل التواصل الاجتماعي، لاستهداف ناخبين ومناطق بعينها للتأثير في اختياراتهم من بين أمور أخرى. كل هذه الأمور تشير إلى أن الديموقراطية بالفعل أصبحت عملية إجرائية للانتخابات تتحكم فيها الأموال والتكنولوجيا والعصبية السياسية أكثر من أي شيء.

يمكن للنظر إلى الأموال التي أنفقت على الانتخابات وحده أن يعطينا فكرة عن العملية الانتخابية. ووفقًا لتقرير أصدرته إذاعة وموقع الإن بي آر بتاريخ ٢٢ أكتوبر الماضي، فإن مجموع المبالغ التي جمعت لجوزيف بايدن وصل إلى 51.1 مليار دولار، بينما وصلت المبالغ التي جمعها ترامب الى 1.57 مليار دولار. وفي تقرير تفصيلي متميز نشره موقع بلومبرج حول تصنيف المتبرعين للحملتين، صدر بتاريخ 2 نوفمبر الماضي، أشار إلى أن الكثير من الشركات الرأسمالية الكبرى تقاسمت تمويل الحملتين، وهذا ما يشير إلى انقسام حقيقي في الطبقة الحاكمة الأمريكية. وأشار التقرير المتميز إلى الخريطة الاجتماعية للمتبرعين الصغار أيضًا؛ إذ مال

المتعلمون للتبرع لبايدن، ومال الفقراء البيض وأصحاب الأعمال الصغيرة للتبرع لترامب. وبينما مال الموظفون ببعض الوزارات للتبرع لحملة بايدن، فإن العاملين بأجهزة الشرطة تبرعوا لترامب، كما تبرعت قطاعات من وزارة الدفاع لحملة ترامب، بينما تبرعت قطاعات من وزارة البحرية لبايدن. ومن أهم قطاعات الشرطة التي تبرعت لترامب كان العاملون بشرطة نيويورك، وهو جهاز الشرطة الأكبر في الولايات المتحدة وأكثرها وحشية.

وليس من قبيل التجاوز القول بأن ادعاءات ترامب بتزوير الانتخابات، ورفضه الاعتراف بالهزيمة حتى كتابة هذه السطور، هي أكبر خسارة لسمعة ومصداقية الديموقراطية الانتخابية الأمريكية؛ فلا يوجد سبب مباشر يمكن استنتاجه عن أسباب رفضه. يرى محللون إن هناك أسبابًا عديدة لذلك، مثل الانتقام من التشكيك في انتخاباته عام ٢٠١٦، وبخاصة قصة التدخل الروسي، وبهذا يرد ترامب على الديموقراطيين وإحراجهم له، والتشكيك في معركته عام 2016 . كما يذهب البعض إلى أن السبب الأساسي

هو مساعدة حملته ماليًا، إذ تهدف هذه الدعوات إلى جمع الأموال للمساعدة في تكلفة الدعاوى. وقد أكد أكثر من صحفي استقصائي أن معظم أموال التبرع للدعاوى التي أقامها ترامب للتشكيك في الانتخابات ذهبت لحملته وله شخصيًا وللحزب الجمهوري لا للدعاوى نفسها، والهدف هو جلب أموال لحل مشكلة المديونية الكبيرة لحملته. وأن الهدف آخر من الدعاوى هو الخروج بطريقة مشرفة -أمام أنصاره- بوصفه بطلاً خسر بسبب التزوير، وذلك للتمهيد لترشحه مرة أخرى، هو أو أحد أولاده في انتخابات 2024 . إن الخوف من شعبية ترامب هو أحد الأسباب التي تمنع الحزب الجمهوري من التعامل بأي مبدئية في قضية ادعاء تزوير الانتخابات.

يُجمع الكثير من الباحثين المدققين على أن فكرة إنقاذ الديموقراطية مبالغ فيها، أو على الأقل يبدون تخوفهم الحقيقي من الخسائر الكبيرة التي تأكدت بوصول ترامب وسياساته إلى السلطة خلال الأربعة أعوام الماضية. والسؤال المهم الذين يطرحه كثيرون هو كيف سمحت الديموقراطية الأمريكية لديماجوجي وفاشي وعنصري؛ ناهيك بأنه رجل أعمال فاسد لا يدفع الضرائب - في بلد قامت شرعيتها وجمهوريتها على فكرة أنه لا يوجد ضرائب دون تمثيل- بالوصول إلى قمة السلطة؟ وماذا يمنع من أن يتكرر هذا مرة أخرى؟ وهي مخاوف حقيقة طبعًا، وفي الحقيقة يكاد يؤكد كثيرون أنه ما دامت الأموال والعنصرية والشعبوية هي العوامل الكبرى التي تسيطر على العملية الانتخابية، فلن يمنع من وصول ترامب نفسه، أو ترامب آخر إلى السلطة في المستقبل القريب. وأهم الدلائل

عن مدى جدية هذا التخوف هي موقف قيادت الحزب الجمهوري من ترامب. فمعظم من سموا بالعقلاء والوسطيين في الحزب هُمشوا أو بدأوا في التسليم له. وقد صوَّت على سبيل المثال ميت رومني، المصنف من الوسطيين العقلاء بالحزب في صالح تعيين القاضية اليمنية المتشددة إيمي باريت في المحكمة العليا، وحدث هذا قبل ٨ أيام من الانتخابات، وبهذا خالف الحزب الجمهوري عرفًا أمريكيًا راسخًا بألا يعيِّن الرئيس المنتهية ولايته أي قاض في المحكمة العليا في عام انتخابي.

وقد تحدثت بعض قيادات الحزب الجمهوري بأن الحزب قوي ولا يخضع لتأثير ترامب، وأنه قد حدث ومرَّ بتجارب سابقة من سيطرة تيارات بعينها، مثل المحافظين الجدد في بداية الألفية، وصعود تيار حزب الشاي (وهي حركة اجتماعية شبه دينية تستلهم فكرة مقاطعة البضائع البريطانية والشاي إبان حرب الاستقلال)، ولكنهم يعودون للقول بأن الحزب تعافى منها. وفي الحقيقة فإن مستوى اشتباك الحزب وقياداته مع ترامب وتورطهم معه وخوفهم من شعبيته وديماجوجيته؛ يصعِّب عليهم الابتعاد عنه، والتخلص من المرحلة الترامبية في حياة الحزب إذا جاز التعبير. فقد تحوَّل الحزب بالفعل في العقود الأخيرة إلى حزب القومية البيضاء واليمين الديني المتطرف، ويحوم حوله شركات السلاح ونقابات البوليس من بين شبكات رأسمالية أخرى كبرى.

كما ساعد وجود انقسام حقيقي بين القضاة في منع فرصة قضايا ترامب الهزلية للتشكيك في النجاح. وقصة تدخل شركات مثل تويتر وفيسبوك في حظر تويتات لترامب أو التعليق عليها بأن هذه الأمور لم تحسم بعد تكراره إعلان انتصاره أو تأكيده على تزوير واسع، أمور ذات دلالة تؤكد تداخل التكنولوجيا ورأس المال والدعاية في الانتخابات الأمريكية. ولكن كل هذا لا ينفي وجود ممارسات ديموقراطية باهرة في الانتخابات الأخيرة؛ من أهمها على سبيل المثال حرص أكثر من ١٢٠ مليون مواطن أمريكي على التصويت المبكر بالبريد، ناهيك بملايين أخرى ذهبت للتصويت الشخصي المبكر، كل هذا في سياق وباء ومخاطر صحية. هذه التفاصيل هي ما يدعوني للقول إن الديموقراطية الأمريكية (ولو تحولت إلى ديموقراطية إجرائية بحتة، أو حالة عامة من النيوليبرالية السلطوية) لا تزال بها بعض الحياةوالتنافسية.

والخلاصة، أنه على الرغم من هذه العوامل المتشابكة، بالغ قطاع كبير في تصوير أن الانتخابات معركة حاسمة بين الفاشية والعقلانية، أو أن العلم انتصر على الجهل وهكذا.. لكن القول بأن العقلانية والعلم والأخلاق انتصرت على الفاشية والغطرسة هو كلام مرسل، ليس له أي مضمون اجتماعي واقتصادي. وفي الحقيقة فإن كل هذه الأمور مسيسة، وكل هذه الأمور تتحكم بها مصالح

كبرى. حتى الكلام عن احترام العلم (باعتبار أن ترامب قلل من أهمية الجهاز المركزي للتحكم في الأوبئة والعدوى وإصراره وإصرار أنصاره على أن الاحتباس الحراري خطاب مصنوع ومبالغ فيه للحد من قدرة الاقتصاد الأمريكي) لا يعكس انقسام حول المضمون، بل حول درجة خضوع هذه الأمور لمعايير المحاسبة والديموقراطية وبعدها عن سيطرة شركات الرأس مال الكبرى؛ فالديموقراطيون أنفسهم منقسمون حول الموضوع، ويعارض معظم الديموقراطيين اقتراح النائبة الديموقراطية اليسارية ألكساندرا أوكاسيو كورتيز بشأن عمل خطة عامة للحفاظ على البيئة والكوكب، حتى اضطرت أوكاسيو أكثر من مرة إلى أن تنضم للمحتجين من أجل إنقاذ الكوكب خارج اجتماعات الحزب الديموقراطي، وهذا دليل بسيط على صعوبة فض ارتباط الحزب وقياداته بشركات رأسمالية كبرى تدمر الكوكب. حتى كتابة هذه السطور يستمر ترامب في فصل قيادات من وزارات حساسة مثل وزارة الدفاع، ويستمر في منح شركات كبرى الحق في الصيد أو استخراج الغاز من أماكن مأهولة بالسكان الأصليين، كما لا تزال جامعات كبرى تطبق بحرفية قرارته بمنع تدريس فصول نقدية عن العنصرية في الولايات المتحدة. ويعطل ترامب عمل الفريق الانتقالي لبايدن، بما في ذلك فريقه المخصص لمتابعة أزمة عودة الأرقام الهائلة للإصابة بكورونا، وهي مسألة حياة أو موت. ويصر مجلس الشيوخ على التوافق مع الديموقراطيين في صرف منح عاجلة للمتضررين من الوباء، ويقرر نهاية فصل مجلس الشيوخ في ظل انتشار الوباء. أما فيما يتعلق بالسياق الانتقالي فقد أكد بايدن أنه ملتزم بالتوافق وعمل فريق تعددي يشمل كل الأمريكيين، بل وصرَح أنه سوف يضم جمهوريين في إدارته. وكان لافتًا للنظر أنه، في كلمته بعد إعلان نجاحه، طمأن أنصار ترامب؛ معلنًا أنه سيعيد احترام العالم للولايات المتحدة، وأن الولايات المتحدة سوف تمثل «قوة المثال» لا «مثال القوة» في العالم؛ في إشارة إلى رغبته في عودة دبلوماسية ما قبل ترامب. لكن في الوقت نفسه تضمنت الأسماء المقترحة لقيادة وزارة الدفاع أسماء محافظة ومعروفة بتأييدها للحرب. كل هذه الأمور تجعل الأزمة معلقة، في الولايات المتحدة وفي العالم، ولو مثل انتصار بايدن راحة ورسالة اطمئنان رسمي لقطاع كبير في العالم.

الإنفلونزا الإسبانية
وكوفيد 19

محمد أبو الغار

«إلا رسول اللّه»
مبتدأ الشعار وخبره!

مصطفى عبد الظاهر

فى الطريق
إلى بيت سعيد الكفراوى

هشام أصلان

رؤى

1

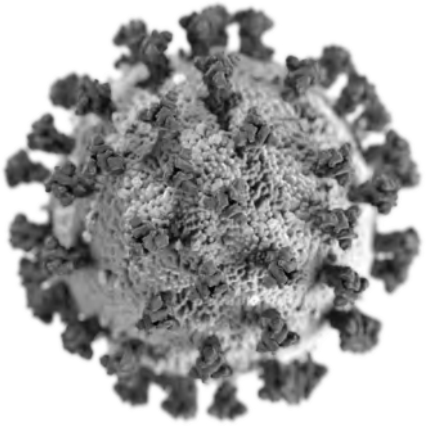

كوارث إنسانية غيرت العالم وسوف تغيره خلال مئة عام

الإنفلونزا الإسبانية وكوفيد 19

د. محمد أبو الغار

أصيب العالم بخمسة أوبئة لفيروسات الإنفلونزا وما يشبهها pandemics منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن. الوباء الأكبر والأخطر هو ما سمي بالإنفلونزا الإسبانية، وحدث في أعوام 1918 – 1920 وقتل ما بين 20 إلى 100 مليون إنسان وكان سببه فيروس H1N1. وفي عام 1957 حدث وباء سببه فيروس H2N2 وقتل مليون إنسان، وفي عام 1969 حدث وباء سببه فيروس H3N3 وقتل أيضًا مليون إنسان. وفي عام 2009 حدث وباء أقل حدة (H1N1) وقتل نحو 30 ألف إنسان. ومنذ ذلك الوقت اتخذت هيئة الصحة العالمية احتياطات كبيرة لتفادي حدوث وباء عالمي جديد ولكن هذه الخطط فشلت عندما انتشر وباء كوفيد 19 في نهاية عام 2019 ما يزال مستمرًا خلال عام 2020.

الإنفلونزا الإسبانية بدأت ربيع 1918 وانتهت في ربيع 1920، وانتشرت في العالم كله وقتلت الملايين في الهند والصين ومئات الألوف في أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا، وقتلت نحو 180000 نسمة في مصر حين كان تعدادها 13 مليونًا، وهو ما يعني أنه نحو واحد ونصف في المائة من السكان قد قضى عليهم الوباء. كان من أهم أسباب انتشار الإنفلونزا في العالم تحرك الجيوش والمدنيين المصاحبين لهم عبر المحيطات والأراضي في جميع أنحاء الكرة الأرضية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وكانت نسبة الوفيات مرتفعة بين الشباب. لم تكن هناك وسائل للعلاج غير الوقاية بلبس القناع والتباعد الاجتماعي والوجود في الهواء الطلق.

كان لهذا الوباء تأثيرات اقتصادية مهمة أدت إلى نقص متوسط دخل الفرد في العالم بمقدار 10% ونقص استهلاكه بالنسبة نفسها، واستمر التأثير الاقتصادي لمدة خمسة أعوام وحتى عام 1923، وانخفضت البورصة الأمريكية بمقدار 21% خلال هذه الفترة وانخفضت القدرة الصناعية بمقدار 18% بسبب وفاة الأيدي العاملة من الشباب. أما الآثار البعيدة المدى للوباء فكان ضخمة؛ فهناك دراسات تبين أن الأطفال الذين ولدوا في أثناء الوباء كانت قدرتهم على التعلم والفهم وصحتهم الجسمانية أقل، وكان للوباء آثار عصبية ونفسية شديدة. فبالإضافة إلى المرض وفقد الأقارب والأصدقاء اتضح أن هناك آثارًا عميقة طويلة المدى غيرت من تصرفات الإنسانية بسبب الفوضى

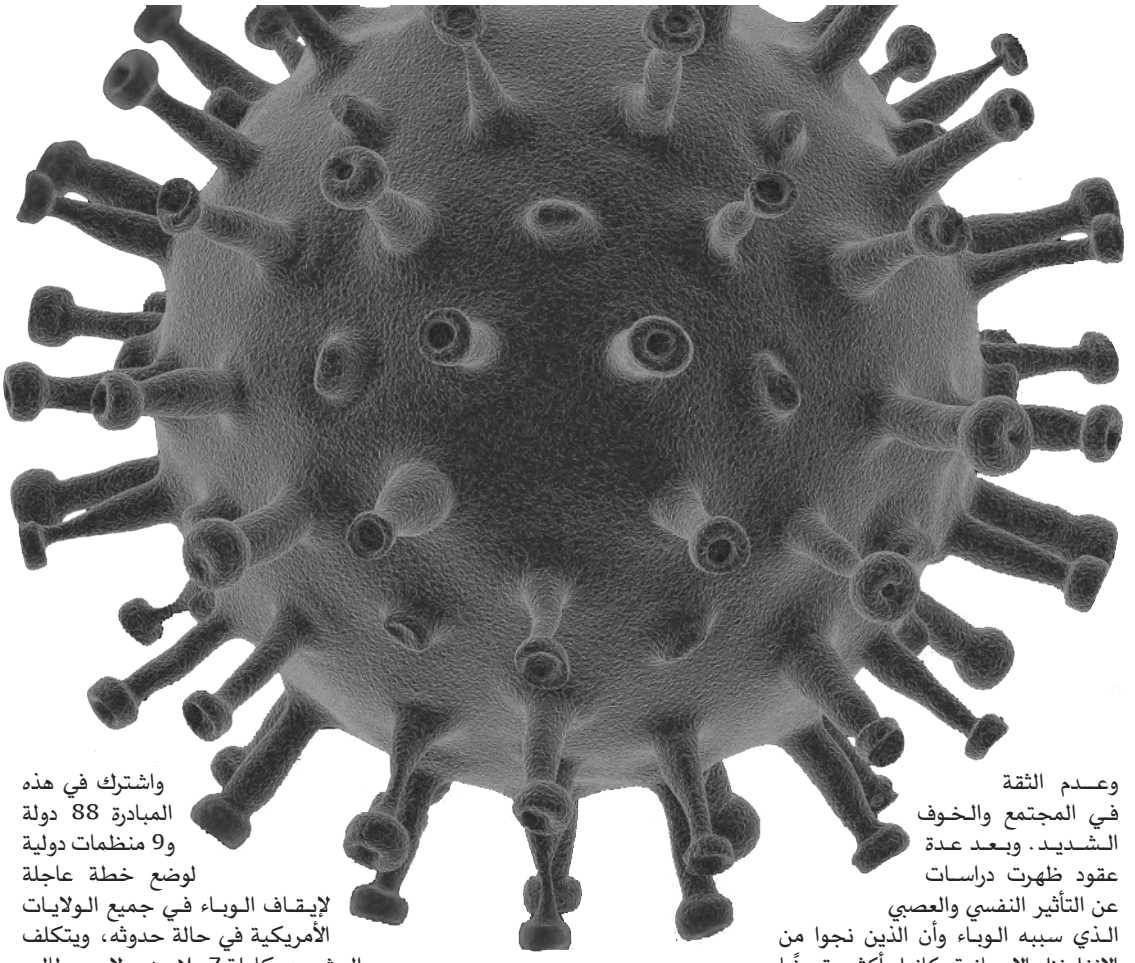

وعـدم الثقة في المجتمع والخوف الـشـديـد. وبـعـد عـدة عقود ظهرت دراسـات عن التأثير النفسي والعصبي الـذي سببه الوبـاء وأن الذين نجوا من الإنفلونزا الإسبانية كانوا أكثر تعرضًا لدخول مستشفيات الصحة النفسية، وكذلك القلق والاكتئاب وعدم القدرة على التركيز.

وباء الكوفيد 19

ظهر هذا الوباء في مقاطعة يوهان في الصين في النصف الثاني من عام 1919 وتميز بحدوث التهاب رئوي شديد ونسبة وفيات مرتفعة. أصاب حتى لحظة كتابة هـذه المقال نحو 50 مليون إنسان في العالم وتوفي بسببه أكثر من مليون وربع مليون إنسان. وفي أمريكا وحدها أصيب أكثر من 10 مليون مواطن وتوفي ما يقرب من ربع مليون مواطن. وأكبر عدد من الإصابات حدثت في أمريكا والهند والـبـرازيـل وروسـيـا وإيـطـالـيـا وفرنسا وإسبانيا وبريطانيا. والسؤال الآن: ما هو الفارق بين وبـاء 1918 ووبـاء 2019 ، وكيف أثّر وباء القرن العشرين في العالم وما هو التأثير المتوقع لوباء القرن الواحد والعشرين في العالم. ولماذا لم يتفادى العالم حدوث وباء الكوفيد وكيف نتفادى الأوبئة في المستقبل؟

في 31 ديسمبر 2019 أُبلغت منظمة الصحة العالمية بالوباء وتم التعرف على الفيروس وتحديد تركيبته الجينية بواسطة السلطات الصينية وعُرفت علاقته بالالتهاب الـرئـوي الـقـاتـل. وفـي 11 مـارس 2020 أعلنت الصحة العالمية أن هذا وباء عالمي pandemic ، وفي مارس أصبحت أوروبا المركز الرئيسي لانتشار الوباء بشدة، وكانت إيطاليا أول دولة تصاب إصابات بالغة بنسبة عالية من الوفيات وتلتها فرنسا. وانتشر الوباء بكثافة في روسيا وبريطانيا وإسبانيا وكذلك في ألمانيا، ثم انتشر بكثافة في الولايات المتحدة، وأصيبت ولاية نيويورك بأكبر الأضرار وأعلى نسبة وفيات. واتجهت جميع دول العالم إلى تطبيق سياسة العزل مع ارتداء الكمامات وغسيل الأيدي والتباعد الاجتماعي. وكانت السويد الدولة الوحيدة في الغرب التي لم يتم فيها إغلاق كامل.

الاستعدادات العالمية لتفادي الوباء:

ألقى الرئيس بوش في عام 2005 خطابًا أمـام ستة وزراء وكـبـار موظفي الهيئات الصحية الأمريكية وممثلي هيئة الصحة العالمية ووضع معهم خطة من ثلاث نقاط:

1 . كيفية اكتشاف بداية الوباء

2 . تحضير وتجهيز اللقاح المناسب

3 . وضع خطة طـوارئ لعزل المرضى وعلاج المرض

واشترك في هذه المبادرة 88 دولة و9 منظمات دولية لوضع خطة عاجلة لإيـقـاف الـوبـاء في جميع الـولايـات الأمريكية في حالة حدوثه، ويتكلف المشروع بكاملة 7 بلايين دولار، وطالب السيناتور إدوارد كينيدي بزيادة الميزانية لرفع مستوى الأداء.

في عـام 2012 تـم تحذير الـولايـات المتحدة بأن الوباء قد يحدث في أي وقد ويدمر الحياة الأمريكية. وفي عام 2015 حـذر عـزرا كلين، بعد أن تحدث مع بيل جيتس، عن المخاطر الشديدة لوباء سوف يؤدي إلى كوارث لم تحدث من قبل ولا بد من التحضير لمقاومته. وفي نهاية حكم أوبـامـا جـاءه هـذا التحذير فعقد اجتماعًا طارئًا مع مستشار الرئيس للأمن القومي مع كل الجهات المختصة، لإجراء تدريب عملي لمنع حـدوث وبـاء من فيروس غير معروف وشديد السرعة في الانتشار وهو فيروس قاتل.

وقد نشر مركز مقاومة الأوبئة في أمريكا عـام 2018 تـقـريـرًا ملخصه أن هناك توقعات باحتمال حدوث وباء عالمي ضخم، ولكن العالم مستعد له بقيادة أمريكا، لكن ثبت أن ذلك غير صحيح. وضعت أمريكا مع منظمة الصحة العالمية خطة لاكتشاف حـالات الإنـفـلـونـزا مـبـكـرًا ومحاصرتها، وأنـشـئـت 6 مـراكـز تابعة للمنظمة في أسـتـرالـيـا والـصـيـن والـيـابـان وبريطانيا والـولايـات المتحدة بـالإضـافـة إلـى 143

مركزًا في البلاد المختلفة تضم 114 عضوًا في منظمة الصحة العالمية، وتوجد بها معامل للفحص الدوري للعينات واكتشاف أي تغيير في جينات الفيروسات، وعليها إبلاغ المنظمة في ظرف 24 ساعة في حالة تشخيص إنفلونزا بفيروس A من نوع جديد. وتقوم المؤسسة الأمريكية CDC بتحليل المعلومات دوريًا، وهناك تعاون مع وزارة الزراعة لمتابعة الطيور والحيوانات البرية. وثبت أن هذا النظام لا يعمل بكفاءة لأن انتشار كوفيد 19 في العالم كله يعني أنه هناك خللاً في هذا النظام.

وفي عام 2018 بمناسبة ذكرى مئة عام على وباء الإنفلونزا الإسبانية، قام يونج بإبلاغ مستشار الرئيس ترامب للشؤون الصحية بأن وباءً شديدًا قد يحدث، وفي الأغلب سيكون نوعًا من الإنفلونزا، وعلينا اتخاذ الاحتياطات اللازمة. وفي اليوم التالي قام بولتون، مستشار الرئيس للأمن القومي، بعد استشارة الرئيس، بإغلاق الوحدة الخاصة بالتحضير لمنع ومكافحة الوباء المحتمل، وتم إعفاء المختصين والخبراء من مناصبهم.

وفي عام 2018 – 2019 قام مركز جونز هوبكنز لأمان الصحة بالتحضير لاجتماع حضره خبراء الصحة العامة وكبار رجال الأعمال وممثلي الحكومة الأمريكية للتحضير لعمل خطة لمكافحة احتمال انتشار فيروس كورونا في أمريكا وبدء التدريب العملي على الخطة ولم تهتم الحكومة الأمريكية. وبعد شهرين من هذا الاجتماع انتشر وباء الكورونا في ولاية يوهان في الصين. وأبلغت المخابرات الأمريكية في عام 2019 الحكومة الأمريكية بوجود الوباء في الصين ومخاطر انتقاله إلى أمريكا. ولم تفعل الحكومة شيئًا، ولم يحاول ترامب تفعيل الخطط الموضوعة مسبقًا. وبعد حدوث الكارثة قال ترامب إن هذا الوباء شيء غير متوقع لا نعلم من أين جاء. وبهذا وضح فشل نظام الدولة الأمريكية في إيقاف الوباء ومعالجته.

وعندما حدثت الكارثة اتضح أن الرئيس ترامب قد قام بتخفيض ميزانية الصحة العامة وجميع الهيئات المسؤولة عن مكافحة الأوبئة في السنوات السابقة مما أضعف كفاءة الأجهزة في مكافحة المرض. وأغلق قبل الوباء بعام الوحدة التي كان أوباما قد أنشأها لاكتشاف الأوبئة في مراحلها الأولى وتسريح المسؤولين عنها. ولذا عندما انفجر الوباء لم يكن هناك مسؤول معين له صفة للعمل فورًا لإيقاف الوباء.

وعندما انتشر المرض لم يكن هناك مسؤول أمريكي يعرف عدد أسرة الرعاية المركزة في أمريكا، ولا كميات الأقنعة ولا أجهزة التنفس الصناعي حتى حدثت الواقعة. لقد ثبت أن نظام الرعاية الطبية في الولايات المتحدة هو نظام باهظ التكاليف ومتقدم علميًا للغاية ولكن فقط لعلاج نسبة من الشعب الأمريكي تتمتع بأنواع مكلفة من التأمين الصحي الخاص. وعندما انفجر الوباء لم تجد أمريكا حتى الأقنعة الكافية ولا أسرة العناية المركزة ولا أجهزة التنفس الصناعي وأصبحت أمريكا بها أكبر نسبة من الإصابات بالكوفيد وأعلى نسبة من الوفيات. وإذا قورن هذا النظام بالتأمين الصحي الشامل لكل المواطنين في ألمانيا تجد أنه عند بوادر ظهور الوباء اجتمعت المستشارة ميركل مع المسؤولين وتأكدت أن النظام الصحي المجاني لجميع المواطنين مستعد تمامًا لمواجهة الوباء وقلت نسبة الحالات المرضية، وكانت النتيجة نسبة الوفيات الأقل في العالم بنظام طبي للجميع.

الأمريكيون يقولون إن هذا التأمين الطبي العام هو نظام اشتراكي لا يحبونه، ولكن ثبت عند الكارثة أنه أحسن نظام في العالم، والآن هناك أمام المحكمة العليا الفيدرالية الأمريكية قضية مرفوعة من ترامب لإلغاء نظام أوباما كير وهو تأمين صحي ضعيف تم تقليصه من الجمهوريين في مجلس الشيوخ وتغطي نسبة بسيطة من الأمريكيين محدودي الدخل بعد أن فشلوا في إلغائه في الكونجرس بدعوى أنه غير دستوري.

بين 1918 و2019 في الوقاية من الوباء

لم يحدث أي تغيير ولو طفيف خلال مئة عام، فالوقاية هي ليس الكمامة والتباعد الاجتماعي والاجتماع في الهواء الطلق ومنع التجمعات بجميع أنواعها وخاصة في الأماكن المغلقة.

العلاج

حدث تقدم في علاج الفيروس أدى إلى انخفاض نسبة الوفيات، منها اختراع مضادات الفيروسات، وهناك تقدم في هذا المجال، وفرص لاكتشاف أدوية أكثر فاعلية ضد فيروس كوفيد 19. استخدام المضادات الحيوية الحديثة منع الالتهاب الرئوي الثانوي الناتج عن بكتيريا. استخدام الأكسجين والكورتيزون ومضادات التجلط والتنفس الصناعي أنقذ أرواحًا كثيرة.

التطعيم (اللقاح)

هناك أنواع مختلفة من التطعيم يتم إجراء الأبحاث عليها، والمعروف أن 7% فقط من التطعيمات في مراحل التجارب المعملية و20% من التي بدأت التجارب على الإنسان نصل إلى مرحلة النجاح والاستخدام الآدمي. وحتى أول أكتوبر 2020 كان هناك 42 لقاحًا في مراحل التجارب على الإنسان، منها 10 لقاحات في المرحلة الثالثة وهي الأخيرة، وهناك 151 لقاحًا في مراحل ما قبل التجارب على الإنسان. ومعظم اللقاحات يأخذ منها الشخص جرعتين وبعضها جرعة واحدة. وتبغي هيئة الصحة العالمية توفير 2 مليار جرعة خلال عام 2021.

لقاح شركة مودرنا الأمريكي وصل إلى المرحلة النهائية وثبت فاعليته وينتظر الانتهاء من المرحلة الثالثة في نهاية العام. وقد ساندتها الحكومة الأمريكية بمبلغ 2.5 مليار دولار على أن تشتري الدولة جرعات مقابل مليار دولار ودفعت مقدمًا للشراء منها كندا واليابان وقطر.

اللقاح الثاني بيونتك وهي شركة ألمانية تحالفت مع فايزر الأمريكية ونوسي الصينية لإنتاج اللقاح وهم أيضًا في المرحلة الثالثة ومتوقع إنتاج 1.3 مليون جرعة في عام 2021. وقد أعلنت فايزر يوم 9 نوفمبر 2020 أن هذا اللقاح ناجح في الوقاية بنسبة 90% وهي نسبة مبشرة. ومشكلة هذين اللقاحين أنهما يستلزمان الحفظ في درجة حرارة 80 تحت الصفر، وهي مشكلة في شحن اللقاح بالإضافة إلى الحاجة إلى جرعتين للشخص الواحد.

أما اللقاح الثالث (كان سينوبيو) الصيني، وهو في المرحلة الثالثة ولكن تم الموافقة على استخدامه في الجيش الصيني وتجري التجارب في السعودية وباكستان وروسيا.

اللقاح الرابع: الجاميليا الروسي، وأعلن بوتن أنه تمت الموافقة عليه قبل بدء المرحلة الثالثة في الاختبار، واعتبر ذلك مخاطرة كبيرة، ولكن روسيا تراجعت عن استخدامه والآن بدأت المرحلة الثالثة.

اللقاح الخامس: جونسون وجونسون الأمريكي، وهو عبارة عن جرعة واحدة وينتظر أن تنتهي المرحلة الثالثة في نهاية العام الحالي.

اللقاح السادس: أسترا زينكا مع جامعة أكسفورد ومتوقع الانتهاء من التجارب.

اللقاح السابع: نوفا فاكس؛ وهي شركة أمريكية متوقع الانتهاء من التجارب في يناير.

لقاح معهد يوهان الصيني: بدأت المرحلة

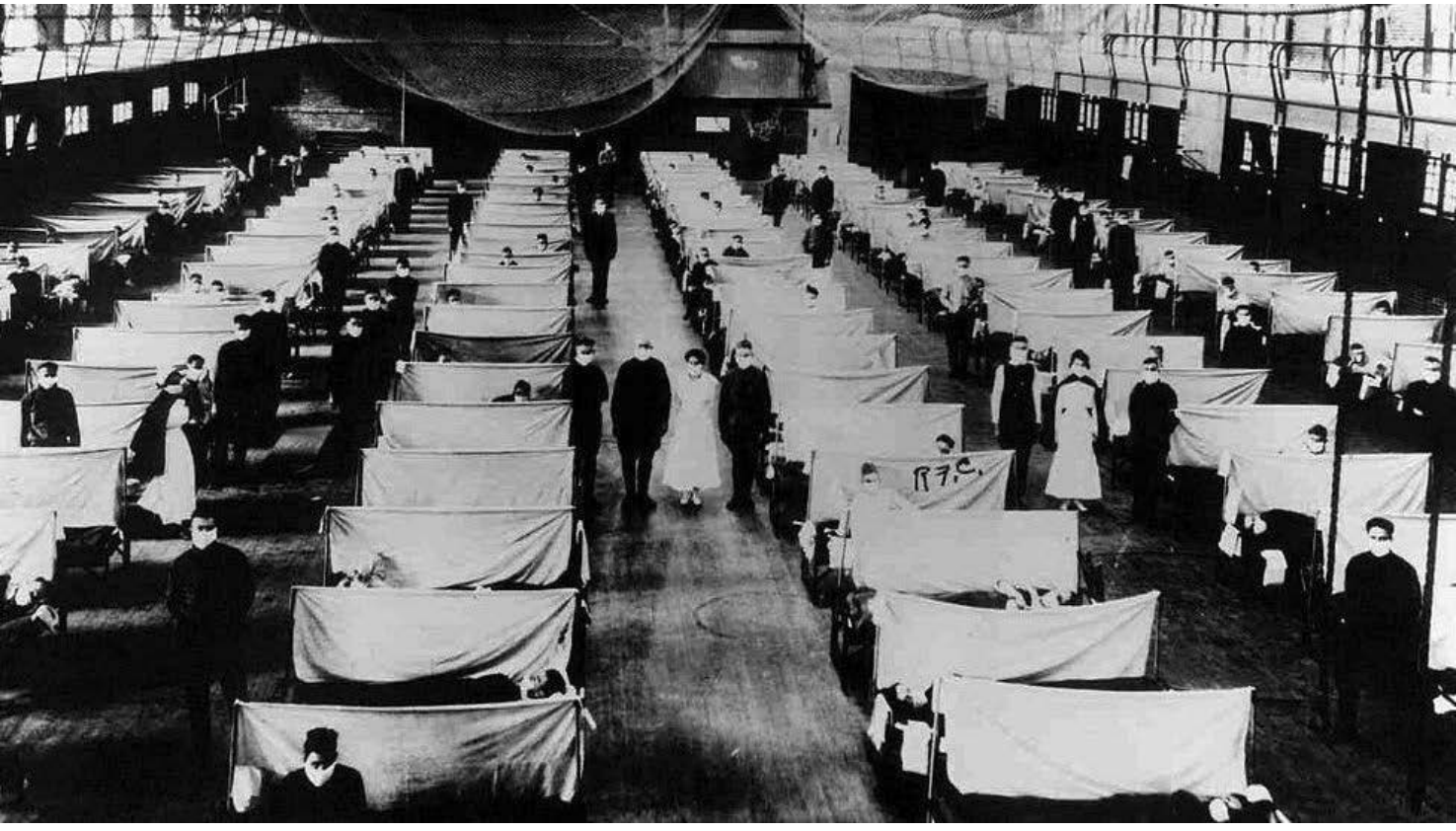

الثالثة في الإمارات والمغرب وبيرو وقد وافقت الإمارات على استخدامه للعاملين في الصحة مع لقاح آخر صيني ولقاح هندي.

أصبح واضحًا أن هناك عددًا من اللقاحات الناجحة ستكون متوفرة في الأسواق وموافق عليها من الهيئات الصحية العالمية في أوائل الربيع القادم. وبالطبع ستكون الفرصة أكبر للتطعيمات التي تحتاج إلى جرعة واحدة، ولا تحتاج إلى درجة برودة 80 تحت الصفر كي يمكن نقلها بسهولة. ومن المتوقع أن يتم تطعيم نحو 2 مليار مواطن بداية من مارس القادم. وسيكون اللقاح متوفرًا من عدد أكبر من الشركات بنهاية عام 2021. لن يقضي اللقاح على المرض تمامًا ولكنه سوف يوقف الوباء وتبقى بعض الحالات الفردية.

التأثيرات الاقتصادية والحياتية بعد الوباء

أهم تأثير سياسي للكورونا كان إسقاط ترامب وذلك بسبب التأثير الاقتصادي الضخم لوباء الكورونا، وانخفض متوسط دخل الفرد في أمريكا بين 20 – 30% ووصل عدد الأمريكيين طالبين معونة البطالة إلى 41 مليون عاطل في يونيو 2020. وكان التأثير عنيفًا في قطاعات السياحة والفنادق والطيران ومنافذ البيع للمتاجر الكبيرة. وحدث انكماش بأكثر من 5% في الاقتصاد العالمي يتبعه تضخم في الأسعار يجعل الحياة أصعب. وأصبحت مدن عظمى مثل نيويورك ولندن مدن أشباح. أما دول العالم الثالث الفقيرة، فالتأثير سيكون أكبر والمخاطر أعلى بسبب ضعف النظام الصحي، وعدم وجود شبكة تأمين تغطي الصحة والبطالة ويتبع ذلك زيادة في انتشار الجرائم وقلاقل اجتماعية وسياسية، وهو ما حدث بعد الوباء الذي حدث منذ مئة عام. وسوف يسبب الوباء انتشار الأمراض النفسية والعصبية لفترة طويلة بسبب الخوف من المرض وفقد بعض الأعزاء والعزلة عن المجتمع لفترات طويلة وسوء الأحوال الاقتصادية أو البطالة. كما سوف يحدث تأثير على ظاهرة العولمة التي انتشرت في العالم، وسوف يتم الضغط من الشعوب والحكومات على الشركات الكبرى بتقليل حجم التصنيع خارج الدول الغنية التي كانت تستفيد من العمالة الرخيصة. وبالنسبة للتجارة فإنه من المتوقع أن يغلق نحو 25 ألف متجر كبير في الولايات المتحدة ومنها المتاجر الضخمة الشهيرة التي سوف تعلن إفلاسها لأنها أغلقت معظم الوقت عام 2020. ويتم حاليًا تطوير كبير في طرق التسوق عبر الانترنت وسهولة التوصيل إلى المنزل والدفع بالبطاقات الالكترونية.

معظم الشركات والبنوك تفكر جديًا في أن يستمر عمل نسبة كبيرة من موظفيها من المنزل، ومن الممكن أن يذهبوا إلى العمل ليومين في الأسبوع. والنتيجة أن مساحات كبيرة من المكاتب سوف يتم الاستغناء عنها وسوف يؤثر ذلك بشدة على سوق العقارات. كذلك فإن العودة إلى المؤتمرات الكبيرة سوف يكون صعبًا، وسوف يترتب على ذلك خسائر بمليارات الدولارات للشركات التي كانت تنظم المؤتمرات ولشركات الطيران والفنادق والمطاعم. وقد تتغير خريطة الاجتماعات في العالم تمامًا لتوفير الوقت والمال. أما التعليم عن بعد أمر معروف منذ فترة طويلة ولكن تطبيقه على نطاق واسع أصبح حقيقة وسوف يستمر ويتطور ويكون جزءًا مهمًا من برامج التعليم.

على العالم إذن أن يستعد لتغيرات جذرية سياسية واقتصادية في كل ما يخص نواحي الحياة. ومصر كدولة من العالم الثالث معرضة مثل هذه الدول إلى ارتفاع ضخم للديون ومشكلات اقتصادية تؤثر على كل نواحي الحياة فيها بسبب الوباء. فقدت مصر دخل السياحة المهم، والتي سوف تتعثر عالميًا لعدة سنوات، وينتظر أن ينخفض دخل قناة السويس بسبب انخفاض التجارة العالمية، وكذلك تحويلات المصريين في الخارج والتي تمثل خمسة أضعاف دخل القناة.

إلا رسول الله
مبتدأ الشعار وخبره!

مصطفى عبد الظاهر

خلال الأسابيع الماضية، وبعد أن اشتُهِرَ شعار «إلا رسول الله» عبر وسائل التواصل الاجتماعي وعبر التظاهرات وأشكال التضامن والاعتراض التي جابت أرجاء العالم الإسلامي، على خلفية أزمة جديدة قديمة أثارتها – ثانية – مُعضلة «حرية التعبير/ الإساءة للمشاعر الدينية»؛ كان من التعليقات المثيرة للتأمل على هذه العبارة ما قاله الشيخ ياسر برهامي، السلفي المصري الشهير، الذي «حرَم» استخدامها، إذ بنى رأيه هذا على أن هذه العبارة «غير ذات معنى» لأنها تتطلب «تقديرًا لغائب» – حسب الصنعة النحوية – لا يتم المعنى إلا بوجوده، ثم بقفزة طويلة فوق العبارة، رأى برهامي أن الغائب في العبارة، المُستثنى، هو «بقية الأنبياء». كأنك تقول «كل الأنبياء يمكن إهانتهم إلا رسول الإسلام» وهذا طبعًا لا يجوز. إنك حين تسير فتصادف مبنى، تعلوه لافتة تقول، مثلًا، «صحيفة الصباح»، لكي تتم العبارة ويمكن إعرابها إعرابًا صحيحًا، ستقوم بتقدير الغائب، فستكون «هذا مبنى صحيفة الصباح». بشكل من الأشكال، قد أصاب برهامي في رأيه، لا بد من تقدير الغائب. لكن اللافت للنظر هنا، في هذا الفهم النحوي للعالم، أنه قد جاء بهذا التقدير، أين يمكننا أن نبحث عن مبتدأ هذه العبارة وخبرها إذن؟

يتعجّب بعض المراقبين من الغضبة العنيفة التي اجتاحت مواقع التواصل الاجتماعي وبعض البلدان الإسلامية، وهو التعجب المستمر نفسه منذ أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية عام 2005. فهؤلاء الغاضبين، الذين هم بالطبع ليسوا مواطنين فرنسيين، قد أدركوا هذه الأزمة إدراكًا شموليًا، إذ أحيا فيهم التضامن الحكومي الرسمي الفرنسي مع جريدة «شارلي إبدو» الساخرة مضامين قد تبدو بالفعل نابعة من عقدة اضطهاد، ترى في الغرب شر مطلق، وترى في المسلمين مُضطَهد أبدي، وعبروا عن مشاعرهم تلك بعبارات دينية، من أشهرها بالطبع الحركة الجماهيرية التي أسست في باكستان عام 2017 «لبيك يا رسول الله» التي قادت مسيرات احتجاج مليونية أخيرًا عبر شوارع إسلام آباد بقيادة الشيخ الصوفي «خادم حسين رضوي». فيرى بعض المراقبين في هذه الاحتجاجات فعلًا دينيًّا سلفيًّا، او فصلًا من حرب هوياتية مفتوحة في أرجاء العالم.

فقدان الذاكرة الكولونيالي

يورد المفكر الفرنسي «آلان جريش» في كتابه «الإسلام والجمهورية والعالم»، وفي معرض حديثه عن أزمة حظر ارتداء الحجاب في الأماكن العامة في فرنسا عام 2006؛ قصة نقلها عن فرانز فانون «الطبيب النفسي، والمفكر ما بعد الكولونيالي الشهير، الذي ولد كفرنسي وتوفي كجزائري عام 1961، صاحب كتاب «مُعذَّبو الأرض». يحكي فانون عن واقعة من حوادث مايو 1958 في العاصمة الجزائرية، أن مجموعة من النساء اللائي يعملن مومسات، اقتُلعن من منازلهن وقُدن إلى ساحة عامة، ونُزعت عنهن ملابسهن على وقع صيحات «تحيا الجزائر الفرنسية!» وأمام هذا الاعتداء، يستكمل فانون؛ عادت ردود الأفعال القديمة للظهور، ولم يكن من هؤلاء

النساء إلا أن ارتدين «الحايك» [ملابس تقليدية للمرأة في المغرب العربي تشبه النقاب في المشرق] . يستكمل فانون « كان ذلك بشكل عفوي ودون تنسيق، مؤكدين على رفضهن لتحرير المرأة بدعوة من فرنسا ومن الجنرال ديجول. وراء ردود الأفعال النفسية هذه، وفي هذا الرد الفوري، ينبغي على الدوام رؤية الموقف الكلي الرافض لقيم المحتل، حتى وإن انتهت إلى أن تُصبح مُختارة بذاتها. يعلق جريش على هذه القصة مُتسائلًا ومتعجبًا ومُستنكرًا: «كيف أمكننا أن نخفي مثل تلك الصور في الحوارات حول الحجاب؟ كيف أمكننا التستر على حقيقة أن أمهات وجدّات هؤلاء الشابات قد أُجبِرن على خلع الحجاب؟!»

الشعائر الدينية إذن ليست مجرد علامات دينية في أفق خالٍ من المعنى لئلا تُثير في الذهن سوى صراع الحضارات أو الردة الرجعية السلفية. سواء كانت الصلاة أو الحجاب أو رفض السخرية من المقدسات، التي يُمكن تُرى على أنها تمسك إسلاي بالنصوص التراثية، إلا إنها هنا، وكما تساءل جريش من قبل، تُضيف بُعدًا اجتماعيًّا وسياسيًّا شديد الوضوح أفعال احتجاج عام علني على ممارسة الاضطهاد. إن كل العلامات والرموز والشعائر، سواء أكانت دينية أو غيرها، ذات صلة وثيقة بالذاكرة الحضارية، وربما يختلف الأمر مع الإسلام بالفعل، لأنه، لأسباب تاريخية قد يطول شرحها، قد شكّل مصدرًا أساسيًّا وذخيرة من المعاني والرموز والأشكال اللغوية للنضالات السياسية في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، فسيكون حاضرًا بالطبع في ردود الأفعال العفوية على الأزمات السياسية، كما لاحظت الباحثة «نيلوفر حائري» في كتابها «لغة مقدسة وأناس عاديون» أن الخطاب السياسي في بلد كمصر، مهما كان صادرًا عن مواقف علمانية واعية، إلا أنه مُحمل ومليء بالعبارات الدينية، التي يُمكن، أن نُزعت من سياقها، أن تكون عبارات دينية محضة.

غزوات النيو ليبرالية وُلِدت لتتسع

على جانب آخر، وإذا أردنا بالفعل البحث عن مبتدأ العبارة في الجذور التاريخية. ففي المراكز الرأسمالية الغربية، ومن الستينيات، تطلب تحقيق برنامج النيو ليبرالية الاقتصادي، الذي عُرف عنه منذ الستينيات أن أحد اهتماماته كانت المقارنة بين القصف النووي المستمر أو القصف لمرة واحدة لليابان من حيث الجدوى الاقتصادية، وتفكيره في طرق الاستفادة الاقتصادية في شركات التأمين العملاقة من حوادث السيارات في الولايات المتحدة؛ هذا البرنامج الذي أصبح خطة عمل لبرنامج النيو ليبرالية الاقتصادي بعد ذلك في عهد ثاتشر وريجان وإلى يوم الناس هذا – تطلب هذا البرنامج مجموعة كبيرة من «الإزاحات». إزاحة صناعية كما نرى في سلاسل التصنيع المعلوم، التي تستفيد من الاعتماد على العمالة الرخيصة في دول الشرق والجنوب، لتتمكن من بيع المنتجات في الغرب الأكثر ثراءً وقدرة على الاستهلاك وضخًا للفوائض. الأمر الذي أدى إلى مراجعة برنامج

الديمقراطية بأكمله وفقًا لحسابات الربح، إذ اعتُبرت، مثلًا، الانتخابات الدورية أمر مُكلف يجب تلافيه، مما أدى إلى ما يصفه المنظر الكاميروني «أشيل مبمبي» بأنه «حَوَّل الديمقراطية من منتج رأسمالي أصيل، إلى عدوها الرئيسي».

ومن بين هذه الإزاحات المذكورة تأتي الإزاحة العسكرية في مرتبة أولوية لأغراض نقاشنا. فبعد أن كانت الحروب، بشكل ما، «حروب يوتوبيا»- بما لهذا التعبير من تناقض واضح بين شطريه-؛ إذ كانت الحروب -وإن خطابيًّا- تستهدف فتح أراض أو القضاء على عدو لضمان عملية السلام. أصبحت الحروب التي تخوضها القوى العسكرية الكبرى في العالم، وخصوصًا الولايات المتحدة ومن ورائها حلف الناتو، وفرنسا في دول أفريقيا – وعملياتها العسكرية والوحشية كانت مستمرة إلى وقت قريب في مالي على سبيل المثال، وستستمر إن تطلب الأمر – هذه الحروب غدت حروب «ديستوبيا» بالمعنى الذي يصفه الأنثروبولوجي الأمريكي آلن فيلدمان بأنها حروب لا تتركز حصريًّا على فتح أراضٍ. بل تتركز بالأحرى على الاختراق الإقليمي «الإرهابي»، والاختراق الديموغرافي والبيولوجي المنسوب إلى أطراف أخرى. وهذه الحملات لا تحدد بنيتها أهدافٌ سياسية محدودة زمنيًّا، بل هي مفتوحة على الأفق الزماني دون نهاية محددة. وهي ليست مجرد أدوات جيوستراتيجية - أي وسائل لتحقيق غاية سياسية. فحروب الديستوبيا المجاوزةُ للأطر الإقليمية هي أشكال ثقافية جيو-سياسية يمكنها تحقيق هيمنة نوعية داخل المجال العام الغربي عبر تعايش الخوف المستبطن وعدوان آخر موجَّه.

كان «الإسلام» موضوعًا مثاليًّا لحروب الديستوبيا، فبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 حل «الإسلام» – بهذا التعميم البارد دون تحديد – محل الاتحاد السوفيتي في ثنائية العداء الأمريكية، لكنه أضاف إليها صفة خاصة في العدو: إن العدو الجديد غير مرئي، ويمكن ان يهدد

أمن الدول الديموقراطية من الخارج ومن الداخل. كما وفر طاقة عمل مهولة لماكينة الفانتازيا السياسية التي اختُرعت ضمن سياق «صراع الحضارات».

إزاحة العبء الأخلاقي

لم تتمكن النيو ليبرالية من استكمال عملها في إضفاء الطابع الاقتصادي على الحياة الإنسانية في ظل القيود التي تفرضها عليها المُثُل الديمقراطية، فما ضمنته العولمة من استغلال للنخب الأوروبية والأمريكية «البيضاء» تحول إلى درس سهل تعلمته نخب الرأسماليين في جميع أنحاء العالم، ومن ثم، بدأت أرباح الضمانات العولمية تصب في مراكز رأسمالية جديدة مثل الصين والهند والبرازيل، بل وبدأت هذه النخب بتهديد مراكز التصنيع الغربية في عقر دارها. الأمر الذي حول البرامج السياسية في العديد من هذه المراكز الصناعية إلى «عقدة» للتناقض بين الرأسمالية والديمقراطية. وهو ما ترتب عليه ظهور فصام سياسي تجاه «العولمة»؛ العولمة لا تزال مطلبًا نيو ليبراليًا، لكن لا يمكن السكوت على ذهاب ثمارها إلى «الآخرين»، لذلك، ستتم الآن مواجهتها ببرامج «قومية». الأمر الذي شكّل أساس الظاهرة الشهيرة التي تُسمى «صعود الشعبوية».

وبالتزامن مع هذه المتغيرات، شهد العالم صعودًا لما تُعرفه العلوم السياسية بـ «الحركات الاجتماعية» الجديدة، التي بدأت بحركة «احتلوا وول ستريت» ولم تنته بثورات «الربيع العربي» واحتجاجات «السترات الصفر». كان معنى تزامن هذين الخطرين أن اليمين الأوروبي، مهدد من الخارج: في مكاسبه الاقتصادية وتفكك سياساته الاحتكارية، ومن الداخل: بسبب المطالب التي حملتها الحركات الاجتماعية الجديدة التي تدور حول العدالة الاجتماعية وإنهاء العنصرية والمساواة والاعتراف والتمثيل الاجتماعي والحقوق الشخصية.

في ظل هذه المخاطر، تشكّلت طبيعة «الشعبوية السلطوية» الجديدة. فإلى جانب الحروب التجارية التي قادها ترامب على الصين، تمثل الطابع الثقافي لهذا الصعود واكتسب صفاته المميزة. فالجنون والقبح والعنصرية والسفه واحتقار الفضائل.. إلخ. صفات تعريفية بالنسبة للشعبوية السلطوية – بالتأكيد لا بد أن يقفز ترامب ومؤيدوه إلى الذهن الآن – وبالطبع وجدت ضالتها في تراث قديم جديد مبني على تراتبية الحضارات وتفوق الإنسانية الأوروبية و«عبء الرجل الأبيض» (الشعارات التي نجدها مكتوبة ببساطة ووضوح في المانيفستو الذي وضعه الإرهابي اليميني الذي ارتكب مجزرة مسجد نيوزيلندا العام الفائت). على هذا الأساس، لم يقتصر الهدف العدائي على الإسلام – وإن كانت الأقليات الإسلامية قد تعرضت للشطر الأكبر من تبعاته – بل امتد إلى جميع الأقليات، وتضمن العداء المهاجرين والطرق الدائم على حديد «الذكورية البيضاء» لحشد مؤيدي اليمين ضد دعوات الحقوق الشخصية ونبذ العنصرية التي تتبناها الحركات الاجتماعية الجديدة وتحملها شعارًا.

إن المتتبع لخطاب اليمين الأوروبي المتطرف، والمتدين خصوصًا، سيجد فيه نظرة واضحة لتاريخ العالم على أنه واقع في «شرك العصاة» الذين لا بد من محاربتهم «لترجع الأمور إلى نصابها». وكان من بين معاني هذه الإزاحة الأخلاقية أن تنفتح خطوط العداء، فلا تكتفي بـ «الإسلام» كما في السابق، أو بصراع الحضارات، بل لتعادي أطيافًا متعددة، ويُعد فيها أهداف فنتازيا الحرب الجديدة «مطواعون» ولينون وموجودون في كل مكان ويمكن استبدالهم أو الإضافة إليهم في أي وقت، بما يتضمن تجار المخدرات والمهاجرين والذين لا يحملون أوراقًا ثبوتية والمسلمين والمثليين و«الملونين»، الأمر الذي لم يتوقف حتى عند «المعاقين» كما ورد في أحد خطابات ترامب. هذا هو شكل الإطار العالمي الجديد الذي لا يكتفي بالاسلاموفوبيا، كما كان الأمر عند مطلع الألفية، بل زاد عليها العديد من أشكال الرهاب الأخرى، ولم ينس أن يتضمنها أيضًا.

البحث عن المبتدأ

إن أردنا العودة إلى التحليل اللغوي الذي سيق كمثال في مطلع هذا المقال، يمكننا الآن أن نعي أن نسيان الماضي الكولونيالي ربما يكون أحد المحددات المهمة لاستجابة العالم الإسلامي تجاه الخطاب اليميني الفرنسي. الأمر لا يتعلق إذن بحرية الرأي أو التعبير، بل بماض لا يُنسى وجروح استعمارية لم تلتئم إلى الآن، لأنها، ببساطة، لم تلق أي حظ من الاعتراف أو الاعتذار. فقد يظهر شعار «إلا رسول الله» نوعًا من أنواع الرفض لإنكار هذا الماضي، ومحاولة لتوكيد الذاتية، المُستعمرة في الماضي، ومهضومة الحق في الحاضر. أما السياقات الأوروبية- الأوروبية، التي تتمثل في معاداة اليمين للأشباح والاستيهامات التي يحاول يرسمها ويتخذها متنفسًا لإزاحاته الأخلاقية؛ فهي نتيجة لارتداد تناقضاته على ذاتها، ويبدو أن السنوات القادمة، بحث، ستكون سنوات مواجهة بين الديمقراطية من ناحية، وبين الرأسمالية التي مثلت سياقها التاريخي الموضوعي في لحظة من اللحظات، من جهة أخرى.

3

فى الطريق إلى بيت سعيد الكفراوي

هشام أصلان

يوم استيقظت على خبر رحيل الكاتب الكبير سعيد الكفراوي، وفي الطريق القصير إلى منزله، مرت في الذهن أحداث كثيرة، على شريط يقترب عمره من أربعين عامًا. ومضات «فلاش باك» سريعة، راحت كل منها تفتح نافذة على مرحلة من مراحل الحياة.

يوم استيقظت على خبر رحيل الكاتب الكبير سعيد الكفراوي، وفي الطريق القصير إلى منزله، مرت في الذهن أحداث كثيرة، على شريط يقترب عمره من أربعين عامًا. ومضات «فلاش باك» سريعة، راحت كل منها تفتح نافذة على مرحلة من مراحل الحياة.

■■■

رأيتني طفلاً يلهو عصر يوم شتوي بجانب خيمة ليست كبيرة، جلس عند بوابتها بعض من رجال ونساء مصريين وعرب، وطاولات فوقها أكواب شاي وقهوة. في ذلك الوقت كان المقهى الثقافي في معرض القاهرة للكتاب لا يزال متخذًا الشكل التقليدي للمقهى البسيط، وكان مفهومًا أن تسمى خيمة الندوات التي بجانبه: خيمة المقهى الثقافي، قبل أن تمر السنين ويتحول المقهى إلى كافيتريا ضخمة مزدحمة بالرواد، ثم عدة كافتيريات تحمل أسماء مشهورة، فيما لم يعد معنى لاستمرار تسمية إحدى قاعات الندوات باسم «المقهى الثقافي». سأعرف في وعي لاحق، أنني كنت ألهو وسط مجموعة من أهم كتاب مصر والعالم العربي، تأتي الوجوه في غبش، ربما كان هناك محمد عفيفي مطر، وإبراهيم عبد المجيد، ومحمد برادة، لست متأكدًا أن كان من بينهم محيي الدين اللاذقاني، لكنني أتذكر جيدًا ما كان يرتديه أبي في تلك اللحظة، وأرى سعيد الكفراوي يروح ويأتي؛ يطمئن على أحوال الضيوف العرب، وينبه إلى ندوة صديق ستبدأ بعد قليل في إحدى القاعات بوجه جاد.

■■■

«كنا نحمل في وعينا حلم تغيير العالم. كانت هزيمة يونيو 67 قد حدثت. وكان بعض أفراد هذا الجيل قد تنبأوا بواقعها قبل أن تقع. كتب صنع الله إبراهيم «تلك الرائحة» ونشر أمل دنقل قصائد من ديوانه «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، وأنجز محمد عفيفي مطر قصائد ديوانه «النهر يلبس الأقنعة». وكانت مجلة «جاليري 68» المنبر الذي واكب إبداع هذا الجيل؛ إذ قطعت على نفسها مهمة أن يكون لها شرف وضع لبنة متواضعة في صرح الوطن الاشتراكي الديموقراطي. ولقد أوفى هذا الجيل بالعهد، بإبداعه الذي شارك في خلق ذائقة جديدة واكبت رؤى الإبداع المصري الذي عاش حقب الزعماء وزمن المعتقلات والصلح مع العدو وصعود تيارات الإسلام السياسي ومشاريع الانفتاح الاقتصادي، ثم هجرة المصريين للخارج.

وعبر ما حققته نصوص هذا الجيل، وما أبدعه من تخييل، سيظل علامة فارقة في تاريخ الثقافة المصرية، وأخص بالذات القصة القصيرة، إذ لم يكن للرواية في ذلك الوقت مكان بين أبناء هذا الجيل. كلهم كانوا يكتبون القصة وينشرونها في المساء، وفي مجلة «المجلة» التي كان يتولاها الرائد العظيم يحيى حقي. كانت القصة في أوج ازدهارها. جيل بسماته ومنجزه وكتابه وزمنه، عارض وسجن وعشق الوطن».

■ ■ ■

نحو العاشرة مساء، إحدى ليالي يناير أوائل التسعينيات. المكان: أمام صالة الوصول في مطار القاهرة. عدد كبير من أفراد العائلة ينتظرون وصول طائرة آتية من لندن تقل أبي وأمي. الطائرة تأخرت، وأفراد العائلة بدأوا يتشككون في كونهم ينتظرون في المكان والموعد الصحيحين. وجد زوج عمتي حيلة؛ أخذ عمي في يده واقتربا من جمع يقف بالقرب، وقال بصوت عال: «يا أخي أنا نفسي في مرة أشوف الجدع اللي اسمه سعيد الكفراوي ده اللي أخوك إبراهيم بيجيب سيرته ليل نهار»، قبل أن يترك أحدهم الجمع ويذهب إليه: «أنا سعيد الكفراوي». وارتاح زوج عمتي إلى أنه وباقي أفراد العائلة يقفون في المكان والموعد المناسبين.

قبل هذه الواقعة بنحو الشهر ونصف الشهر، كانت ناحية من نواحي الحياة الثقافية تقف على أطراف أصابعها، بعدما قال الأطباء لأبي إن عليه تغيير خمسة شرايين، وهو ما يستوجب السفر إلى الخارج، حيث لم تكن الظروف في مصر ذاك الوقت تسمح بتغيير أكثر من شريانين. ذهب سعيد الكفراوي وجاء، ومعه أصدقاء، منهمكًا في تخليص أي إجراءات يستوجبها السفر للعلاج على نفقة الدولة التي وفرت إمكانية سفر مرافق مع المريض. لم توافق أمي قط على اقتراح أبي أن يرافقه صديقه في رحلة الجراحة والعلاج، حاول أبي إقناعها بأن وجود سعيد أكثر عملية من وجودها، ولكن دون جدوى. لم يرافق الكفراوي أبي، لكنه رافقنا، أخي وأنا، بالسؤال اليومي هنا في القاهرة.

■ ■ ■

«أنا ابن قرية قديمة، لم يعد موجودًا منها شيء إلا ما تحتفظ به الذاكرة، وأنا أستعين بتلك الذاكرة للكتابة عما فات. غايتي استعادة زمن تلك الحوادث وناس تلك الأيام. أنا وبعض من كتبوا عن القرية المصرية، مثل عبد الحكيم قاسم وخيري شلبي ومحمد مستجاب، حاولنا استنطاق تلك الذاكرة، كمن يريد الحفاظ عليها. ثمة صوت دائم أسمعه في الصحو والمنام، مثل صوت منشد في ذكر. صوت موغل في الزمن، لا يكفُّ عن ترديد ذلك النداء الخفي، وأنا لا أكف عن الإصغاء

له، والغاية تثبيت زمن يضيع. أنا أكتب عبر عالم مثل هذا، يزخر ببشر لا يعرفون الغناء، يعيشون بين مساجد وأضرحة وأزمنة لا تنقضي. مكان مثل هذا، وزمان مثل هذا، وبشر مثل هؤلاء، في سعيهم لعيش حياة المصادفة، يحتاجون لكي تكتب عنهم، غرابة وفانتازيا وموروثًا شعبيًّا بطقوسه وسحره إلى كتابة ولغة تعتمد التركيز والشطح وجدة الإيقاع، إذ يتجسد إيقاع النص من غرابة عالمه».

■■■

كنت اقتربت من منزل سعيد الكفراوي عندما انتبهت إلى ناصية كان يجلس عندها أشهر بائع صحف في حي المقطم. منذ فترة لم أره يجلس مكانه بفرشته. قابلت عم سعيد آتيًا من ناحيته في ظهيرة من يناير 2012، قال إنه خرج ليشتري عدد أخبار الأدب الذي خصصته هيئة التحرير عن أبي عقب رحيله، وحكى أنه شارك فيه بحكاية الكرسي الهزاز الذي كان أبي يجلس عليه عندما أغمض عينه للمرة الأخيرة: «فضل يشتكي لي إن الكرسي بعد ما جابه وحطه في الأوضة الضيقة، ماكانش فيه مساحة تسمح بإنه يتمرجح، وإنه بقى زي أي كرسي عادي، وكان مبسوط أوي لما عزل وراح شقة أوسع تسمح بمساحة لإن الكرسي يتهز وهو قاعد عليه. ماكملش أسبوعين، ومشي من الدنيا وهو قاعد عليه بيتفرج على التليفزيون».

عند مدخل بيت عم سعيد استدعيت، دُفعة واحدة، تفاصيل يوم رحيل أبي، حيث مداخل العمارات في المقطم تتشابه، وكنا نسكن الدور الأرضي المرتفع مثل سعيد الكفراوي، حيث السلالم القليلة إلى بوابة البيت تشهد حالة من التوتر، ومقاعد مرصوصة في المدخل للمعزين، وسعيد الذي يرقد في إحدى غرف الشقة، كان أول من دخل على أبي يوم رحيله، وساعد حارس العقار، رغم تقدمه في العمر، في نقل أبي من صالة الشقة إلى غرفة داخلية. ثم راح يأتي إلى البيت كل يومين أو ثلاث، ويحكي عن العلاقة الممتدة منذ الستينيات. ربما أنه كان الوحيد الذي يقص حكايات لم أعرفها عن أبي، حكايات الشباب والسفر المتكرر في رفقته وكوميديا مشتركة مع أغلب أدباء الجيل، من مصر أو من خارجها.

■■■

أخذتني السنتمتالية، وذهبت السطور في حكي أغلبه ذاتي، غير أن سعيد الكفراوي ليس فقط صديق الأسرة الموجود على خلفية أحداث حياتي، لكنه قطعًا واحد من كتاب الستينيات البارزين، ذلك الجيل الأدبي الأكثر أثرًا في الكتابة المصرية، بوصفه جيلاً حمل الهموم نفسها، فنيًّا وسياسيًّا، والإحباطات ذاتها. ويعني اسمه عددًا من الأعمال القصصية المعروفة، منها: «مدينة الموت الجميل» و«ستر العورة» و«دوائر من حنين» و«كُشك الموسيقى» و«يا قلب مين يشتريك» و«حكايات عن ناس طيبين»، فضلا عن مشروع أدبي شفاهي يعرفه كل من التقاه، من المحيط للخليج، يتمثل في حكايات شفاهية كان يقصها في اللقاءات والفاعليات والجلسات الخاصة، حتى بات لها مكان لافت في شوارع الثقافة العربية، ومقاهيها وحاناتها وقاعات ندواتها، يستدعيها الجميع بمجرد أن تأتي سيرة صاحبها، يتذكرونها ويتلونها على بعضهم البعض، محاولين تقليد صوته وتقمص أدائه، المرتبط به سحر الحكايات.

■■■

برحيل سعيد الكفراوي، انقطعت آخر شعرة حيّة ربطتنا بالذين رحلوا من صُناع أيامنا. كان وجوده يُشعرنا بأننا على صلة مع أحباء انتقلوا إلى العالم الآخر. كان حارس سيرتهم، وآخر روائحهم في الدنيا.

(*) «الفقرتان اللتان جاءتا على لسان الكاتب الكبير سعيد الكفراوي، من حوار قديم أجراه معه كاتب المقال».

من الأساطير حتى الأطواق الكهربائية

أكاذيب الفاشية
بين المرح والكابوس

خالد يوسف

نظـــر

من الأساطير حتى الأطواق الكهربائية

أكاذيب الفاشية بين المرح والكابوس

خالد يوسف

نوفمبر بدا مثل يوليو، الفتاة التي عبأت حي أندرسونفيل في شيكاجو بصراخ الفرحة كانت ترتدي قميصًا بل أكمام ونصف جسدها الأعلى يقفز من سقف سيارتها، لم يكن صراخًا أكثر منه التقاط للأنفاس، كان تعبيرًا صوتيًا عن السنوات الأربع السابقة في حياة الأمريكيين. لافتات بايدن وهاريس الزرقاء للدعاية الانتخابية كانت حاضرة، ولكنها ليست محور الاهتمام. نوفمبر بدا وكأنه أول شهور السنة، وكان التعافي هو الهم الأساسي، ليس من الكورونا فقط، بل التعافي من الاستنزاف، والإجهاد، والغرائبية الخالصة، ومسلسلات تليفزيون الواقع غير المحدودة التي ذاقتها مدينة مثقلة بالهموم كشيكاجو، تنتمي لولاية زرقاء في عصر ترامب. صيحات الفرح والرقص الاستثنائي في شوارع أندرسونفيل لم تكن احتفالاً بأي انتصار، بل لاستعادة بعض ملامح الحياة الطبيعية «فقط».

بالنسبة لجيل كامل من الأمريكيين ـ بتركيباتهم الديموغرافية دائمة التغير في العقود السابقة، كل ما حدث من ٢٠١٦ هو ربما التجربة الأولى الحقيقة، وبالعرض البطيء لتحول الشعبوية من مجرد خطاب مزعج إلى كونها كتيب دعائي أو بروفة مسرحية في كيفية صعود الفاشية، كتطبيقات عملية يومية للواقع الذي رسمه مسلسل «المؤامرة ضد أميركا» الذي عرضته شبكة HBO مطلع ٢٠٢٠، في معالجة تليفزيونية لرواية فيليب روث الشهيرة التي تحمل العنوان نفسه، عن أميركا افتراضية في ثلاثينات القرن الماضي، يكتسحها التيار المناصر للنازية، فتتحول رويدًا إلى دولة من دول المحور.

الأمريكيون التقدميون أنفسهم كانوا يشعرون بالحيرة وهم يرون المجهود المضني لخط الدفاع الأول ثقافيًا في مقاومة عصر ترامب، كل خط الساخرين التليفزيونيين عجز في مناسبات عديدة عن مضاهاة غرائبية عصر ترامب، كان مؤلمًا رؤية المنازلة غير المتكافئة مع غرائبية ترامب من قبل ستيفن كولبير، وتريفور نواه، وجون أوليفر، و»نابغة التيك توك» سارا كوبر، وسارة سيلفرمان، ومايكل رابربورت، وكونان أوبرايان، وسيث ماير، وجيمي كيميل، وكل طاقم »ليلة السبت على الهواء«، وقناة كوميدي سنترال، وكيث أولبرمان، ومعهم نخبة من ساخري اليوتيوب من محترفي التقليد، حتى الظهور المتكرر لجون ستيوارت لم يكن كافيًا لالتقاط الصورة كاملة، ولفهم صدمة ٢٠١٦، تشارلوتسفيل في فيرجينيا، وإجراءات العزلة العبثية، دون نسيان كل مؤتمر صحفي عبثي يخص مستجدات الوضع بالنسبة لتفشي الكوفيد ١٩ من ولاية إلى أخرى.

على وجه الخصوص، كان مدهشًا لقطاع كبير من المتابعين للترامبية هو عجزه على مدار أربع سنوات عن إدانة جمعات التفوق الأبيض، تلك الرغبة في عدم خسارة عضو واحد من أتباعه من مناصري اليمين المتطرف. حتى في عز احتياجه إلى جمع أصوات متأرجحة خلال المناظرة الأخيرة له أمام بايدن، معطيًا أوامره لجماعة «الأولاد الفخورين» بالاستعداد والترقب في حال خسارته للانتخابات. إنها القشة التي أشعلت فضول الحائرين، قبل أن تعرف عنوانًا عريضًا بحصوله (خاسرًا) على ما يقرب من ٧٠ مليون صوت. إنها النبوءة التي توقعها ترامب نفسه في مطلع ٢٠١٦ عندما أكد «الكثيرون سيقومون بالتصويت لي حتى لو أطلقت النار على شخص ما في الجادة الخامسة في قلب مانهاتن».

على خط النار الترامبى

كانت مفارقة كبرى أن تأتي محاولات التفسير الجدية من حلال برنامجين ساخرين، قاما بعمل تجربة بحثية سياسية من نوع تجريبي خالص. في قرار باقتحام الستار الذي يجلس خلفه الطرف الثاني، من أي شعبوية وهم الجماهير نفسها. المفارقة الأكبر أن يكون رد الفعل هو الأكبر من جانب المشاهدين. الحالة الأولى يمثلها جوردان كليبير، المراسل الكوميدي للبرنامج الساخر «ديلي شو برفقة تريفور نواه» على قناة كوميدي سنترال. مواظبًا على الدخول في قلب معظم التظاهرات والفعاليات المخصصة لأنصار ترامب، خصوصًا في ولايات الوسط الأمريكي.

جوردان كليبير يدخل في جدالات مباشرة مع جمهور ترامب، في محاولة لفتح دوائر نقاش معهم، ومجادلتهم على نحو سقراطي، وبنفس منطقهم الخاص. كمحاولة تفهم سيدة في منتصف العمر تنوي الهجرة من أمريكا في حال فوز بايدن لرفضها العيش في بلد اشتراكي على حد قولها سيجعل التامين الصحي متاحًا للجميع، ويتسامح في قوانين الهجرة، معلنةً خطتها للسفر إلى كوستاريكا. ليتمنى لها كليبر التوفيق بالعيش في بلد آخر معروف بتأمينه الصح الشامل. متمنيًا لها أيضًا حظًا سعيدًا كمهاجرة في وطنها الجديد.

كانت جولات كليبر الميدانية فرصة مهمة للتعرف على آخر المعتقدات التي يتداولها أنصار ترامب، ومن أهمها أن الصين قامت بتطوير فيروس الكورونا رغبة في إهداء الانتخابات لبايدن، بإجبار قطاع عريض على إرسال أصواتهم عبر البريد. وأن الحاسب المحمول لهانتر بايدن ويحتوي على تفاصيل أعماله الخاصة يحتوي أيضًا على معلومات خطيرة تتعلق بتدخل دول أجنبية في السياسة الأمريكية، مما يشكل خطرًا على الأمن القومي. وأن «الواسطة» والمحسوبية مستفحلة في الدوائر الخاصة بجو بايدن، لكن الأمر مختلف بالنسبة لإيفانكا، لأنها تمتلك كل مميزات شخصية «الأميرة». كل هذا إلى جانب باقة من أفضل مختارات نظريات المؤامرة القادمة للتو من «فرن» غرف كيو أنون الافتراضية.

ابتسامات على شفاه فاشية

إلا أن المحتوى الأكثر إثارة للاهتمام، والأكثر تجريبية يتعلق بما حاول الكاتب الكوميدي روبرت سمايجل أن يقدمه، من خلال أدائه لشخصية ترايمف الكلب الشتام، الدمية المطاطية ذات اللكنة الروسية الثقيلة «وكأنه أحد القاطنين الجدد القادمين لحي تشيلسي النيويوركي من الجالية الروسية، الكلب الذي لا يتأخر في مصارحة الجميع بما يفكر، دون الالتفات إلى البروتوكولات المعتادة، خصوصًا على مستوى لخطابات السياسية. ليس من أقلها إرسال مراسلات مزيفات تابعات لقناة فوكس لنشر أخبار من نوعية نية ترامب تعقيم البورتوريكيين، أو بعث مراسل

أخر لفعالية مختلفة، مستطلعًا مجموعة آراء اليمين المتطرف التقليدية بخصوص قوانين الهجرة، قبل أن يقوم المراسل المزيف بترجمة مقابلاته إلى اللغة الإسبانية، وسط شعور بالاضطراب والحيرة من جانب الضيوف من أنصار ترامب، وكان البرنامج يضعهم في مواجهة مباشرة أمام الغريم، في تجربة عملية لمدى نجاعة أفكارهم.

يبقى الإسهام الأكبر لترايمف الكلب الشتام جاء متمثلاً في السلسلة الناجحة لجلسات مزيفة لاستطلاع آراء أنصار حقيقين لترامب داخل غرفة مغلقة، يتم فيها عرض مجموعة من الخطط والأفكار التي يمكن سماعها من قبل ممثل يقوم بتقليد صوت الرئيس، استعدادًا لحملته الانتخابية في ٢٠٢٠. على أن تقوم المجموعة بإعطاء أحكامها في مدى فعالية تلك الرسائل وقدرتها على إلهاب حماس الناخبين. ويكفي القول بأن مجموعة المقاطع المتعلقة بتلك الجلسات تجاوز عدد مشاهديها ال١٠ ملايين مشاهدة على يوتيوب، فيما يعتقد بأنه عرض حي يلتقي فيه العبث السياسي الكوميدي بأساسيات الفكر الفاشي. لعل أهمها ترحيب المجموعة بفكرة مفادها تركيب أسوار كهربائية غير مرئية لاصطياد المكسيكيين العابرين للحدود، أو تخصيص مصائد على دورات مياه عامة متنقلة، تغلق أبوابها بمجرد اصطيادها لمهاجر غير شرعي، وهي فكرة شبيهة نالت الإعجاب أيضًا؛ لمنازل تتحول إلى أقفاص تلتهم أي خادمة غير شرعية، قبل أن يتم شحن الجميع إلى بلادهم مرة أخرى.

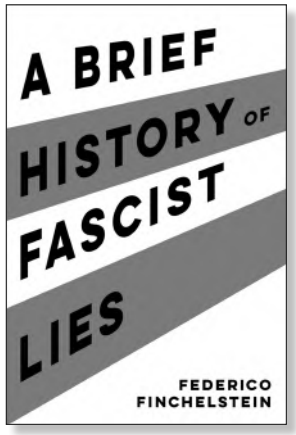

نادي الحقائق البديلة

بصرف النظر عن غرائبية الموقف، ووجود ناخبين يمكنهم بالفعل تصديق أن أوباما هو سيدة متحولة جنسيًا، وأن هيلاري كلينتون هي رجل كهل. إلا أنه لا يمكن تصديق التقاطعات المثيرة التي صنعتها تلك «المقالب» السياسية مع واحد من أهم الكتب السياسية لعام ٢٠٢٠ وهو «تاريخ قصير من الأكاذيب الفاشية» للمؤرخ والكاتب الأرجنتيني فيديركيو فينكلستين، فيما يعتقد بأنه الجزء المكمل لكتابه السابق «من الفاشية إلى الشعبوية» في عام ٢٠١٧.

فينكلستين يبدأ كتابه «الأكاذيب الفاشية» بالتصريح الذي أدلى به ترامب نفسه قبل عامين: «كل ما تشاهدونه، وكل ما تقرؤونه لا يعبر عما يحدث»، وهي البداية المثالية لوصف الكابوس الراهن، الذي يتجاوز مرحلة الغوغائية والدجل السياسي. إنها حالة لها علاقة بإرث طويل تركته الحركة الفاشية في القرن العشرين. وموقها العدائي من مفهوم «الحقيقة». ويضع فينكلستين خطوطًا واضحة تحت الملاح الخاصة للكابوس الراهن بقوله في المقدمة «نحن نعيش لحظة تلتقي فيها الشعبوية مع الفاشية على الرغم من كونهما أيديولوجيتين مختلفتين، فأنهما يتقاسمان شحن مناخ الزينوفوبيا، دون كبح جماح العنف السياسي المصاحب. إنه هدف يتقاسمه الشعبويون مع الفاشيون الجدد الآن». ويضع فينكلستين الخلط الذي تقوم به الفاشية بين الأسطورة والواقع خطوة أولى في طريق الصعود السياسي. أن يتم وضع الأسطورة محل الواقع، تمهيدًا لترسيخ الأكاذيب التي تعتنقها تلك الفاشية على أرض الواقع، مستشهدًا بالأساطير التى طالما أحاطت باليهود في العقلية الأوروبية عن المجتمعات اليهودية بداخلها، أنها غير نظيفة، وناقلة للأمراض. لتصبح الخطوة المثالية هي حبسهم داخل الجيتو؛ في أوضاع لا تسمح إلا بترسيخ تلك الفكرة، وتحويلهم إلى مجتمع منفر، تستفحل فيه الأمراض.

الخطوة التالية تتمثل غالبًا في حالة التوحد التي تشعر بها الجماهير مع أفكار القائد، وتوجهاته الرومانسية تجاه التاريخ القومي لشعبه، مع التحفظ على أن الفاشية تسحق في طريقها أي رومانسية أخرى قد تعمق شعور الفرد بذاته المستقلة «الأكاذيب المنظمة تقوم بتعريف مهمة الفاشية، الحقائق أو الأكاذيب هي

الأمريكيون التقدميون أنفسهم كانوا يشعرون
بالحيرة وهم يرون المجهود المضني لخط
الدفاع الأول ثقافيًا في مقاومة عصر ترامب،
كل خط الساخرين التليفزيونيين عجز في
مناسبات عديدة عن مضاهاة غرائبية عصر ترامب

فقط ما تحدده رؤية القائد، هذه هي الحقيقة) الوحيدة». إنه إذن ذلك الهوس الذي يشغل الفاشية، تلك المعاني المتضمنة داخل ثنايا الحقيقة، كلما كان الأمر أعلى صوتًا، أكثر عنفًا وأكثر صخبًا كان أقرب إلى «الحقيقة»، إنها بحسب قول فينكلستين «التعبير الوحيد المشروع والعابر للتاريخ عن الشعب، بل عن الأمة كلها، سعيًا إلى تحويل الأكاذيب الأيديولوجية إلى حقائق لا يمكن التشكيك فيها». الفاشية تعشق الحدس على عكس التأمل أو التمهل، الوجود الجسدي للقائد يقارب ذلك التصور الديني الكاثوليكي لتجسد الروح في جسد الأنبياء؛ ذلك الإيمان الذي لا يقبل التشكيك، وينبغي القبول به دون مناقشة.

كما أن العداء للحقيقة شرط مهم من شروط تلك العقيدة، وفينكلستين يدلل على وجود مفهوم الأخبار الكاذبة» في نماذج مبكرة من القرن العشرين، منها حزمة «الوصايا العشر» التي أوصت بها قيادة الفصائل الفاشية في رومانيا عام ١٩٣٥، ومنها وصية أساسية مفادها: «لا تثق بأي معلومات تتناول أخبار الفصائل في أي صحيفة، وحتى لو كانت قومية النزعة، ولا حتى ما ينقله المخبرون، أو حتى أصدق الناس، الفصائل تؤمن فقط بالأوامر التي يصدرها القائد». ولعل ما عايشه الطبيب أنتوني فاوتشي رئيس المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية خلال الأشهر الأخيرة من تعليقات ترامب هو تطبيق عملي لتلك الوصية القادمة من فاشيي رومانيا.

البعض يرى أن دونالد ترامب في مشروعه عن تعقيم البورتوريكيين قد تجاوز حدوده.. أعتقد أنه لم يتجاوز بالشكل الكافي

٢+ ٣ = ٦

إعادة خلق وتشكيل العالم، ومنها «الحقيقة» هي شاغل أساسي لدى الحركات الفاشية. في الوقت الذي تقود فيه المتغيرات العلمية العالم منذ القرن الثامن عشر، تتمسك الفاشية بالقيم المطلقة؛ بـ «الحقيقة التي يعتقد فيها تتغلب على الحقائق التي يتم إثباتها عمليًا». سنوات ترامب الأربعة تعتمد في قوامها الأساسي على خلق منظومة موازية للحقائق (تشمل العناد في إعلان الهزيمة في الانتخابات بدعوى التجاوزات التي شهدتها العملية الانتخابية الأمريكية في ٢٠٢٠).

يؤكد فينكلستين في الفصل الخاص بعلاقة الفاشية بالتدمير على ما أشار إليه المفكر الفرنسي الفاشي جورج فالوا؛ بأنه في الواقع البرجوازي ٢ + ٣ يساوي خمسة، قانونًا وتجارةً. ولكن في الحياة القومية ٢+ ٣ يساوي ستة، لأن الروح البطولية تصنع الفارق»، إنها المصنع الذي تمكن من تحويل التعاليم المسيحية إلى شعارات تستخدم لصالح العنف السياسي. ويضعها المؤرخ الأرجنتيني ساطعة في جملته: «القادة يكشفون عن رغباتهم للأعداء والأصدقاء بالقدر نفسه. ولكن هدفهم الأول هو تلبية رغبة أنصارهم المكبوتة في التدمير». أما الجانب الآخر من عملة السخرية والمرح في التعامل مع الترامبية هو الكابوس، ذلك الارتباط الدائم بفكرة النبوءة،

مشيرًا إلى تعليق أحد القساوسة المحافظين الأمريكيين أن رحيل ترامب عن السلطة قد يتسبب في حرب أهلية لن يتعافى منها بلدنا أبدًا». النكات التي أطلقها جوردان كليبر أو الكلب المطاطي ترايمف، لن تغيِّر من واقع أن تيارًا كاملاً وضع قدمًا ثابتة في الوقع السياسي الأمريكي، إلى الدرجة التي اعتبرت فيها النخب الأمريكية الحزب الجمهوري على أولى عتبات تحوله إلى حزب سلطوي، وأنه تجاوز مرحلته الشعبوية التي عرفت ملامحها في مطلع العقد الماضي عقب تولي أوباما السلطة.

في فقرته الأخيرة من كتابه القصير، يضع فينكلستين الصورة النهائية كاملة، في إقرار لواقع جديد تشكل بأفعال أكثر منها رغبة في إطلاق نبوءة، مؤكدًا على أن الشعبويين لديهم رغبة جامحة باستبدال الحقائق التاريخية بمجموعة أفكار مزيفة عن أمجاد سابقة وعد القائد دومًا بإحيائها. إنها الوسيلة الأمثل على حد تعبيره لفهم شعار «لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى»، وهي سلة جذابة يمكن أن نضع فيها كل أوراق حق حمل الأسلحة، والإجهاض، والتامين الصحي الشامل، وتعقيد قوانين الهجرة.

ذلك الماضي المجيد وهمٌ يعتبره فينكلستين في قلب التصور الفاشي لما يعرف بـ «الحقيقة»، أو «هذا المفهوم أصبح الموتور لشعبوية اليمين في نسخته الحديثة». وقد تكون تلك الكلمات واضحة بما فيه الكفاية، ولكنها ستأخذ شكلاً ساطعًا مع نهاية الفقرة الأخيرة في «مقالب» الكلب الشتام ترايمف، عندما عُرِض إعلان زائف عن نية ترامب إعداد قائمة بالشخصيات التي تستحق الحصول على المصل الواقي من الكورونا فور طرحه. ليجمع كل المشاركين في الاستطلاع مثالاً عن رغبتهم في إعطاء ذلك المصل لزوج من ولاية ميسوري؛ أشهر بندقيته في وجه متظاهري احتجاجات مقتل جورج فلويد بمجرد اقترابهم من حديقة منزله، وذلك قبل شخصية مثل أوبرا وينفري على سبيل المثال. وقتها قالت سيدة من ضمن المشاركين في الاستطلاع: «ذلك الزوج يستحق المصل أكثر من أي شخص، هؤلاء دافعوا عن ممتلكاتهم، لقد رأيت نفسي في هذا الموقف، هؤلاء الناس هم نحن».

على هامش
ذبح المدرس الفرنسي..

الهوس بالإسلام
بين الغيرة والرهاب

عمر الشافعي

سجـــالات

على هامش ذبح المدرس الفرنسي..

الهوس بالإسلام بين الغيـــرة والرهاب

تنفجر، بين الحين والآخر حوادث كبرى تجبرنا على النظر والمناقشة الجادة لقضية «الإسلاموفوبيا» أزمة الإسلام، وهي الأزمة التي لم تعد خاصة بالدول ذات الأغلبية المسلمة فقط، بل طالت آثارها الوخيمة العالم شرقًا وغربًا.. ونحن في مرايا نفتح بابًا واسعًا للسجال والبحث في معطيات الأزمة وتداعياتها، أملاً في فهم أفضل للواقع.. لذا ندعو كل الباحثين المهتمين بالقضية إلى مشاركتنا أفكارهم ورؤاهم بدءًا من العدد القادم.

المحرر

في جريمة مروعة، ذبح لاجئ شاب روسي شيشاني الأصل مدرس التاريخ في مدرسة ثانوية في إحدى ضواحي باريس؛ صامويل باتي، ٤٧ عامًا، في وضح النهار وعلى قارعة الطريق، مساء الجمعة ١٦ أكتوبر الماضي، بينما كان الأخير في طريق عودته لمنزله بعد انتهاء عمله، وذلك «عقابًا» له على استخدام رسوم كارتونية تسخر من نبي الإسلام في قاعة درس ضمن مادة دراسية عن حرية التعبير.

عمر الشافعى

ليست هذه للأسف الجريمة البشعة الأولى ولا الأخيرة التي يرتكبها مسلمون متشددون باسم الدفاع عن الإسلام ونبيه ورفضًا للإساءة إليهما. والمفارقة الكبرى أن مثل هذه الجرائم تُشكِّل أكبر إساءة يمكن إلحاقها بالإسلام وبمكانته في العالم. صحيح أن مرتكبي هذه الجرائم ليسوا سوى أقلية ضئيلة من المسلمين المتعصبين، لكن المأساوي أنها تحظى بقدر كبير من التعاطف، أو على الأقل التحفظ في رفضها، من جانب جزء ليس بالصغير من الرأي العام في بلادنا الحزينة، في تعبير عن مستوى جسيم من الهوس الديني، وتنكُّر كامل لقيمة حرية العقيدة وحرية التعبير، بل لقيمة الإنسان وحقه في الحياة.

لكن هذا الموقف «الغيور على الإسلام» ليس رد الفعل المَرَضي الوحيد على ذبح باتي. ففي خضم مشاعر التعاطف النبيل مع الضحية، ولا سيما خلال تأبينه الجماهيري المهيب في فرنسا، بدا واضحًا أن رد فعل الرئيس الفرنسي مانويل ماكرون وحكومته يستغل الجريمة النكراء لكي يجعل من مسلمي فرنسا، بل من الإسلام عمومًا، كبش فداء للمشكلات الكبرى التي تعانيها فرنسا، وليس أقلها الموجة الجديدة لفيروس كوفيد19- التي تعيث فسادًا في هذا البلد على نحو أعنف بكثير منه في أغلب أنحاء العالم.

والحال أن حملة ماكرون ضد الخطر الإسلامي سبقت مأساة اغتيال باتي. ففي 2 أكتوبر، ألقى الرئيس الفرنسي خطبة مهمة في إحدى ضواحي باريس. كانت استطلاعات الرأي آنذاك تشير إلى تدنٍ شديد في شعبية ماكرون، ليس فقط بسبب سجل حكومته السيء في التعامل مع الجائحة، لكن أيضًا في ضوء الغضب الاجتماعي المتنامي إزاء تفاقم اللامساواة في المجتمع الفرنسي. وانعكس هذا الغضب خلال السنتين الأخيرتين في حركة السترات الصفراء اعتبارًا من أواخر عام 2018 ثم حركة الاحتجاج ضد مشروع ماكرون لـ«إصلاح» نظام المعاشات التقاعدية، إلى أن قلصت الجائحة الحشود الاجتجاجية في الشارع بينما عمقت الشعور، من خلال أثرها الشديد الوطأة وغير المتناسب على المحرومين والمهمشين والفقراء، بفداحة الظلم الاجتماعي.

لم يتناول ماكرون الجائحة في خطبته، بل خصصها لمشكلة رآها أخطر، وهي «الانفصالية الإسلامية»، في مسعى لاستعادة قدر من الشعبية عبر اللعب على غريزة الخوف ودغدغة المشاعر القومية. وبدا واضحًا للمراقبين أن الرجل عينه على انتخابات الرئاسة المزمعة في 2022 وأنه يزايد على الخطاب اليميني المتطرف لمنافسته الأبرز غالبًا على مقعد الرئاسة في تلك الانتخابات، زعيمة 'التجمع القومي' (الاسم الجديد لـ'الجبهة القومية'، أبرز وأكبر أحزاب أقصى اليمين في فرنسا) مارين لوبين. و«الانفصالية» مصطلح مفعم بالإيحاءات السلبية في فرنسا، وهي إيحاءات تسري تحديدًا على مواطنيها المنتسبين إلى الإسلام، سواء بالممارسة الدينية أو بالثقافة أو الأصول، إلى حد أن مجرد ذكر الكلمة، حتى دون أن تقترن بصفة الإسلامية، يوحي إلى الذهن بالمعنى المقصود، وهو أن مسلمي فرنسا الذين يقارب عددهم الستة ملايين يعزلون أنفسهم عمدًا عن عموم المجتمع. وإطلاق هذه الصفة على مسلمي فرنسا ينطوي على اتهامهم «برفض ما يُرفَض لهم» (refuser de ce qui leur est refusé) على حد التعبير البليغ للمفكر والمناضل الماركسي الراحل دانيال بن سعيد، ذي الأصول اليهودية والعربية (الجزائرية) معًا وأحد أهم القيادات الشابة آنذاك لثورة مايو 1968 العتيدة في فرنسا. ذلك أن هؤلاء الملايين الستة يغلب عليهم الأصل المغاربي، ويشكلون جزءًا من ميراث الاستعمار الفرنسي البغيض، لا سيما في الجزائر، ويعيش قطاع ليس بالقليل منهم في بؤس وفقر في ضواحي المدن الكبرى شبه الحضرية نتيجة لعقود من الإهمال والتمييز في سياق التطور المركب واللامتكافئ للرأسمالية الفرنسية. وفي هذا السياق،

«على مدى عقود الحرب الباردة الأربعة لم يكن الإسلام السياسي بما في ذلك أشد أشكاله «ظلامية»، موضع نظرة سلبية في الغرب، بل كانت القوة العظمى الأولى تشجعه وتروِّج له

تُشكِّل تهمة «الانفصالية» جزءًا رئيسيًا من اللغة المستخدمة لتصوير واقع المسلمين الفرنسيين بالمقلوب، واقفًا على رأسه.

و«الانفصالية» المذكورة، لها وجهان، أحدهما هو «الخطر الداخلي» المتمثل في انكفاء مسلمي فرنسا المفترض على ذاتهم. والآخر هو «الخطر الخارجي»، أي تنامي الإسلام المتشدد واستعداده للانقضاض على فرنسا لا بغرض إلحاق الأذى فحسب، بل الاستيلاء على السلطة وسحق أسلوب الحياة الفرنسي! وهنا مغزى حديث الرئيس الفرنسي عن أن الإسلام «ديانة تعيش اليوم أزمة في كل مكان في العالم». وبهذا البعد الخارجي يتضح الطابع الانزلاقي لمفهوم «الانفصالية». فإذا كان التأكيد على الخطر الداخلي يجعل المسلم مرادفًا للانفصالي، فإن الخطر الخارجي يوسع نطاق الترادفية بحيث تصبح المعادلة هي مسلم = انفصالي = إسلامي = إرهابي، وهي ترادفية ضمنية يرسخها خطاب مناهضة الانفصالية إلى حد يصبح معه سعي ماكرون لاحقًا إلى تلطيف الجو بإعلانه أن المستهدف ليس هو الإسلام وإنما تشويهه المتشدد محض لغة دبلوماسية «مهذبة» يحاول صاحبها أن يبدو بها حريصًا على مشاعر المسلمين!

لكن القارئ قد يعترض بأن ما يسميه كاتب هذه السطور «تصوير واقع المسلمين الفرنسيين بالمقلوب» ليس بعيدًا عن الواقع إلى هذا الحد. ألم يُذبح صامويل باتي بعد أسبوعين فقط من خطبة ماكرون المذكورة؟ الواقع أن كلام ماكرون في هذا الصدد، وخطابه عمومًا إزاء الإسلام، تسري عليه مقولة «النبوءة المصدقة لذاتها». فحينما يجري إقصاء قطاع من السكان عمدًا على مدى عقود عبر التمييز المنهجي في مجالات مثل التوظيف والإسكان وغيرهما، وترسيخ ووصم هويته الإثنية/الدينية باعتباره يمثل «الآخر» المشتبه به والمطلوب منه على الدوام إثبات أنه مماثل بينما يجري التأكيد ليل نهار على أنه لا يمكن إلا أن يكون مختلفًا بحكم موروثه، فإن بعض هؤلاء سيميلون، بحسب حيلة «احتضان الوصمة» التي طالما أثبتت نجاعتها، مثلما يشرح بن سعيد، «فينتصرون بفخر للخصوصية المفروضة عليهم ويخوضون مقاومة تناهض الاندماج» (Bensaid 2015: 41)[1].

وعلى الرغم من الإدانة الواسعة لجريمة ذبح صامويل باتي من جانب المؤسسات الممثلة لمسلمي فرنسا والشخصيات البارزة في صفوفهم، كثَّف ماكرون حربه ضد «الانفصالية الإسلامية» معلنًا عن إجراءات صارمة لاجتثاثها من المساجد والمراكز والجمعيات الإسلامية ومنابر السوشيال ميديا. وباسم التصدي للخطر الداهم على «قيم الجمهورية»، طالت الإجراءات القمعية 'التجمع ضد الإسلاموفوبيا بفرنسا'[2]، أبرز جمعية مناهضة للعنصرية ضد المسلمين في البلد، وبات أي صوت يساري يرتفع ضد إجراءات القمع والمنطق الكامن فيها موصومًا بال«يسارية الإسلامية»، وهي مرادف في معجم اليمين العنصري الفرنسي للخيانة المفترضة من قِبَل اليسار الجذري لقيم الجمهورية الفرنسية من خلال التواطؤ مع «الخطر الإسلامي» أو على الأقل التخاذل إزاءه. وبلغ هوس ماكرون بتأميم الإسلام الفرنسي من خلال اشتراط التصريح الحكومي للأئمة والمؤسسات والنصوص حدًا دفع معلقًا في جريدة فاينانشال تايمز العريقة إلى القول بأن ماكرون لو نجح في مسعاه

رغم الإدانة الواسعة لجريمة ذبح صامويل باتي من جانب المؤسسات الممثلة لمسلمي فرنسا، كثَّف ماكرون حربه ضد «الانفصالية الإسلامية» معلنًا عن إجراءات صارمة لاجتثاثها

(1) الإشارة في متن المقال بين قوسين هي إلى اسم المؤلف ثم سنة النشر وأحيانًا (بعد نقطتين) رقم الصفحة، وترد قائمة مختصرة بأهم المراجع في ختام المقال.

(2) يستخدم هذا المقال علامات التنصيص الأحادية، 'ـــ' لأسماء الهيئات، وعلامات التنصيص الثنائية، «ـــ»، إما في الاقتباسات أو لأغراض التهكم أو لفت الانتباه إلى مصطلح إشكالي.

الرامي إلى إحكام سيطرته على تشكيل «الإسلام الصحيح» في فرنسا سيجعل بلده الوريث الحقيقي للإمبراطورية العثمانية وأول خلافة في أوروبا الغربية!

لكن في حين أدان أغلب ممثلي مسلمي فرنسا ذبح باتي إدانة واسعة صريحة بينما يتصدون للإسلاموفوبيا في بلدهم، فهذا ليس للأسف، كما سلف الذكر، حال «الغيورين على الإسلام» في بلادنا. وهكذا نجد أنفسنا أمام ردي فعل مَرَضيين على الجريمة. فأوساط الحكم في فرنسا تستغل الجريمة لشيطنة مسلمي فرنسا وترسيخ «أخرنتهم» (تصويرهم كـ«آخر» خطر ومختلف جذريًا) واستخدامهم كبش فداء للأزمات، بينما تنتعش عندنا جبهة فضفاضة من «الغيورين على الإسلام»، ممن لديهم مشاعر دينية «حساسة» من نوع غريب، تخدشها رسوم كارتونية تسيء إلى نبي الإسلام لكن لا يخدشها ذبح مدرس على قارعة الطريق، مدرس مشهود له، مثلما سنرى أدناه، بشغف حقيقي بالعالم العربي وبالإسلام وحساسية حقيقية إزاء مشاعر طلابه من المسلمين.

سؤالان وتدقيق مصطلحي

يثير النوعان المشار إليهما أعلاه من ردود الفعل على جريمة 16 أكتوبر الماضي سؤالًا كبيرًا (يتفرع إلى عدد من الأسئلة) حول الشأن الإسلامي في زمننا، وهما سؤالان يركز المعلقون على هذه الجريمة ومثيلاتها على أحدهما دون الآخر، وذلك على نحو حصري يُعبِّر عن استقطاب حاد متصاعد.

الأول هو سؤال الأزمة. هل يعاني الإسلام كدين، أو المسلمون من حيث هم أناس مؤمنون بهذا الدين، من أزمة تبحث عن مخرج أو حل؟ والسؤال الثاني هو سؤال الاضطهاد أو ما يشيع تسميته الإسلاموفوبيا. هل يعاني الإسلام كدين، أو المسلمون كأفراد أو كمجموع، في بلدان الغرب المتقدم (وربما على الصعيد العالمي) من تمييز مجحف على أساس الدين أو الإثنية أو الثقافة؟

برز مصطلح «الإسلاموفوبيا» على ساحة النقاش العام في الغرب المتقدم مع صدور تقرير في عام 1997 عن مركز بحثي بريطاني مرموق معني بقضايا المساواة ومكافحة العنصرية هو 'رانيميد ترَست' (Runnymede Trust). وكان هذا المركز قبلها بقليل قد أنشأ داخله لجنة معنية بأحوال المسلمين البريطانيين تولت إصدار تقرير أولي ثم إخضاعه لعملية تشاورية واسعة النطاق في بريطانيا أسفرت عن صدور التقرير المذكور بعنوان «الإسلاموفوبيا: تحدٍ لنا جميعًا»، ثم صدر قبل عامين أو ثلاثة تحديث للتقرير بمناسبة مرور 20 عامًا على صدوره. ومع أن التقريرين الأصلي والمحدَّث اهتما أساسًا بالإسلاموفوبيا في بريطانيا، فإن تناولهما للظاهرة مفيد للغاية لفهم تجلياتها في الغرب عمومًا. ومن المؤسف أن عمل هذا المركز لم يحظ في العالم العربي حتى الآن بما يستحقه من اهتمام.

أسئلة الإسلاموفوبيا

تسود الغرب الرأسمالي المتقدم اليوم، بل وتتخطى نطاقه، نظرة بالغة السلبية إلى الإسلام. هذا الأمر تؤكده أحدث وأدق استطلاعات الرأي في هذا الشأن. ففي الولايات المتحدة، لدى 55% من السكان آراء سلبية عن الإسلام، بينما يحمل 38 %من الأمريكان آراء سلبية عن المسلمين. والأمر أسوأ من ذلك بكثير في أوروبا الجنوبية والشرقية، حيث ترتفع نسبة من يحملون آراء سلبية عن المسلمين إلى نحو ضعف مثيلتها لدى سكان الولايات المتحدة، فتبلغ 72 %في صفوف المجريين و69 %بين الطلاينة و65 %لدى اليونانيين و50 %بين الإسبان (Green 2019: 2). وقبل الحادث المأساوي الذي كان مناسبة كتابة هذا المقال، كان 60 %من الفرنسيين يرون الإسلام مناقضًا لقيم الجمهورية الفرنسية (تخيَّل معي كم ارتفعت هذه النسبة الآن)، والغريب أن نسبة أكبر من البريطانيين (72 في المائة) ترى الإسلام غير متوافق مع القيم البريطانية، رغم ما يشيع عن كون النموذج البريطاني في استيعاب المهاجرين و«الآخر» أكثر رحابة من نظيره الفرنسي. ومن المرجح جدًا، رغم غياب الإحصاءات والاستطلاعات، أن صورة الإسلام (وأحوال المسمين) أسوأ بما يقاس في البلدين الأكبر في عالمنا، الهند والصين.

> **أيدت الولايات المتحدة المسعى السعودي لنشر الأفكار الإسلامية على امتداد الشرق الأوسط وخارجه. وامتد هذا التأييد ليشمل مساندة الاستخبارات المركزية لجهود الإخوان لتقويض النظام الناصري**

(أ) من «الرعب الأحمر» إلى «التهديد الأخضر»

على مدى عقود الحرب الباردة الأربعة من أواخر أربعينيات إلى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، لم يكن الإسلام، بل والإسلام السياسي بما في ذلك أشد أشكاله «ظلامية»، موضع نظرة سلبية في الغرب، بل كانت القوة العظمى الأولى في العالم وقائدة المعسكر الغربي تشجعه وتروِّج له. ذلك أنها رأت في الشرق الأوسط، بمحوريته لطرق التجارة والملاحة العالمية ومخزوناته الهائلة والمتنامية من النفط، إحدى أهم حلبات مواجهتها الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي. وبينما سعى هذا الأخير إلى إقامة تحالفات مع نظم المد القومي العربي الذي بدا آخذًا في التجذر يسارًا، ألقت الولايات المتحدة بثقلها وراء الملكيات المطلقة في المنطقة مثل المملكة العربية السعودية وإيران الشاهنشاهية، وباتت السعودية بالذات أقرب ما تكون إلى المحمية الأمريكية، واتخذت الولايات المتحدة من الإسلام السياسي سلاحًا أيديولوجيًا قويًا في مسعاها لكبح النفوذ السوفيتي في المنطقة.

هكذا أيدت الولايات المتحدة قلبًا وقالبًا المسعى السعودي لنشر الأفكار الإسلامية على امتداد الشرق الأوسط وخارجه. وامتد هذا التأييد ليشمل مساندة وكالة الاستخبارات المركزية لجهود الإخوان المسلمين لتقويض النظام الناصري في مصر. ولم يؤدِ ما أفرزته الثورة الإيرانية (1979) من نظام إسلامي «ثوري» مناهض للولايات المتحدة إلى حد وصفها على لسان زعيمه الخميني بأنها «الشيطان الأكبر» إلى العدول عن هذه السياسة، وإن كان قد عقَّد من الصورة. فالعام نفسه الذي اندلعت فيه الثورة الإيرانية شهد في نهايته الغزو السوفيتي لأفغانستان، وراحت الولايات المتحدة تناصر 'المجاهدين الأفغان' بالسلاح والتدريب والمال على مدى عقد كامل واصفةً

إياهم، على لسان رئيسها رونالد ريجان، بأنهم «إخوتنا» و«المعادل الأخلاقي لآباء أمريكا المؤسسين». وآتي هذا الدعم أُكُله كما هو معروف، إذ انسحب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان في 1989 ثم ما لبث أن انهار بعدها بسنتين منهيًا الحرب الباردة، بينما أرست مقاومة المجاهدين للاحتلال السوفيتي الأسس التي قام عليها تنظيم القاعدة.

استمرت بالطبع العلاقة الخاصة الأمريكية السعودية بعد ذلك وإلى اليوم، غير أن تغيرًا ملحوظًا في النظرة السائدة في الولايات المتحددة للإسلام قد طرأ، على استحياء نسبيًا في العقد الأخير من القرن العشرين، ثم على نطاق أوسع بكثير بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إذ بات يُنظر إلى هذا الدين أساسًا من منظور «صدام الحضارات»، وهي فكرة ليست بالجديدة تمامًا طرحها في ثوبها المعاصر المؤرخ برنارد لويس في مقال شهير له بعنوان «جذور الغضب الإسلامي» ظهر في مجلة أطلنتيك في سبتمبر 1990، أي في الشهر التالي للغزو العراقي للكويت، ثم عمَّمها وروَّج لها المفكر الاستراتيجي العتيد لليمين الأمريكي صامويل هنتنجتون في مقال حمل اسم «صدام الحضارات؟» نُشر في مجلة فورين أفيرز بالغة التأثير في عام 1993 ثم حوَّلها إلى كتاب بنفس العنوان، مع حذف علامة الاستفهام، صدر بعدها بثلاث سنوات. وجوهر الفكرة هو أن نهاية الحرب الباردة أطلقت مرحلة جديدة في السياسة العالمية بشأن طبيعة الصراع السائد. وبذلك بات هنتنجتون، ومن قبله برنارد لويس، يبشران، حتى قبل الحادي عشر من سبتمبر، بظهور عدو جديد محتمل للغرب بعد زوال «الرعب الأحمر» يتمثل في «التهديد الأخضر»، عدو «ميزته» أن التلويح به أقدر على إثارة غرائز الخوف ورغبات السحق. فالحق أن أحدًا في الغرب، حتى من عتاة المتحمسين للحرب الباردة، لم يعد، على الأقل منذ أوائل الثمانينات، يأخذ «الرعب الأحمر» مأخذ الجد إذ بات واضحًا آنذاك أن 'الكتلة الشرقية' تعاني تدهورًا اقتصاديًا بالغًا، حتى أن الانتصار الغربي في الحرب الباردة الذي رمز إليه العام 1989 لم يُستقبل بنشوة كبيرة من جانب المتلهفين على سحق العدو سحقًا، وذلك لأن الانتصار المذكور لم يتحقق بفضل شجاعة المقاتلين ولا حتى براعة السياسيين بل لأن الاتحاد السوفيتي انهزم في معركة اقتصادية وتكنولوجية أعلن بنفسه الانسحاب منها. وتمثلت جاذبية أطروحة «صدام الحضارات» تحديدًا في تبشيرها بعدو يتيح الفرصة للقتال الحقيقي، حيث الدم والتضحية والحديد والنار. ومن اليسير أن نتبين في تلك الأطروحة ملامح الإسلاموفوبيا بالمعنى الذي أشار إليه تقرير 'رانيميد ترَست' السالف الذكر. لكن الاقتناع الواسع بمثل تلك الأطروحة على ما فيها من ضعف وسطحية، وهو كثير، كان عليه الانتظار لبضع سنوات. ومع وقوع هجمات ذلك اليوم المشؤوم من سبتمبر 2001، اكتسبت فكرة «صدام الحضارات» هالة من المصداقية وراحت تترتب عليها، كما سنرى ممارسات تمييزية ضد الإسلام والمسلمين على نحو يجعلنا نميل، ولو بصورة أولية للجواب عن السؤال «هل»، أي السؤال عن وجود الإسلاموفوبيا من عدمه، بالإيجاب، ويدفعنا إلى طرح أسئلة أخرى بشأن تلك الإسلاموفوبيا تساعد في تأكيد أو نفي وجودها وفي تبيُّن جذورها وتجلياتها وطبيعتها المتطورة.

(ب) عن الاستشراق منبعًا للإسلاموفوبيا

تعود بدايات الاستشراق على الصعيد الأكاديمي إلى نشأة النظام الجامعي الحديث في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية بالأساس في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. فقد ارتُئي آنذاك أن التخصصات الأربعة في مجال العلوم الاجتماعية حديثة النشأة، وهي التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع والعلوم السياسية، ملائمة لدراسة المجتمعات الحديثة التي أفرزت تلك العلوم فحسب، وليس بقية العالم. وأفرز هذا التصور تخصصين علميين جديدين، الأنثروبولوجيا والاستشراق. اختصت الأنثروبولوجيا بدراسة ما سمي بلغة ذلك العصر «الشعوب البدائية»، تلك التي وُصفت بأنها «بلا تاريخ»، تعيش في مجموعات صغيرة (من حيث عدد السكان والمساحة المأهولة) وفقًا لأعراف مشتركة ولغة مشتركة، لكنها تفتقر إلى نظم الكتابة وإلى الأديان التي تتخطى نطاق كل مجموعة صغيرة. وكانت الوسيلة الرئيسية لدراسة تلك الشعوب هي نوع خاص من «العمل الميداني» حيث يعيش الباحث (لم تكن هناك باحثات في حقل الأنثروبولوجيا في ذلك الوقت المبكر) لفترة ممتدة بين صفوف المجموعة التي يدرسها ممارسًا «الملاحظة القائمة على المشاركة». لكن العالم لم يكن مقتصرًا على الدول الحديثة التي أنشأت النظام الجامعي الحديث و«الشعوب البدائية»، بل كانت هناك مناطق واسعة خارج المنطقة الأوروبية وملحقاتها نشأت بها في الماضي حضارات كبرى عفا عليها الزمن، مثل الصين والهند وفارس والعالم العربي. وعلى خلاف الشعوب البدائية، امتلكت تلك المناطق لغة سائدة مستخدمة على نطاق واسع، ونظام لكتابة تلك اللغة، وديانة «عالمية» مهيمنة غير المسيحية. وبسبب هذه القواسم المشتركة، لم يكن بالإمكان النظر إلى سكان تلك المناطق كشعوب بدائية، لكن حضاراتهم المجيدة ذات يوم لم تعد كذلك اليوم، فكانوا من ثم خارج نطاق «الحداثة». كيف يمكن دراستهم إذن؟ هكذا تساءل الباحثون الأوروبيون، وبدت لهم الإجابة بديهية: حيث إن أصحاب الحضارات الغابرة تلك مختلفون ثقافيًا للغاية عن الأوروبيين، وحيث إنهم يملكون نصوصًا مكتوبة بلغات مختلفة عن لغات الباحثين الأوروبيين، وحيث إن دياناتهم مختلفة عن المسيحية، فقد بدا أن أولئك الراغبين في دراستهم عليهم التحلي بالصبر في تزويد أنفسهم بالمهارات الخاصة، وأولها المهارات اللغوية، اللازمة لفهم تلك النصوص. وانطلاقًا من التمييز الكلاسيكي بين الشرق والغرب في التقليد الثقافي الأوروبي، فقط أُطلق اسم «المستشرقين» على أولئك الذين اكتسبوا المهارات المطلوبة، واسم

«الاستشراق» على التخصص أو الحقل العلمي الذي أنشأوه (للاطلاع على شرح وافٍ لنشأة الأنثروبولوجيا والاستشراق ضمن ظهور النظام الجامعي الحديث، انظر الفصل الأول من Wallerstein 2004).

وتمثلت جاذبية أطروحة «صدام الحضارات» تحديدًا في تبشيرها بعدو يتيح الفرصة للقتال الحقيقي، حيث الدم والتضحية والحديد والنار.ولا تزال تُشكَّل على نحو منتظم، خطابات وممارسات لا المستعمِرين والمستعمَرين بالأمس فقط، لكن أيضًا المستعمِرين السابقين والمستعمَرين السابقين في شمال العالم وجنوبه اليوم» (Callinicos 2008: 148)، وهذا أمر وثيق الصلة بردود الفعل المَرَضية على ذبح صامويل باتي التي يبحث هذا المقال في دلالاتها. وبالطبع أثار كتاب إدوارد سعيد جدلًا لم ينقطع حتى اليوم، ولاقى حفاوة كبيرة ونقدًا كبيرًا في نفس الوقت، وهو نقد كثير منه مشروع وأقر بمشروعيته لاحقًا سعيد نفسه، لكن لا مجال للخوض في هذا كله في مقالنا هذا. لكن ما دمنا بصدد طرح أسئلة عن الإسلاموفوبيا، فمن المفيد إبداء ملاحظتين مهمتين قبل العودة إلى سياق حديثنا عن القاسم المشترك بين موقف الولايات المتحدة من الإسلام، والإسلام السياسي، أثناء الحرب الباردة وبعدها.

أولًا، لم يكن الاستشراق، كما رأينا، مقتصرًا على التعامل الغربي مع الإسلام والعالم الإسلامي، بل شمل الهند والصين أيضًا. وبقدر تناوله للإسلام، ليس من الإنصاف ألا نعترف بما للاستشراق والمستشرقين من أفضال علمية عديدة في الكشف عن كنوز التراث الإسلامي، كما أنه من الظلم اختزال الاستشراق في خانة العداء للإسلام. فبعض المستشرقين كان لديهم افتتان حقيقي واحترام كبير للشرق عمومًا والإسلام خصوصًا. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر توماس كارلايل، الكاتب البريطاني البارز في أواسط القرن التاسع عشر، والذي ألقى محاضرة شهيرة في 1840 عن نبي الإسلام محمد تناوله فيها بكثير من الثناء والتمجيد، واصفًا إياه بأنه نبي مشروع بل وبطل وصاحب رؤية عظيمة ألهمت الملايين على نحو يضعه في موضع مجيد ضمن عظماء الإنسانية قبله وبعده. كما أن بعض المستشرقين، خصوصًا في القرن العشرين، رفضوا الجوهرانية التي أفاض سعيد في تحليلها في كتابه. بل إن بعضهم، مثل المستشرق الماركسي الفرنسي مكسيم رودنسون، كان من بين أهم المصادر التي استقى منها إدوارد سعيد نقده للاستشراق بالمعنى الجوهراني اللاتاريخي والاستعلائي الاستعماري الذي ركَّز عليه كتابه. لكن بالطبع يظل صحيحًا أن الاستشراق مال في مجمله إلى تصوُّر المسلمين باعتبارهم «آخرين» لهم جوهر خاص، وأن الكثير من المستشرقين، وربما غالبيتهم، كانت نظرتهم للإسلام والمسلمين بالغة السلبية، ويسري ذلك بالتأكيد على المفكر الفرنسي الشهير إرنست رينان، الذي زاع صيته في العالم العربي بسبب محاوراته الشهيرة مع الشيخ محمد عبده.

> **جاذبية أطروحة «صدام الحضارات» تمثلت تحديدًا في تبشيرها بعدو يتيح الفرصة للقتال الحقيقي، حيث الدم والتضحية والحديد والنار.**

ثانيًا، هل النظرة السلبية للإسلام والمسلمين التي غلبت على «الاستشراق»، خصوصًا بالمعنى الذي طرحه إدوارد سعيد، متجذرة في «العداء المتأصل» بين «دار الإسلام» و«العالم المسيحي» منذ نشأة الإسلام؟ كثير من «الغيورين على الإسلام» يعتقدون ذلك، لكن الحد الأدنى من النظرة التاريخية كفيل بتفنيد اعتقادهم هذا. صحيح أنه على مدى ألف عام منذ الغزوات/الفتوحات العربية الأولى في أواسط القرن السابع الميلادي حتى حصار فيينا الفاشل من قِبَل العثمانيين في أواخر القرن السابع عشر، غلب الطابع السلبي على التفاعلات بين هذين العالمين؛ وصحيح أن النظرة الأوروبية المسيحية للإسلام طوال تلك القرون غلبت عليها تصورات لاهوتية سلبية عن الإسلام والمسلمين، تراوحت بين نظر كتُّاب مسيحيين إلى المسلمين كعذاب أرسله الله

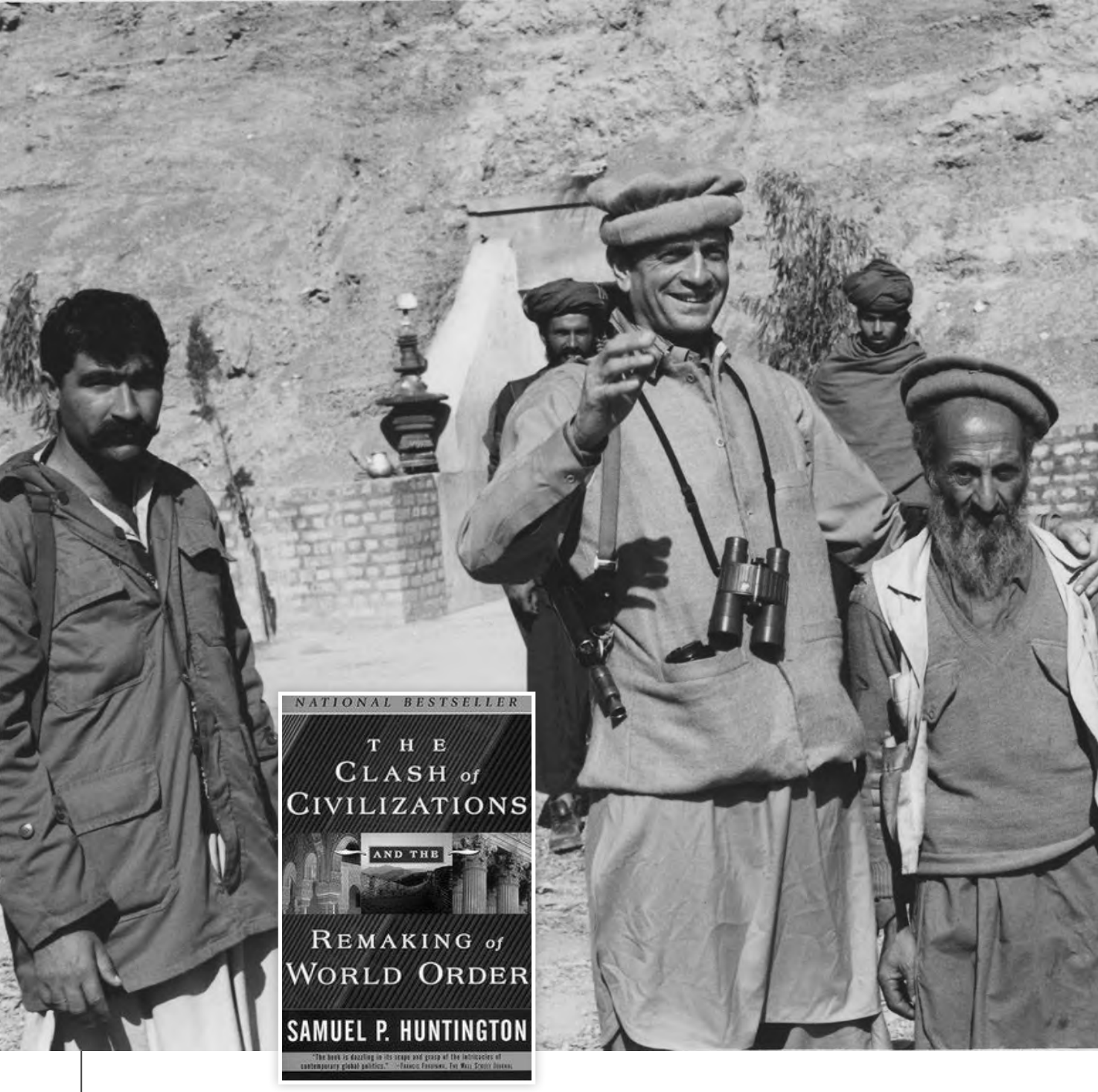

إلى المسيحيين عقابًا لهم على خطاياهم، واعتبار المسلمين وثنيين على شاكلة عبدة الأصنام الرومان القدامى الذين ناضل ضدهم المسيحيون الأوائل، وأخيرًا النظر إلى الإسلام، وهي النظرة التي سادت طوال القرون الوسطى، كنوع من الهرطقة المسيحية؛ غير أن أوروبا الحديثة تجاوزت مثل تلك الهواجس اللاهوتية على الأقل منذ أمد ليس بالقصير! واعتبار النظرة الاستشراقية الاستعلائية تجاه الإسلام وما اقترن بها أو ترتب عليها خلال العقود الأخيرة من إسلاموفوبيا مجرد امتداد للعداء اللاهوتي للإسلام من جانب مسيحية العصور الوسطى لا يقل سذاجة عن اعتبار بعض الإخوان المسلمين، وهم بالتأكيد من «الغيورين على الإسلام»، أن محنتهم في مصر اليوم «تبدأ بقصة النبي يوسف في سجون فرعون»! وهو لا يقل سذاجة كذلك عن اعتبار بعض أنصار النظام الراهن، وكثير منهم أيضًا من «الغيورين على الإسلام» أن «قمع النظام للإخوان المسلمين يشبه طرد أحمس للهكسوس» (فهمي 2019). والواقع أن عصر التنوير الأوروبي أفرز تصورات أكثر إيجابية وتوازنًا وعقلانية بكثير عن الإسلام، وهذا موضوع جدير بالدراسة. كما أن الرؤى القروسطية المسيحية للإسلام، مهما كانت عدائية، لم تكن تتسم بالنظرة الاستعلائية الحديثة التي هي بنت الاستعمار بامتياز.

لكن التأكيد على الاستمرارية في موقف الولايات المتحدة حيال الإسلام طوال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لا ينبغي أن يكون على حساب رؤية الانقطاع. وإذا كان انتهاء الحرب الباردة ومسعى الولايات المتحدة إلى تدشين نظام عالمي جديد تدين لها فيه السيطرة على مقاليد العالم أفرز ظهور مفهوم صدام الحضارات بصبغته الاستشراقية العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، فإن عواقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت نقطة تحول كيفية في التصاعد الهائل للإسلاموفوبيا، لا في الولايات المتحدة فحسب، بل لا في الغرب وحده، لكن على الصعيد العالمي.

(ج) الحادي عشر من سبتمبر
نقطة تحوُّل

لا نقول جديدًا حين نشير إلى أن ما بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ليس كمثل ما قبلها. فقد جرى تعميم خطاب «الحرب على الإرهاب» على نحو لم يكن من المتصور فعله قبل ذلك. لكن عواقب هذه الهجمات، بحسب الطريقة «غير العفوية» التي جرى فهمها بها وانتزاعها من أي سياق معقول يحاول فهمها لا تبريرها، كانت أعمق بكثير من مجرد تعميم الخطاب المذكور. فالحاصل أن تغييرًا حادًا طرأ على الذاكرة الجماعية التي صاغت الحياة السياسية والوجدان العام في الغرب طوال عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية. فحتى انتهاء القرن العشرين، ظل إرث هذه الحرب الأخيرة ماثلًا في الأذهان والقلوب بوصفها انتصارًا تاريخيًا على ويلات الفاشية والنازية. وبغض النظر عن مدى الدقة التاريخية لهذا الفهم للحرب العالمية الثانية، فإنه ظل يُشكِّل متراسًا يحول بقوة دون إعادة بزوغ أقصى اليمين وخروجه من الهامش الضيق إلى قلب الحياة السياسية.

وبشيء من التبسيط يمكن فهم التغيير الحادث في الذاكرة التاريخية الغربية بإحدى طريقتين، وثانيهما في تقديري أدق. الأولى هي ببساطة حلول ذكرى الحادي عشر من سبتمبر محل ذكرى الحرب العالمية الثانية كحدث عملاق يصيغ الذاكرة ويُشكِّل الوجدان العام. أما الطريقة الثانية، فهي اندماج الذاكرتين من خلال عملية انتزاع عميق وعنيف لهجمات 11 سبتمبر 2001 من سياقها، على نحو يقترن معه ضحايا تلك الهجمات بضحايا المحرقة النازية، ومن ثم تنشأ في الوجدان مقارنة بين النازية وعدو الغرب الجديد الإسلامي، أو حتى المسلم، هذه المرة. وسوف نستطرد في القسم أدناه بشأن أثر ذلك على تيسير صعود أقصى اليمين في أوروبا بالذات، لكن في الغرب عمومًا وعلى نطاق أوسع من الغرب.

كانت فرنسا هي الدولة الرأسمالية المتقدمة التي ذهبت إلى أبعد مدى في مقاومة منطق «الحرب على الإرهاب» الذي دفعت الولايات المتحدة بقوة باتجاهه بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن هذه الجملة الأخيرة ستبدو مدهشة لأغلب القراء على خلفية الأحداث الجارية، لكن هذا هو ما جرى بالفعل، وهو الوجه الأول للاستثناء الفرنسي فيما يتعلق بالإسلاموفوبيا التالية لضرب برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاجون والسابقة على اندلاع الأزمة الاقتصادية العالمية. وتجلت المقاومة المذكورة في رفض الغزو الأمريكي للعراق. فقد عارض الرئيس جاك شيراك الحرب بقوة ورفض إرسال قوات فرنسية إلى العراق. ولم يكن هذا موقفًا منفردًا لشيراك، بل أيده فيه كلٌ من يمين الوسط ويسار الوسط في فرنسا. بل بدا لعدة سنوات بعدها أن الرأي العام الفرنسي يؤمن بقوة بضرورة أن تنأى فرنسا بنفسها عن مغامرات الولايات المتحدة العسكرية في الشرق الأوسط. وأضفى هذا الموقف المناوئ للإمبريالية الأمريكية مزيدًا من المشروعية على الوضع السياسي في فرنسا، وهو ما تجلى في انخفاض الأصوات التي حصدتها 'الجبهة القومية' اليمينية المتطرفة في الانتخابات الرئاسية لعام 2007 إلى 10 %فقط مقابل 17 %في الانتخابات السابقة عليها. ومثل هذا أول تراجع تتعرض له 'الجبهة' منذ أوائل التسعينات، حيث راحت الحياة السياسية «المعتدلة» ترسخ نفسها بحصول يمين الوسط ويسار الوسط معًا على نحو ثلثي الأصوات. وانتشرت في النقاش السياسي الفرنسي رؤى هادئة وحكيمة تؤكد ضرورة وضع هجمات الحادي عشر من سبتمبر في سياقها التاريخي وفهم العوامل السياسية التي جعلتها ممكنة (دون أن تبررها بالطبع)، بعيدًا عن الهوس السائد في الغرب عمومًا والذي جعل من الإرهاب غولًا وجوديًا لا سبيل لفهمه أو تفسيره سوى بكونه متأصلًا في العنف الكامن في الإسلام، والذي تناولنا جانبًا منه أعلاه.

فرنسا هي الدولة الرأسمالية المتقدمة التي ذهبت إلى أبعد مدى في مقاومة منطق «الحرب على الإرهاب» الذي دفعت الولايات المتحدة بقوة باتجاهه بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر

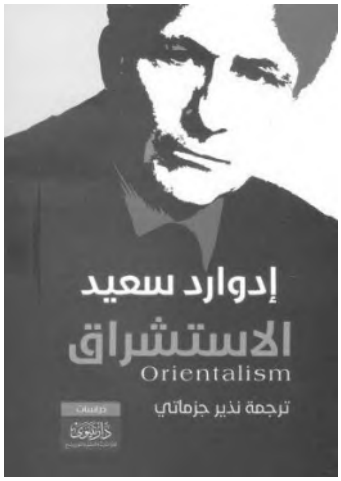

لكن هذا «الاستثناء الفرنسي» المحمود قابله في الفترة ذاتها استثناء آخر مضاد له في الاتجاه ومعادل له في القوة على أرضية محفز آخر من محفزات الإسلاموفوبيا، وهو الحجاب الإسلامي. وكانت توترات غير هينة قد أثيرت بشأن الحجاب (غطاء الرأس) في فرنسا في مناسبتين سابقتين على الألفية الجديدة. حدث ذلك لأول مرة في أواخر الثمانينات حينما نشأ جدال بشأن ما إذا كان ينبغي السماح للفتيات المسلمات بارتداء الحجاب في المدارس العامة، وذلك على خلفية قرار ناظر إحدى المدارس الإعدادية بفصل ثلاث فتيات مسلمات رفضن نزع الحجاب. وقد احتج الناظر وقتها بأن الحجاب مظهر ديني ينتهك العلمانية، التي رأى أنها تستوجب إبقاء الدين خارج نطاق الفضاء العام، بما في ذلك المدارس العامة. وقد أبطل القضاء قرار الفصل في النهاية في تلك المناسبة. وأثيرت المسألة مرة أخرى في 1994 على مستوى مختلف، حينما أضرب عدد من المعلمين في إحدى المدارس اعتراضًا على رفض بعض الفتيات خلع الحجاب أثناء حصة الألعاب. ومرة أخرى، انتهت المشكلة وقتها «دون حسم». أما في عام 2003، فقد تجدد التوتر على نحو حمل مزيجًا مما جرى في المرتين السابقتين، حين حُرمت أختان من حصة الألعاب بسبب إصرارهن على الاحتفاظ بالحجاب خلالها... وامتد حبل الدردشة والتعليقات! غير أن الأمور لم تقف هذه المرة عند حد الجعجعة بلا طحن، إذ تصاعد الموقف سريعًا حينما أنشأ الرئيس شيراك في يوليو 2003 لجنة لبحث إمكانية سن قانون للتعامل مع «مشكلة» الحجاب في المدارس العامة. وأصدرت اللجنة تقريرها في

ديسمبر، وأوصت فيه بحظر الرموز الدينية الجلية. وتزامن صدور التقرير مع استطلاع رأي كشف عن تنامي تأييد الرأي العام لإصدار قانون، حيث أعرب 72 %ممن استُطلعت آراؤهم عن تأييد حظر الرموز المرئية للانتماء الديني في المدارس العامة. وبالفعل سن البرلمان الفرنسي القانون في مارس 2004، ونص على حظر «ارتداء رموز أو ملابس تكشف على نحو ظاهر الانتماء الديني». ولم يقتصر حظر القانون للرموز الجلية على الحجاب، بل شمل أيضًا الصلبان الكبيرة والطاقية اليهودية، وذلك في محاولة، ناجحة، لقطع الطريق على اتهامه بالتمييز من خلال الاستهداف الحصري للمسلمين، أو بالأحرى في هذه الحالة المسلمات. غير أن السجالات التي سبقت صدور القانون ومداولات اللجنة الحكومية التي أوصت به، بل والمناسبة التي أطلقت الجدال أصلًا، لم تدع مجالًا للشك في أن الشاغل الحقيقي كان هو ارتداء بعض الفتيات المسلمات للحجاب (Green 2019: 307-309).

لكن لننظر إلى جوهر المسألة. لقد استند تبرير القانون إلى مزيج من حجتين، نسوية وعلمانية. ذهبت الحجة النسوية إلى كون الحجاب يرمز إلى قهر المرأة وخضوعها، ويتعارض بالتالي مع الالتزام الفرنسي بالمساواة بين الجنسين. أما الحجة العلمانية، فهي كما سبق التنويه ضرورة «إبقاء الدين خارج نطاق الفضاء العام». غير أن النظرة الفاحصة تكشف عن أننا هنا إزاء تشويه للنسوية والعلمانية معًا. فالحجة النسوية تتناسى أن الحجاب مسألة مركبة وأن دوافع ارتدائه متعددة ولا يمكن اختزالها في إجبار الرجل للمرأة على لبسه أو حتى القهر الذاتي للمرأة نتيجة لتبنيها لمنظور ذكوري كاره لجنسها. بل إن المناسبة التي أطلقت جدال الحجاب في 2003 كانت تؤكد ذلك. فالأختان بطلتا واقعة رفض خلع الحجاب في حصة الألعاب على عكس إرادة الأسرة. وقد أكد والد الفتاتين، الذي وصف نفسه بأنه «ملحد يهودي»، أنه يعارض شخصيًا اختيار ابنتيه لكنه يؤيد حقهما في الاختيار. وجدير بالذكر هنا أن حظر الحجاب باسم تحرير المرأة هو الوجه الآخر لفرض الحجاب باسم العفة، إذ تصبح المرأة في الحالتين كرة يركلها هذا في اتجاه باسم المساواة ويركلها ذاك في اتجاه مضاد باسم العفة بينما تضيع حريتها في الحالتين، وهو ما يعبر عنه جلبير الأشقر في تعليقه التالي: «والحال أنّ حظر الحجاب يضفي المزيد من الشرعيّة على فرضه في نظر مَن يعتبرونه ركنًا من أركان الإيمان. فلا تُمْكن مواجهةُ الإكراه الدينيّ بصورةٍ مشروعةٍ وفعّالةٍ سوى بالتسلّح بمبدأ حريّة الاعتقاد والممارسة الدينيّة، الفرديّة حصرًا، سواء تجلّت الممارسةُ باللباس أو بغيره، ومع احترام الحكومات العلمانيّة لهذا المبدأ» (الأشقر 2011). ويقودنا هذا الذكر للعلمانية إلى الحجة الثانية التي قام ويقوم عليها حظر الحجاب.

العلمانية في فرنسا مبدأ دستوري ينص على عدم قيام الدولة بتعليم أي دين وعدم سماحها لأي دين بالتدخل في تنظيم التعليم العام. ربما بدا هذا الربط الوثيق بين العلمانية والتعليم بالذات تعسفيًا أو ضيق الأفق، لكن معرفة الملابسات التاريخية التي أفرزت المبدأ الدستوري المذكور تجلي المسألة. فعلى العكس مما هو شائع، ليست العلمانية متأصلة في جوهر ما للجمهورية في فرنسا. فقد فرضتها الجمهورية الثالثة تحديدًا من أجل وضع نهاية للسيطرة على التعليم العام من قِبَل الكنيسة الكاثوليكية التي أسس لها قانون صادر عن... الجمهورية الثانية! فالمعنى القانوني، والمعقول جدًا من وجهة نظر إنسانية، للعلمانية في فرنسا هو حياد الدولة في الشأن الديني، وهي بهذا المعنى لازمة من لوازم الديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان. غير أن «أيديولوجيي العلمانية الجدد»، على حد تعبير المفكر اليساري الفرنسي جاك رونسيار، غيروا بالكلية معنى المفهوم، إذ حولوه من التزام واقع على الدولة بالحياد الديني إلى قاعدة للسلوك يتعين على الدولة فرضها على الطلاب والطالبات، وعلى أمهاتهم، ثم على النساء جميعًا في المجتمع كله في نهاية المطاف (Ranciére 2020). ينبغي

باختصار إذن الدفاع عن العلمانية الفرنسية بمعنى فصل الدين عن الدولة، بشرط عدم الخلط بين الفصل والحظر، بين احترام الدولة للحرية الدينية وتحولها إلى شرطي يجبر الدين على التخفي ويلزمه بأن يكون «غير مرئي».

على أي حال، جاءت الأزمة الاقتصادية العالمية لكي تتزامن كما سنرى مع تخلي فرنسا عن مقاومتها لمنطق الحرب على الإرهاب، بينما راح الوجه الآخر، الكريه، للاستثناء الفرنسي بشأن الإسلاموفوبيا، يزداد تصلبًا!

(د) التلاقي اليميني وترسيخ الإسلاموفوبيا في سياق الأزمة الاقتصادية العالمية

كانت الإسلاموفوبيا بما تنطوي عليه من تنميط للإسلام يجعله قرينًا للإرهاب غطاءً أيديولوجيًّا لـ»الحرب على الإرهاب». لكن من خلال إعادة تشكيل ذاكرة الحرب العالمية الثانية في الغرب، مهدت هجمات الحادي عشر من سبتمبر أيضًا لإعادة تشكيل الخريطة السياسية لليمين الغربي والعالمي، وهو ما لم يتكرس فعلًا سوى مع الأزمة الاقتصادية العالمية.

العلمانية ليست متأصلة في جوهر ما للجمهورية في فرنسا. فقد فرضتها الجمهورية الثالثة تحديدًا من أجل وضع نهاية للسيطرة على التعليم العام من قِبَل الكنيسة الكاثوليكية

دعونا نرصد التحولات في الخريطة السياسية خلال السنوات الأخيرة، مع تلمُّس موضع الإسلاموفوبيا في تلك التحولات، قبل أن نحلِّل دلالتها. بدا جليًا مؤخرًا أن اليمين المحافظ (سنسميه أحيانًا 'يمين التيار الرئيسي' أو 'يمين الوسط'، وسنشرح باختصار أسباب هذه التسمية الأخيرة أدناه) في الولايات المتحدة وأوروبا أخذ ينفتح على تخومه الخارجية في أقصى اليمين، سواء على صعيد الأفكار أو على صعيد إقامة التحالفات السياسية، فيما أسماه المؤرخ البريطاني الماركسي ديفيد رونتون 'التلاقي اليميني' (convergence on the right). وتحديدًا خلال السنة الممتدة بين يونيو 2016 ومايو 2017 حقق هذا التلاقي اليميني انتصارات سياسية مهمة تمثلت في استفتاء البركسيت في المملكة المتحدة، وانتخاب دونالد ترامب رئيسًا للولايات المتحدة، وبلوغ مارين لوبين المرحلة الثانية للانتخابات الرئاسية الفرنسية (Renton 2019). وسوف نطيل الوقوف عند البركسيت بالذات لدلالته بالنسبة لموضوعنا، ويعتمد التحليل أدناه اعتمادًا كبيرًا على قراءة رونتون للأحداث.

بدأت حملة إخراج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي في سنوات مارجريت تاتشر الأخيرة في الحكم واكتسبت زخمًا إضافيًا مع خروجها من السلطة، وذلك في صفوف أشد أنصارها حماسةً سواء داخل حزب المحافظين أو خارجه. وعلى عكس ما يُشاع، لم يكن لدى اليمين المحافظ في المملكة المتحدة تاريخيًا موقفًا معاديًا للمشروع الأوروبي، بل كان المحافظون في زمن

رئاسة هارولد ماكميلان للوزارة أول من سعى إلى الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة (التي ستصبح لاحقًا الاتحاد الأوروبي) في 1963، ثم كان المحافظون في الحكم أيضًا حينما انضمت المملكة المتحدة فعلًا في 1973. وصدر القانون الذي شرَّع خضوع المملكة المتحدة للقانون الأوروبي في وزارة تيد هيث المحافظة سنة 1972 بتأييد أهم أقطاب يمين الحزب من أعضاء البرلمان الذين سيُطلق عليهم لاحقًا اسم التاتشريين، بمن فيهم مارجريت تاتشر نفسها (Renton 2019: 64-65). غير أن تاتشر في أواخر سنواتها العشر في السلطة باتت معادية بشكل متزايد للاتحاد الأوروبي، الذي أصبحت ترى في قادته المعادل لـ'المحافظين' المعتدلين، ممن لا يمتلكون في رأيها الإرادة الكافية لخوض معركة انتصار الرأسمال الحاسم على العمال.

رأينا إذن أن مشروع خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي كان منذ أواخر الثمانينات إلى أوائل الألفية الجديدة مشروعًا يمينيًا محافظًا من النوع المألوف، لكنه اكتسب بعد ذلك طابعًا عنصريًا شديد الرجعية وبات يندرج في أقصى اليمين على أرضية العداء للمهاجرين والمسلمين. ومع اختلاف الملابسات بالطبع، يمكن أن يقال شيءٌ مشابه عن دونالد ترامب في الولايات المتحدة. لن ندخل هنا في التفاصيل، لكن من المهم الإشارة إلى أن ترامب حين دخل حلبة المنافسة على الرئاسة لأول مرة في شتاء 1999-2000، فعل ذلك على أرضية وسطية مناهضة للعنصرية! وقتها كان ترامب يتنافس على الترشح عن

‘حزب الإصلاح’ مع ‘الجمهوري’ السابق بات بوكانان، وقامت حملة ترامب على فضح توجهات بوكانان الرجعية المناهضة بوجه خاص لليهود والنساء والمثليين جنسيًا. أما ترامب «كما نعرفه»، فظهر مع محاولته الثانية للوصول إلى البيت الأبيض في أواخر مدة رئاسة أوباما الأولى. وقتها كان المدخل الرئيسي الذي سعى ترامب لجذب الأضواء عبره هو زعمه أن أوباما كيني الجنسية مسلم الديانة! وكان هذا هو الأساس لشعبية ترامب في صفوف أقصى اليمين خارج وداخل صفوف ‘الجمهوريين’ على السواء، والتي دفعت قيادة الحزب لتبنيه مرشحًا له، وبقية القصة المؤسفة معروفة وهي لم تنته بخسارة ترامب للانتخابات مؤخرًا.

وتوفر فرنسا نموذجًا آخر مختلفًا للتلاقي اليميني. فقد أعطى التصويت لصالح البركسيت ثم وصول ترامب إلى البيت الأبيض دفعة قوية لمارين لوبين، زعيمة ‘الجبهة القومية’ (‘التجمع القومي’ الآن) العنصرية وذات الجذور الفاشية. والحال أن ‘الجبهة القومية’ حققت صعودًا شبه متواصل على مر العقود الثلاثة الأخيرة وباتت قوة كبيرة على المسرح السياسي، بينما تمثَّلت استجابة يمين الوسط ويسار الوسط على السواء في الحرص على إبقاء ‘الجبهة’ خارج الرئاسة والبرلمان من خلال استعارة توجهاتها السياسية مع مطالبة الناخبين بعدم التصويت لها! كان هذا شكلًا بالغ البؤس من «حراسة البوابة» لم يؤدِ سوى إلى منح المصداقية لخطاب أقصى اليمين المناهض للمسلمين والمهاجرين والمطالب برئاسة سلطوية. وقد تجلى إفلاس «حراسة البوابة» على الطريقة الفرنسية هذه مع حصول مارين لوبين على المركز الثاني في الجولة الأولى ووصولها للجولة الثانية من انتخابات الرئاسة. قارن رد الفعل بما جرى قبل 15 عامًا حينما كان والدها في نفس الموقع. وقتها انتفضت فرنسا كلها لقطع الطريق على أقصى اليمين. أما هذه المرة، فإن الإحباط كان سيد الموقف. وراح أحد مرشحي يمين الوسط الخاسرين يعلن تأييده للوبين الابنة في الجولة الثانية في شكل من أشكال التلاقي اليميني.

والحال أن الناخب الفرنسي كان في الجولة الثانية أمام مرشحين يرفعان شعار «لا يمين ولا يسار»، لكن بمحتوى مختلف. فبينما كانت لوبين ترفض اليمين واليسار من موقع أقصى اليمين العنصري، بدا ماكرون متمرسًا فيما يسمى تهكمًا «الوسط المتطرف». وفاز ماكرون بمقعد الرئاسة لكنه بدا أضعف رئيس في تاريخ الجمهورية الخامسة كلها من حيث عجزه عن الإقناع والهيمنة. غير أن هذا الرئيس الضعيف استغل إفلاس المؤسسة السياسية في فرنسا حيث انهيار الحزب الاشتراكي تحت وطأة انزلاقه الدائم لليمين بينما عانى يمين الوسط من التفتت والانقسامات وفضائح الفساد. واستطاع ماكرون ببراعة أن يستغل هذا الفراغ في توطيد رئاسة سلطوية مهووسة بتقوية الأجهزة الأمنية وإضعاف البرلمان في استعارة لجانب ليس بالصغير من برنامج لوبين. ومع تراجع شعبيته الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا المقال، راح يستعير جانبًا آخر من سياسة من بات يصعب أن نسميها غريمته، وهو تسخير الإسلاموفوبيا

في اكتساب شعبية رخيصة وإيجاد كبش فداء للأزمات المزمنة للرأسمالية الفرنسية.

ونظرًا إلى ثقل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، القوة العظمى الحالية والقوتان العظميان الرئيسيتان اللتان ورثت منهما هذا الموقع، لم يكن من المفاجئ أن يكون للتلاقي اليميني بعد 2016-2017 إشعاع عالمي ملحوظ. ولا يتسع المجال هنا سوى للإشارة بسرعة إلى حدوث أشكال مختلفة لذلك التلاقي في قمة السلطة في عدد متزايد من البلدان، لا سيما في أوروبا الشرقية والجنوبية، لكن أيضًا في الهند وروسيا، في ظل جرعة شبه ثابتة من الإسلاموفوبيا تغذي ذلك التحالف غير المقدس بين يمين الوسط وأقصى اليمين. وثمة حالة بارزة على الأقل لا تلعب فيها الإسلاموفوبيا، بحكم السياق البعيد، دورًا يُذكر وهي حالة رئاسة بولسونارو في البرازيل، كما توجد حالة بارزة على الأقل يستند فيها هذا التلاقي اليميني الجديد إلى الإسلام السياسي لا إلى الإسلاموفوبيا، وهي حالة تركيا أردوغان في السنوات الأخيرة حيث السلطوية المتزايدة على خلفية تحالف حزب العدالة والتنمية الحاكم مع قوى من أقصى اليمين أبرزها حزب 'العمل القومي'.

لكن غالبية حالات التلاقي اليميني تستند أيديولوجيًا -لحدٍ يزيد أو يقل- إلى الإسلاموفوبيا. وليس معنى ذلك أن الإسلاموفوبيا تقتصر على أطراف التلاقي اليميني. فالواقع أنها أوسع انتشارًا من ذلك بكثير، لكنها تتجلى في أكثر صورها اتساقًا وحدة لدى أقصى اليمين الغربي بالذات. ولا تقتصر الصلة الوثيقة بين التلاقي اليميني والإسلاموفوبيا على كون هذه الأخيرة جزءًا من الأساس الأيديولوجي للتلاقي المذكور، بل لكونها أصلًا فتحت الباب للقبول بأقصى اليمين في الحياة السياسية واستعادته «الاحترام» من خلال ما أشرنا إليه أعلاه بشأن إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية السياسية للغرب تحت تأثير هجمات الحادي عشر من سبتمبر. فقد فتح ذلك الباب لنزع الحظر، الأخلاقي في المقام الأول، عن أقصى اليمين، وتزامن ذلك مع «تلطيف» هذا الأخير لعنصريته بتغليفها برداء أكثر قبولًا، بجعلها تقوم على «الاختلاف الثقافي» عوضًا عن لون البشرة أو العرق (لاحظ صلة ذلك بخطاب «صدام الحضارات»).

ومن نافل القول إنه إذا كانت الإسلاموفوبيا شكّلت أساسًا لأغلب حالات التلاقي اليميني خلال السنوات الأخيرة، فإن هذا التلاقي نفسه أسهم في مفاقمة الإسلاموفوبيا، ومفاقمة كل شكل آخر من أشكال العنصرية معها. وقد تمثّل مظهر مهم من مظاهر هذا التفاقم في ترسيخ الصورة النمطية عن «الإرهاب الإسلامي» إلى حد بلغ حد «أرهبة الإسلام» و«أسلمة الإرهاب» على نحو بات معه الإرهاب غير الإسلامي، رغم أنه أمر واقع، أقرب إلى الاستحالة المنطقية! وقد شهدنا أحد الأمثلة الصارخة على ذلك حتى قبل تشكُّل حالات التلاقي اليميني المذكورة عند وقوع هجومَيْ النرويج المأساويين في يوليو 2011، أي في عز 'الربيع العربي'. وسنختتم هذا القسم بالتأمل في ذلك الحدث نظرًا لدلالته ورمزيته القويتين.

في مساء يوم جمعة من ذلك الشهر الصيفي، شن أنديرز بريفيك، وهو يميني متطرف من النرويج، هجومًا إرهابيًا مزدوجًا أسفر عن مقتل 77 شخصًا في ذلك البلد الهادئ عادة. الهجوم الأول كان بسيارة مفخخة انفجرت في الحي الحكومي من العاصمة أوسلو، وأدى إلى مقتل ثمانية أشخاص. أما الهجوم الثاني، فشمل إطلاق مسعور للنيران على جزيرة تقع خارج أوسلو كان تستضيف معسكرًا صيفيًا من تنظيم 'رابطة الشبيبة العمالية'، وهي منظمة شبابية تابعة لحزب العمال النرويجي. وكان بريفيك قد استقل قاربًا إلى الجزيرة بعد تفجير السيارة المفخخة، وقد ارتدى زي الشرطة، وقام بجمع رواد المعسكر حوله بدعوى تأمينهم، ثم أطلق النيران مرديًا 69 قتيلًا قبل أن يُسلِّم نفسه للشرطة.

وفي غياب أي معلومات عن هوية الجاني، راحت كبريات

الصحف العالمية، ومنها نيويورك تايمز وواشنطن بوست ووول ستريت جورنال، تشير بأصبع الاتهام إلى المسلمين و«الإرهاب الإسلامي». والعجيب أنه مع اتضاح هوية الجاني، وهو مسيحي ويميني متطرف، توقف تمامًا استخدام وصف «الهجوم الإرهابي» في تأكيد لكون الإرهاب لا يمكن أن يصدر عن رجل أبيض. وجدير بالذكر أن الإسلاموفوبيا كانت هي الدافع الرئيسي وراء جريمة بريفيك، وإن كان لم يستهدف بجريمته مسلمين، بل سياسيين يساريين «خونة» من منظوره لأن أدمغتهم ملوثة بأشياء من قبيل «الماركسية الثقافية» والتعددية الثقافية. وقد تبيَّن فيما بعد أن بريفيك كان قد كتب 'مانيفستو' من ألف وخمسمائة صفحة يعلن فيه كراهيته «للماركسية والتعددية الثقافية والمسلمين»، في تعبير بليغ عن مشروع التلاقي اليميني الجاثم اليوم على صدر العالم كوباء لا يقل خطورة، إن لم يزد، عن جائحة كوفيد19-.

بدلاً من خاتمة أو فتح نقاش بشأن أزمة الإسلام

حاول هذا المقال أن يجيب عن عدة أسئلة بشأن الإسلاموفوبيا: هل هي قائمة؟ وما طبيعتها وجذورها وتجلياتها؟ وأيًا كان نصيبها من الصحة، فلا شك أن هذه الإجابات ناقصة، وسيكون كاتب هذه السطور في غاية الرضا لو أنها أثارت مزيدًا من الأسئلة وحفزت نقاشًا ثريًا مطلوبًا بإلحاح.

وقد أكد المقال وجود الإسلاموفوبيا في الغرب وخارجه كشكل من أشكال العنصرية ورأى أنها اليوم في صميم المشروع السياسي لأقصى اليمين وأنها تُشكِّل جانبًا من الأساس الأيديولوجي لعدة تحالفات بين يمين الوسط وأقصى اليمين وصلت إلى قمة السلطة في عدد من الدول الهامة. وهذا كله إن صح يطرح بالتأكيد أسئلة إضافية عن مدى التغذية المتبادلة بين الإسلاموفوبيا وحالات التلاقي اليميني، خصوصًا في الغرب الأوروبي والأمريكي، وعن سبل مقاومة هذا التلاقي اليميني نفسه، والدور المطلوب من المسلمين أنفسهم في هذا الصدد، وعن طبيعة أقصى اليمين نفسه اليوم، وأسئلة أخرى عديدة معقدة.

لكن ربما كانت أسئلة أعقد تثور بشأن الجانب الآخر مما أسماه عنوان هذا المقال «الهوس بالإسلام»، وهو هذه المرة لا هوس كارهي الإسلام بل هوس محبيه، أو من أسميناهم «الغيورين على الإسلام». وقد انطلق هذا المقال من أن رد فعل هؤلاء «الغيورين على الإسلام» على ذبح المدرس الفرنسي هو رد فعل مَرَضي، على نحو ربما كان حريًا معه، بقدر كون هذا المعسكر الفضفاض معبرًا عن واقع الإسلام خصوصًا في الشرق الأوسط اليوم، أن نطرح أيضًا سؤالًا أو مجموعة من الأسئلة عن أزمة الإسلام، بالتوازي مع اشتغالنا بالإسلاموفوبيا. وكثيرًا ما يثور هنا اعتراض مفاده: «هناك أزمة في المسلمين ربما، لكن ليس في الإسلام». غير أن التمييز الكامل بين الإسلام والمسلمين له حدود. ففي التحليل الأخير ما هو الإسلام بمعزل عن تجسُّده في بشر هم المسلمون؟ إن الإنسان هو الذي يصنع الدينَ، وليس الدينُ هو الذي يصنع الإنسانَ، كما أن الدين لا يمكن اختزاله في بعض النصوص التي يراها المؤمنون به مقدسة. الدين حياة، ومن ثم فهو يتجلى لا في نصوص فقط لكن في طقوس وعبادات وممارسات ومؤسسات ورؤى هي كلها من صنع الإنسان. وهناك على أي حال محورية لفكرة الأمة في التصور التقليدي للمسلمين عن دينهم.

ولا تسعى هذه الخاتمة للجواب عن سؤال أو أسئلة بمثل تعقيد واتساع قضية مثل «أزمة الإسلام»، لكنها تسعى فقط للدفاع عن وجاهة طرح السؤال والدعوة إلى الانشغال به عوضًا عن تنحيته جانبًا دون تفكير. فلنتناول إذن أهم الاعتراضات المحتملة على طرح سؤال أو أسئلة عن مدى وجود أزمة للإسلام اليوم وعن طبيعة مثل تلك الأزمة وسبل مواجهتها.

وفي تقديري أنه من وجهة نظر من يقر بوجود الإسلاموفوبيا، قد يثور وجهان رئيسيان للاعتراض على طرح أسئلة جادة بشأن أزمة الإسلام. الأول، هو أنه ما دام الإسلام والمسلمون ضحية للإسلاموفوبيا، فإن التساؤل عن أزمة الإسلام في هذا السياق سيكون من قبيل إلقاء اللوم على الضحية، وهو أمر مرفوض. والاعتراض الثاني هو أن خطاب «أزمة الإسلام» نفسه جزء من الإسلاموفوبيا لا بد من التصدي له كجزء من التصدي لها.

والواقع أنني غير مقتنع بوجاهة كلا الاعتراضين. لنبدأ بتناول الاعتراض الأول. الإسلام والمسلمون ضحايا للإسلاموفوبيا. هذا صحيح. لكن «أزمة الإسلام» ربما تكمن تحديدًا في كون المواقف التي تبدو سائدة بين هذه الكتلة الفضفاضة من «الغيورين على الإسلام»، خصوصًا في بلادنا، لا تُشكِّل تصديًا فعالًا ومبدئيًا للإسلاموفوبيا على الإطلاق، بل تُسهِّل مهمة الإسلاموفيين في شيطنة الإسلام. لنأخذ مثلًا مسألة الحجاب الإسلامي. رأينا في هذا المقال أن أحد مظاهر الإسلاموفوبيا هو حظر الحجاب باسم حرية المرأة ومساواتها بالرجل. وبالطبع سيشاطرنا «الغيورون على الإسلام» رفض هذا الحظر. لكن المشكلة أن موقفهم هنا يصعب وصفه بالمبدئية ما داموا هم أنفسهم ميالين بقوة لفرض الحجاب على المرأة باعتباره فريضة. والواقع أن الرد المبدئي الوحيد على حظر الحجاب هو الدفاع عن حرية المرأة في اختيار ملابسها، وهو موقف بعيد جدًا عن تصورات «الغيورين على الإسلام» اليوم. ولننظر أيضًا في الموقف الغالب في صفوف المسلمين المتدينين اليوم من مسألة حرية العقيدة والفكر الديني، وبالتحديد حرية نقد الإسلام. هنا أيضًا تبدو المواقف والممارسات السائدة في صفوفهم مكرسة لأسواء الصور النمطية عن الإسلام كدين كاره للحرية. قد يقول قائل إن وجه الاعتراض ليس على نقد الإسلام، بل على السخرية منه على نحو ينطوي على إزدراء، كما في الرسوم الكاريكاتورية التي كانت أصل الجدال الذي أفضى إلى مأساة ذبح المدرس الفرنسي. ولكن صامويل باتي كان أبعد ما يكون عن السخرية من الإسلام، بل كان ببساطة مدرسًا يؤدي عمله. وقد رأى أنه وهو يُدرِّس لطلابه بشأن موضوع حرية التعبير لا يمكنه أن يتجنب «الفيل الذي في الغرفة»، وهو تلك الرسوم التي اشتد الجدل حولها في المجتمع الفرنسي. ثم إن احترامه لمشاعر طلابه من المسلمين جعله يعطيهم الاختيار بين حضور هذه الحصة بالذات أو الغياب عنها. لكن على أي حال، يستطيع المتابع للشأن العام في بلادنا أن يجد مائة مثال ومثال على رفض «الغيورين للإسلام» لتوجيه أي نقد للإسلام أو للتصورات السائدة عن الإسلام مهما كان جادًا ومهذبًا! وليس مثال نصر حامد أبو زيد ببعيد.

ولنتناول الآن الاعتراض الثاني. صحيح أن الإسلاموفوبيين يقولون إن الإسلام دين مأزوم. لكننا من الممكن أن نتفق معهم في هذا القول دون أن نقع في الإسلاموفوبيا، بالضبط مثلما يمكننا الاتفاق مع «الغيورين على الإسلام» في وجود الإسلاموفوبيا وفي رفضها دون أن نقع في «الغيرة على الإسلام» على طريقة الدب الذي قتل صاحبه! و«أزمة الإسلام» من منظورنا ربما تكمن تحديدًا في ضعف (أو تقريبًا غياب) إسهام المسلمين في النضال الحقيقي ضد الإسلاموفوبيا. فنحن هنا بتحليلنا لهذه الأزمة، لا نقع في فخ الإسلاموفوبيا بل نحاول الإسهام في إيجاد الشروط التي تزيد من فعالية النضال ضدها. والواقع أن حديث الإسلاموفوبيين عن أزمة الإسلام، مثل أغلب صورهم النمطية عن الإسلام، هو حديث لا تاريخي هدفه شيطنة الإسلام والمسلمين وتبرير المواقع العنصرية ضد

الاثنين. والمطلوب هو قلب خطاب «أزمة الإسلام» ضد أصحابه الإسلاموفوبيين. فأزمة الإسلام من هذا المنظور، والتي يتعين أن نتناولها تاريخيًا، تكمن تحديدًا في كون التجليات الراهنة للإسلام على الساحة السياسية، وخصوصًا في الشرق الأوسط، 1) تُسهِّل مهمة الإسلاموفيين في شيطنة الإسلام؛ 2) تحول دون أن يكون المسلمون في موضع القلب من النضال ضد المشروع اليميني التي تُشكِّل الإسلاموفوبيا غطاءه الأيديولوجي.

وما دمنا أشرنا إلى الحاجة إلى تناول «أزمة الإسلام» تاريخيًا، فلنؤكد ضرورة دراسة تاريخ الإسلام نفسه دراسة نقدية فاحصة لا تخشى طرح الأسئلة المهمة. فالمطلوب ليس هو تجنُّب الحديث في التاريخ القديم عبر تعميمات صحيحة لكنها فارغة من المضمون عن تنوع ومرونة كل تراث ديني، بل «بالأحرى تفسير التاريخ الديني بل والدين نفسه تفسيرًا تاريخيًا عوضًا عن التفسير الديني للتاريخ» (الأشقر 2020). والواقع أن التفسير الديني للتاريخ سائد لدينا على نحو ربما يفوق ما يتصوره أغلبنا وعلى نحو يُشكِّل عقبة حقيقية أمام فهم تاريخنا والتعامل الصحي معه.

وإذا صح التحليل القائل بأن الإسلاموفوبيا هي في المقام الأول اليوم الغطاء الأيديولوجي لتلاقي سلطوي وعنصري بين يمين

الوسط وأقصى اليمين، فهذا بالتأكيد يعني أن اليسار الجذري عليه أن يكون في طليعة النضال ضد هذا التلاقي اليميني الجديد، وضد الإسلاموفوبيا التي يقوم عليها. لكن هذا ليس معناه تجنُّب توجيه النقد إلى الإسلام أو تناول أزمته المحتملة بالتحليل. والمطلوب هو فهم الأسباب التاريخية (سواء اتصلت بالتاريخ القديم أو الحديث) التي يبدو معها هذا الدين وأنصاره، بشكل متزايد، خارج التاريخ وخارج قيم عصرنا الأساسية المتمثلة في العقلانية والحرية والحداثة والإعلاء من شأن حقوق الإنسان بما فيها حرية العقيدة. وإذا كان هناك محور رئيسي تدور حوله الأسئلة المطلوب طرحها في هذا السياق، فهو مسألة «خصوصية» الإسلام. هذه الخصوصية، يتناولها البعض خارج التاريخ من منظور إسلامي أو إسلاموفوبي يتناقضان عقائديًا لكنهما يتفقان منهجيًا. في مقابل ذلك، يميل اليسار الرافض للعنصرية ضد الإسلام إلى الهرب من السؤال بنفي أي خصوصية للإسلام. وربما كان المطلوب هو أن نتناول بجدية سؤال خصوصية الإسلام هذا لكن داخل التاريخ بحثًا عن الأسس والبدائل التي يمكن أن تجعل المسلمين، من داخل المنظور الإسلامي أو من خارجه، جزءًا أكثر فعالية من النضال الإنساني التحرري.

مراجع مختارة

باللغة العربية

- إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، طبعة 1995 المزيدة، القاهرة: رؤية، 2006.
- جلبير الأشقر 2011، «الماركسيون والموقف من الدين بوجه عامّ، ومن الأصوليّة الإسلاميّة بوجهٍ خاصّ»، الحوار المتمدن، العدد 3451، أغسطس، متاح على الرابط التالي: https://is.gd/Rgfhtr.
- 2018، «ماركس والشرق الأوسط (1 من 2)»، بدايات، العددان 20-21، ترجمة يزن الحاج، متاح على الرابط التالي: https://is.gd/bMP7e0 [ترجمة عربية لفصل كتبه جلبير الأشقر من «كتاب أكسفورد عن كارل ماركس» (The Oxford Handbook of Karl Marx) الصادر في عام 2019].
- 2020، «الدين والسياسة – الماركسية والإسلام»، رمان، 7 أبريل، متاح على الرابط التالي: https://is.gd/yzZY5W.

خالد فهمي 2014، «خواطر بالعامية: مسخرة التاريخ»، مدى مصر، 8 نوفمبر، متاح على الرابط التالي: https://is.gd/8TQyse.

- 2019، «التفكير مع علاء في قيمتنا كشعب»، مدى مصر، 23 ديسمبر، متاح على الرابط التالي: https://is.gd/Xyi56x.

بلغات أخرى

- Ashcroft, A. and Culwick, M. 2016, Well you did ask ... Why the UK voted to leave the EU. London: Biteback.
- Bensaid, Daniel 2005, Fragments mécréants: mythes identitaires et république imaginaire. Paris: Editions Lignes et Manifestes.
- Callinicos, Alex 2008, Marxists, Muslims and Religion: Anglo-French Attitudes, Historical Materialism 16, pp. 143-166.
- Green, H. Green 2019, The Fear of Islam: An Introduction to Islamophobia in the West. Second Edition. Minneapolis: Fortress Press.
- Halliday, Fred 1999, «'Islamophobia' Reconsidered», Ethnic and Racial Studies 22 (September).
- Ranciére, Jacques 2020, «À propos de la liberté d'expression», Revue de Critique Communiste (Novembre).
- Renton, David 2019, The New Authoritarians: Convergence on the Right, Chicago: Haymarkets Books.
- The Runnymede Trust 1997, Islamophobia: a challenge for us all, Report of the Runnymede Trust: Commission on Britihs Muslims and Islamophobia. London: The Runnymede Trust.
- Wallerstein, Immanuel 2004, World-Systems analysis: An Introduction. Durham: Durke University Press.

حيرة المترجم
ومعضلات الترجمة

أحمد حسان: **لست ترجمانًا** (حوار)

أحمد عبداللطيف: **الرقابة.. كيف نترجم كتبا تقول إننا محقون**

أحمد محسن: **نواجه سوقا غير مستقرة**

أشرف الصباغ: **الفوضى الإدارية وازدهار الفساد الثقافي والسياسي**

إسلام سعد: **الترجمة .. الصعوبات والتحديات**

محمد فتحي خضر: **نتحدى نطاق الاختيارات المحدودة**

محمد حسني: **الترجمة عن العبرية سباق قفز الحواجز**

نانسي محمد: **كي لا نكره ما نحب**

سها السباعي: **ميزان لا يميل**

هبة شريف: **مهمة المؤسسات الحكومية**

محمود عبد الغفار: **من الآداب الآسيوية إلى اللغة العربية**

هموم صنّاع الثقافة

حيرة المترجم و معضلات الترجمة

ربما يبدو كليشيهيًا الحديث عن الترجمة باعتبارها طريقًا للمعرفة والتواصل مع الآخر، أو طريقًا لاكتشاف آفاق جديدة لا نهائية، تتجدد بتجدد المعرفة في كل لحظة.. لكني مضطرة إلى القول إن هذه هي الحقيقة؛ وما دامت ثقافتنا، حتى الآن، لا تنتج ما يكفي من المعارف، سنظل في حاجة دائمة ومستمرة إلى الترجمة، وحتى إن أنتجت ما يكفي من المعارف، فسنظل في حاجة إلى الترجمة والاستزادة. أما بقية الحقيقة فهي أن العالم في كل مكان، وبكل اللغات، دائم الحاجة إلى نقل ثقافة الآخر، والبحث فيما وراء المرئي والمكشوف.. ومع كل هذا، فإن مجموع ما يترجم في مصر لا يستطيع أن يكون كافيًا لتغطية فقر المكتبة العربية، ولا يمكن مقارنته بما تترجمه دول أخرى، أصغر؛ مثل إسرائيل على سبيل المثال!

بالطبع توجد المحاولات الرسمية، التي بدأت منذ الستينيات بمشروع الألف كتاب، ثم الألف كتاب الثاني، ثم سلاسل الترجمة في الهيئة المصرية العامة للكتاب، سواء في النشر العام أو في «سلسلة الجوائز». والهيئة العامة لقصور الثقافة «سلسلة آفاق الترجمة»، ثم المشروع القومي للترجمة الذي كان تابعًا في الفترة الأولى من إنشائه، 1996، للمجلس الأعلى للثقافة، قبل أن يستقل كمؤسسة مستقلة منذ 2006.. لكن كل هذه المحاولات ليست كافية، خصوصًا مع كل ما يشوب عمل المؤسسات الحكومية، من بيروقراطية وبطء وغياب للخطط التي من المفترض أن توضع للإجابة على أسئلة بديهية، ربما يكون أهمها: ماذا ينبغي أن نترجم؟ في السنوات الأخيرة دخلت دور النشر الخاصة الساحة بقوة، وصار ما تنتجه يمثل نسبة لا بأس بها من حجم الكتب المطبوعة في مصر، والكتب المترجمة تحديدًا، بل إن بعض دور النشر تمثل الترجمة نصف ما تصدره سنويًا.. لكن دور النشر الخاصة لها حساباتها الخاصة بالتأكيد، فسعر كتابها لا يمكن مقارنته بسعر الكتاب زهيد الثمن الذي تنتجه الدولة، لكن شكل كتابها -من حيث الجودة الفنية والإخراج والطباعة- لا يمكن مقارنته بشكل الكتاب، الأقل جودة، الذي تنتجه مؤسسات النشر التابعة للدولة.. وفوق كل هذا فلا توجد خطة واضحة للنشر، تمامًا تلك التي تغيب عند الدولة.

أما المترجمون؛ وهم اللاعبون الأساسيون في هذه اللعبة، فيعيشون صراعًا دائمًا، ومشاق ليس على أي منتِج للثقافة أن يعانيها كي يقدم إنتاجًا جيدًا. بين بيروقراطية الدولة، وارتباك دور النشر الخاصة، وغياب الخطة، يقف المترجم الجاد حائرًا، ومع ذلك ووسط ظروف ثقافية جافة وفقيرة، يظل المترجم مؤسسة قائمة بذاتها في بعض الأحوال، ويظل هو البطل الذي يحاول إيجاد ثغرة في جدار.. في هذا الملف، التي ستقدم مرايا من خلاله طرح قضية ثقافية كبرى كل حين، حاورنا المترجم البارز أحمد حسان، وهو حوار نادر، مع مترجم ينطبق عليه الوصف؛ مؤسسة قائمة بذاتها.. بالإضافة إلى شهادات شخصية عن تجربة الترجمة ومشكلاتها وصعوباتها، وهي شهادات قدمها: أحمد عبد اللطيف، وأشرف الصباغ، وهبة شريف، وسها السباعي، ونانسي محمد، ومحمود عبد الغفار، ومحمد حسني، وإسلام سعد، وأحمد محسن، ومحمد فتحي خضر.

المحرر

1

أحمد حسان: لست ترجماناً

حوار: أسماء يس
صور: أمل عبدالفتاح

لم يكن من السهل إقناع أحمد حسان بإجراء لقاء صحفي مطول، وحين اتصلت به قال لي ضاحكًا «لنلتق ونتكلم عن كل شيء إلا عني»! وبعد محاولات للتهرب والزوغان وافق.. الجنتل، كما اعتاد محبوه أن يطلقوا عليه، ومعهم كل الحق، هو أحد أهم المترجمين المصريين المعاصرين؛ نقل إلى العربية نحو خمسين كتابًا في فروع متنوعة من المعرفة؛ من فلسفة وتاريخ وآداب، من اللغات الثلاث؛ الإسبانية والفرنسية والإنجليزية.. لا يُفضِّل أحمد حسان أن يتكلم عن نفسه، ولا يرى في منجزه الضخم المهم ما يستدعي الاحتفاء، يخجله ذلك بالفعل، مع أنه صاحب فضل كبير في التعريف بتجارب فارقة لم يقترب منها مترجم قبله، مثل فالتر بنيامين وكارلوس فوينتس ونيكانور بارَا وجيل دولوز وجي ديبور وليوتار وإدواردو جاليانو وبيير بورديو وجاك رانسير.. وغيرهم. وهو لا يشغل باله كثيرًا بكيفية نشر ما يترجمه، فقد منحته الإنترنت فرصة ذهبية لتفعيل ما يعتقده حقًّا من ضرورة إتاحة المعرفة؛ فصار في إمكانه أن ينشر على صفحة «راية التمرد»، التي أنشأها بعض محبيه على الفيسبوك، كل كتبه؛ المنشور منها سابقًا والذي لم يُنشر بعد، فهو في النهاية، وكما يُعلن دائمًا، يترجم لنفسه ولأصدقائه، لكن ما لا يعلنه أبدًا أنه يأخذ بأيادي شباب المترجمين الواعدين، مانحًا إياهم الكثير من وقته وخبرته. وبعد عمر من الانغماس في ترجمة الكتب، لا يرى أحمد حسان أنه «ترجمان محترف»، وأنه ليس من المديح أن تقول لمترجم «إن الكتاب الفلاني الذي ترجمته كان جيدًا وكأنه مكتوب بالعربية أصلاً».. إذ لا بد، من وجهة نظره، أن يترك المترجم مساحة للغة الأصلية لتوسع من أفق اللغة المنقول إليها، وأن يظهر في النص المترجم السمات المميزة للنص الأصلي..

قابلتُ لوركا في دمياط

لكن وقبل كل هذا، كان لا بد لنا من العودة إلى البداية، إلى العلاقة باللغة في مرحلة ما قبل الترجمة، سألته: متى لاحظت أن علاقتك باللغة تختلف عن مجرد قارئ «هذا سؤال صعب للغاية.. لكن سأخبرك؛ في زماننا، وفي دوائرنا، كان المهتمون بالقراءة والكتابة، والمثقفون في غالبهم، متورطين في العمل السياسي، كان قوام معظم الحركات الشيوعية وقتها كُتَّابا.. من شعراء وقصاصين وروائيين ونقاد.. ولهذا وصلنا إلى ما نحن فيه الآن!» يضحك مازحًا ثم يكمل «وقتها؛ في أوائل السبعينيات تقريبًا، في بداية عهد السادات، كنت في بلدكم؛ في

لوركا أنقذني

وسافرت إلى إسبانيا

بحثا عنه وعملت بائعا

جوالا لأعيش وأقرأ

دمياط، وكنت أعمل أمينًا لمكتبة تقريبًا.. متزوج حديثًا.. أمارس العمل السياسي في دمياط لبعض الوقت.. وأمارسه هنا- في القاهرة- لبعض الوقت.. وقتها قرر السادات، بالمخالفة لرأي الجميع المطالب بحرب تحرير، أن يشن حرب تحريك.. ليضحي بأرواح كل هذه الجنود وينتهي به الأمر مع كسينجر على مائدة واحدة في كامب ديفيد.. وكانت صدمة كبرى لكل المعتقدات التي كنا نؤمن بها.. ارتبك الجميع، حتى السياسيون أنفسهم أصابهم الارتباك.. وفي خضم كل هذا كانت الاعتقالات مستمرة والتضييق على المعارضين على أشده.. ووقعنا في أزمة وجودية بالفعل.. لا أزمة سياسة فقط.. حتى الناس العاديين أصابهم هذا».

لم تؤثر التطورات السياسية على السياسيين فقط، بل تركت تأثيرًا بالغًا على حياة الجميع، وهو ما حدث لأحمد حسان، الذي أفسدت تلك التداعيات زواجه المؤسس

على حب كبير «تأثر زواجي.. وليس زواجي وحدي.. ستجدين الكثير ممن حولنا وقد ترك ما حدث بصماته عليه.. فتداعت زيجات كثيرة.. كانت فترة قاسية وجهنمية.. تفككت فيها الكثير من علاقاتي، سواء الشخصية أو تلك المتعلقة بالسياسة.. ووجدت نفسي وحيدًا.. وحينها صرف الله لي لوركا»..

لوركا؛ الشاعر الإسباني -1898 1936، الذي اغتاله القوميون الفاشيون في غرناطة شابًا، كان النداهة التي ندهت أحمد حسان «وقعت على طبعة بنجوين مزدوجة اللغة، بالإنجليزي والإسباني، من أحد دواوين لوركا.. وعندما يترجم الإنجليز الشعر يدخلونه في قوالبهم الشعرية.. ويقيفونه ليناسب أوزانهم.. كنت أنظر إلى اللغتين ويقتلني الفضول لمعرفة المكتوب باللغة الأخرى التي لا أدري عنها شيئًا؛ الإسبانية.. وداخلي قناعة مجهولة المصدر بأن أصوات الإسبانية قد تكون أفضل.. وفي مصادفة لطيفة التقيت شابًا خريج قسم إسباني.. وطلبت منه أن يقرأ لي المكتوب بالإسبانية.. ووقعت في الفخ.. كانت قصائد لوركا تخاطب كل المرارات التي تملأني حينها.. وكأنه كان يكلمني شخصيًا.. وبدأت أتحدث عنه لمن حولي.. وكانت تعليقات الأصدقاء كلها تقريبًا أن لوركا هذا شاعر غجري لا أهمية له.. لكنني أحببته وأردت أن يحبوه.. وبدأت بالفعل في ترجمة القصائد التي أعجبتني له عن الإنجليزية.. كنت أترجمها وأعطيها لأصدقائي مؤكدًا أنه شاعر مهم.. ليس كما يظنون.. ومع الوقت وفي تجوالي بمدن الدلتا وجدت أصدقاء وقد نسخوا القصائد التي ترجمتها بالكربون.. وأخذوا يتداولونها فيما بينهم.. وأسعدني هذا جدًا»..

> **الترجمة تحولت إلى صنعة.. كيف تترجم كتابًا لم تحبه أساسًا، ولم يلمسك أو يغيِّر فيك شيئًا.. ولا ترى في نقله للناس أي أهمية؟!**

كانت هذه المختارات من قصائد لوركا، هي الكتاب الأول الذي نشره أحمد حسان مترجمًا عن الإنجليزية «وقتها كان عبد السلام رضوان في مجلة الفكر المعاصر، وطلب مني هذه القصائد لنشرها، ونشره في كتاب صغير جدًا.. لكنه كان عزيزًا عليَّ.. ولا يزال عزيزًا حتى الآن». وسط كل الأجواء «العدمية» كان التفكير المسيطر على حسان، وغيره، أن هذه البلاد لم تعد تحتمل، وأن الرحيل عنها صار ضروريًا، لذا قرر فعلاً أن يسافر، لكن إلى أين؟ «قلت أروح إسبانيا.. أروح غرناطة، حيث كان لوركا! وسافرت بتذكرة one way، معي عشرون دولارًا فقط.. بلا نية للعودة.. ذهبت تحديدًا إلى غرناطة، وبحثت عن الأماكن التي كان لوركا يعيش فيها.. وحاولت تتبع آثاره».. لكن الحقيقة أنه قبل كتاب لوركا كان حسان قد ترجم محاضر المحاكمات المكارثية، وسلمها أيضًا لعبد السلام رضوان، ليس بهدف النشر، لكن رضوان نشرها في دار ابن خلدون، وصدرت في كتاب لم يره أحمد حسان إلا بعد سنوات طويلة، بعد أن عاد من إسبانيا..

وهكذا بلا أموال تقريبًا، وبلا لغة، الوطن الآن بالنسبة له هو السنتيمترات القليلة التي يقف عليها فقط، كان عليه أن يعيش؛

فكيف تعامل مع البلد الجديد عليه كليًّا «لكي أتعلم اللغة كان عليَّ أن أبتعد عن أوساط العرب.. لأنه في أوساط العرب ستتكلمون العربية فقط.. لذا كان لا بد لي من الاندماج مع الناس في الشوارع.. فعملت بائعًا جوالاً..». وبعد أن قضى في إسبانيا بعض الوقت، ذهب إلى فرنسا، في أوائل الثمانينيات، بالقليل من اللغة الفرنسية «سافرت إلى فرنسا لأتعلم.. لم يكن لدي عمل مستقر.. فقررت التعامل مع الواقع.. اختصارًا قررت أن أتعلم.. وكان هناك نظام في المكتبات، لا أدري إن كان متاحًا للآن أم لا؛ وهو أن تذهب إلى مكتبات بيع الكتب، وتختار الكتاب الذي يعجبك وتجلس على كرسي في المكتبة وتطالعه لتقرر أن تشتريه أو لا.. وطبعًا لم توجد أموال لشراء الكتب، فكنت أذهب وأقرأ ما أحب من كتب فصلاً في كل يوم.. حتى ينتهي الكتاب، وهكذا».. كانت التجربة في فرنسا أصعب مما في إسبانيا لأسباب كثيرة «في فرنسا كان المزاج القومي مختلفًا عن إسبانيا؛ حيث كنت أبيع الحلي اليدوية للبنات في الشوارع.. وكان عليَّ إقناعهن ببضاعتي البسيطة.. والإسبان فنجرية فعلاً وكرماء؛ يهدون بعضهم في كل المناسبات، ولا يهتمون بالمال.. حتى الفقراء منهم.. وكانوا حين أخطئ في نطق كلمة إسبانية يصححون لي ويقولون: هذه الكلمة تنطق هكذا.. لكن في فرنسا الوضع مختلف؛ وحين تخطئ في نطق كلمة فرنسية نطقتها بعد تفكير وتحضير، سيبادر الفرنسي للقول مشمئزًا: Ce pas française، وفعلاً المزاج العام للفرنسيين مختلف تمامًا عن الإسبان.. الإسبان يحبون المرح واللعب والضرب والفسحة، لذلك حتى الفقراء هناك كان يمكنهم أن يشعروا بالسعادة والانبساط.. لكن في فرنسا لا أحد يعرف أحدًا».

المترجم ينقل طريقة في التفكير ومناهج جديدة للاكتشاف، خصوصًا في ظل واقع ثقافي راكد، ومتأخر، تترجم فيه الكتب بعد صدورها بلغتها الأصلية بعشرين أو ثلاثين عامًا

لست ترجمانًا

يعتقد أحمد حسان أن فترة وجوده في إسبانيا هي ما أثرت على اختياراته للكتب التي يترجمها؛ فقد وجهت بشكل ما اهتماماته نحو فروع معينة من المعارف الراغبة في البحث وراء الحوادث الكبرى المؤثرة على المجتمعات، والنقاط الفاصلة كالحرب الأهلية وآثرها، خصوصًا وقد مر في حياته بالكثير من التنقلات الفكرية، بين الماركسية والمواقفية والعبثية، لكن الحراك الثقافي الصاخب في فرنسا هو ما دفعه ليفكر في الترجمة بشكلٍ مختلف عما قبل؛ وقد دهشت كثيرًا من إصرار أحمد حسان على أنه «مش ترجمان»، وأنه حتى الآن لا يتعامل مع الترجمة باعتبارها

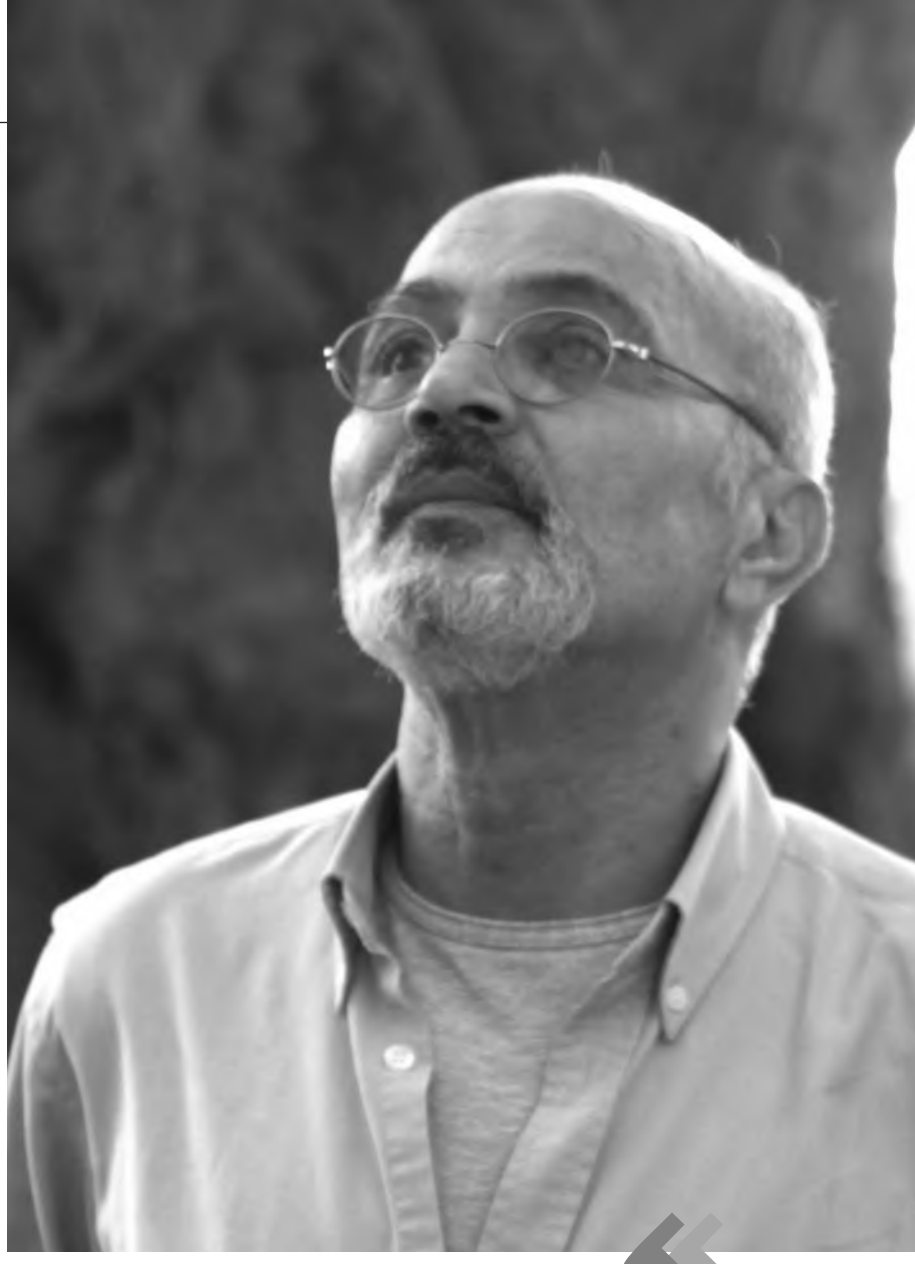

كل الشعوب أجراً منا لغويا.. صحيح أن الشارع فكك اللغة وتخلص تمامًا من أطرها الجامدة.. لكن رسميًا ليس بعد، ليس سهلاً أن نكتب ما يقوله الناس في الشارع

حرفته، لكن إن لم يكن أحمد حسان ترجمانًا، فمن الترجمان إذن «زمان، كانت تسحرنا على سبيل المثال ترجمات فؤاد زكريا أو يحي حقي.. هؤلاء الذين شكَّلوا وعينا.. لكن مع الوقت انهارت الترجمة، وتغيَّر منطقها.. زمان كان المترجمون يترجمون في مجالات تخصصهم وعلومهم.. يترجمون ما يفهمون فيه تمامًا.. دون أن يطلب منهم أحد ذلك.. وكان الأكاديميون مثقفين، يرون أنهم يربون أجيالاً، ويريدون إيصال ما يترجمونه للناس، لا يدرسون منهجًا والسلام.. لذلك كانت الترجمات جيدة ومفيدة».

ثم ماذا حدث «الآن تغير الوضع تمامًا؛ تصنَّعت الترجمة.. وأصبح في إمكان كل من يعرف لغة، أو يملك بعض المهارات اللغوية، أن ينتظر تكليفًا بترجمة كتاب ما من دار نشر، في مقابل مبلغ من المال، في وقت معين، وبشروط معينة.. فلا يستطيع الرفض، لأن الترجمة أصبحت مصدر رزقه.. لم يعد المترجم يندمج مع الكتاب الذي يترجمه، أو يقرأ حوله.. وليس مهمًا أن يكون مهتمًا بموضوع الكتاب ولا بما يطرحه.. أصبح كالموظف أو أضل سبيلاً».

لكن كيف حدث التحول الذي نقل الترجمة من تلك المنطقة التي كان المترجمون فيها هواة، ومع ذلك يضطلعون بدور تثقيفي الترجمة أحد سياقاته، إلى حرفة أو صنعة «أعتقد أنه حتى أواخر عصر السادات كانت أجواء الترجمة ما تزال معقولة.. لكن الأمور ساءت للغاية في الثلاثين سنة من عصر مبارك.. كانت حالة من الموات.. وتأسست أخلاقيات المصلحة الشخصية.. وكان على كل واحد أن يبحث عما يستطيع العيش به.. ويشوف مصلحته.. هنا تحولت الترجمة إلى صنعة؛ أن تترجم كتابًا لم تحبه أساسًا، ولم يلمسك أو يغيِّر فيك شيئًا.. ولا ترى في نقله للناس أي أهمية.. نفس اغتراب العامل في المصنع.. يعمل من أجل آخرين دون أن يستفيد شيئًا.. للأسف صار هذا قانون الترجمة، وموتها في رأيي».

ولأن أحمد حسان لا يزال، حتى الآن، يختار الكتب بناءً على ما يلمسه ويؤثر فيه، فهو لا يعتبر نفسه ترجمانًا «في البداية كنت أعمل بمنطق نقل المعرفة التي تهمني لمن أعرفهم.. ويهمني أن يعرفوا ما أعرفه.. ولا أزال حتى الآن.. أترجم ما يوجعني.. وما يخاطبني، ثم أبحث عن طريقة لنشره، وربما لا ينشر.. ربما يرقد كتاب ترجمته في الدرج 10 سنوات بلا نشر.. لا يهمني».

ربما حدث مرة واحدة فقط أن ترجم حسان كتابًا لم يحبه بالقدر الكافي، أو كتابًا لم يختره بنفسه

من البداية «عندما مرض فؤاد زكريا في أواخر أيامه، وكان يترجم كتابًا في تاريخ العلم تقريبًا، طلب مني إكمال ترجمة الكتاب.. لم يكن الكتاب من اختياري، لكنه لم يكن بعيدًا تمامًا عن اهتماماتي، وخجلت أن أرد طلبه.. فوافقت، وبعد أن ذاكرت حول الكتاب وأجوائه، أكملته فعلاً.. لكني عمومًا لا أترجم بتكليف من أحد». بالنظر إلى العناوين في قائمة الكتب التي صدرت لأحمد حسان حتى الآن، لا بد وأن تسأل كيف يختار الكتب التي يترجمها إذن «كل ما ترجمته هو تاريخ دماغي وتطوراتها، وتغيراتي التي لم تكن هينة على الإطلاق؛ فقد كنتُ في فترة ما ثوريًا جدًا وعضوًا في تنظيم سري من بين أهدافه تغيير الواقع بكل الوسائل الممكنة، لكن بعد فترة تغيرت أفكاري.. وعندما تُغيِّر فكرة كنت معتقدًا فيها إلى هذا الحد يكون الوضع مرعبًا.. أن تتقبل هذا التغيير، وتنظر بعين جديدة لمعتقداتك القديمة ليس خطوة سهلة، لكن لا مفر من تقبلها.. وهكذا فكتبي المترجمة علامات طريق بالنسبة لي.. أنا أختار الكتاب بناءً على القلق والأسئلة التي تهاجمني وقت ترجمة الكتاب.. وهذا القلق متغير بالطبع، متغير بتغير الوقت والظرف.. هذا طبعًا لا يهم القارئ؛ الذي لا يمكنه تصور المسار الذي مررت به في حياتي.. فالقارئ يبحث عما يريده فقط.

أختار الكتاب بناءً على القلق والأسئلة التي تهاجمني وقت ترجمة الكتاب.. هذا طبعًا لا يهم القارئ؛ فالقارئ يبحث عما يريده فقط

الإسبانية لغتي المفضلة

لكن المترجم الذي يترجم عن أكثر من لغة لا بد وأن عنده لغة مفضلة، لغة يكون مرتاحًا فيها أكثر من غيرها، لا ينكر أحمد حسان هذا، لكنه يؤكد على أن الموضوع محل الترجمة له دور كبير «عن الإسباني أحب ترجمة الآداب؛ شعر ورواية.. لأني علاقتي باللغة حميمية وقوية وجاءت من الحواري والناس في الشارع.. وعن الفرنسية لا أفضل ترجمة الأدب، أفضل ترجمة الفلسفة والعلوم الاجتماعية.. وعن الإنجليزية أفضل ترجمة دراسات النقد ونظرياته». لكنه يعترف أن متعته اللغوية هي الإسبانية «أحلم بترجمة أعمال إسبانية مليئة بالكلمات العامية.. أحب هذه الألعاب اللغوية.. حين زادت شهرة ماركيز في أواخر الثمانينيات، كانت كتبه تصدر في إسبانيا مرفق بها مسرد لشرح الكلمات غير المفهومة.. الآن لم يعد أحد يقول هذه هي اللغة الإسبانية؛ يقولون اللغة الأرجنتينية، اللغة الكولومبية، اللغة الأرجوانية..

لقد تطورت الإسبانية تطورًا مهولاً في الفترة الأخيرة؛ حدثت طفرة كبرى بعد فرانكو.. وصدر منذ فترة قاموس ضخم شاركت فيه المجامع اللغوية من كل الدول الناطقة بالإسبانية.. ضم كل طبقات اللغة، وكل الكلمات ذات الأصول الأخرى.. وهو ما ينبغي أن نفعله هنا، للتقليل من تخشب اللغة وتكلسها الناتج عن التعامل معها كما لو كانت رضيعًا في حضَّانة بحاجة إلى الحماية الدائمة من وحوش التجديد».

المترجم إذن؛ وهو الوسيط بين عالمين ولغتين، أحد المسؤولين عن خلخلة هذا التخشب، والمضي باللغة قدمًا، لكن الأمر ليس بهذه البساطة «أحيانًا يخشى المترجم حين يواجهه مقطع عامي بالكامل أن يترجمه كما هو.. ويتكرر ذلك في المقاطع التي تحتوي على ألفاظ جريئة جدًا.. الإسبان يكتبون ما يقولون أيًا كانت جرأته.. والفرنسيون كذلك.. كل الشعوب أجرأ منا لغويًا.. صحيح أن الشارع فكك اللغة وتخلص تمامًا من أطرها الجامدة.. لكن رسميًا ليس بعد، ليس سهلاً أن نكتب ما يقوله الناس في الشارع.. لا أدري لماذا لا يرغبون في توسعة آفاق اللغة وإدخال كل ما يقوله الناس إليها بدلاً من إبعاد الكلمات الجديدة كما لو كانت أذى أو خطرًا.. مجمع اللغة العربية هو الهيئة التي يُتوقع منها أن تضع قواميس لتوحيد المصطلحات، والاتفاق على أسس تحَدث باستمرار، لكنه لن يفعل هذا.. ولا يستطيع الأفراد خارج المؤسسات

الرسمية أيضًا أن يفعلوا هذا، لأن الواقع الخرب أبعد عن أذهانهم تمامًا الرغبة في القيام بأدوار بديلة.. لكني أتوقع أن ينفرط هذا الإحكام قريبًا وتنعدم السيطرة الرسمية عليه كما حدث في لغات أخرى، وهو للأسف ربما ما يصنع انقطاعًا مع تراث اللغة المهم كذلك».

لا يرى حسان أن وظيفة المترجم أن ينقل نصوصًا؛ بل ينقل طريقة في التفكير ومناهج جديدة للاكتشاف، خصوصًا في ظل واقع ثقافي راكد، ومتأخر، تترجم فيه الكتب بعد صدورها بلغتها الأصلية بعشرين أو ثلاثين عامًا، وتستقبل هنا وكأنه فتح الفتوح. لكن المترجم متلق هو الآخر، وفي حال دائمة من المحاولات والاكتشافات والبحث. كل هذا يأخذنا للحديث عن المهنة التي لا قواعد لها؛ الترجمة «إن كانت الترجمة الآن مهنة يمارسها محترفون، فهل لها قواعد وأطر محددة للعمل؟ هل توجد خطط للترجمة؟ هل يسأل أحد ماذا ينقصنا وماذا ينبغي أن نترجمه؟ لا يوجد؛ حين تأسس المشروع القومي للترجمة، كنا متفائلين جدًا.. وتصورنا أنه سيفعل مثلما فعلت مشروعات مماثلة في شرق أوروبا وروسيا، ويضع خطة واضحة لنشر ما ينقصنا معرفته في كل المعارف.. لكن النتيجة لم تكن مرضية؛ فلا توجد قواعد معينة يلتزم بها المترجمون.. هل أصلاً توجد قواعد خاصة بالتعاملات المالية؟ لا، لا توجد نهائيًا.. وأنا شخصيًا لا أُخضع نفسي لقواعد لعبة السوق، وأنشر كتبي مجانًا على الإنترنت، لأن هذه هي وظيفتي الأصلية، ووظيفة الكتاب المترجم؛ أن يصل للناس في النهاية، أيًا كانت ألعاب السوق». وهو بالطبع لم يسلم من ألعاب السوق هذه؛ فقد حدث أن أعادت إحدى دور النشر العربية، التي يملكها ناشر عراقي، نشر كتاب «الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية»- وهو أحد كتابين ترجمهما حسان وبشير

لماذا لا يرغبون في توسعة آفاق اللغة وإدخال كل ما يقوله الناس إليها بدلاً من إبعاد الكلمات الجديدة كما لو كانت أذى أو خطرًا؟

السباعي معًا، الآخر هو «استعمار مصر- ووضعت على غلافه اسم مترجم آخر بعد تعديلات طفيفة في الترجمة.

الشعر مرة أخرى..

ليس لدى أحمد حسان شاعر مفضل كذلك، لكن يظل لوركا حبه القديم الحميمي.. وعلى مدار تجربته في الترجمة ترجم الكثير من الشعر؛ عن الإسبانية قدَّم «كأنما لا شيء يحدث في تشيلي» وهي مختارات من قصائد للشاعر التشيلي نيكانور بارًا؛ 1914-2018، أحد أهم شعراء تشيلي وأمريكا اللاتينية، ونُشرت المختارات في الهيئة العامة لقصور الثقافة 2014؛ وقت أن كان الشاعر والمترجم رفعت سلَّام مسؤولاً عن سلسلة آفاق عالمية «كانت تجربة نشر هذا الكتاب ظريفة جدًا.. أحببتُ بارًا جدًا حين اكتشفته بالمصادفة في الثمانينيات، ربما في زيارة لي إلى إسبانيا، وكان مفاجأة كبرى.. بارًا كان عبقريًا وشاعرًا بديعًا.. وكان جزءًا مؤثرًا من حركة الشعر المضاد، التي ينتمي إليها روكي دالتون أيضًا.. فترجمته، وظل لفترة دون أن يُنشر، ثم نُشر في مجلة الكتابة الأخرى، بعدها فكرت في نشره ورقيًا، وقلت لصديقي محمد إبراهيم مبروك إن هذا الكتاب يثقلني.. فاقترح عليَّ سلسلة آفاق عالمية، مؤكدًا أن رفعت سلَّام سيتحمس للكتاب.. وفعلاً كان لقاءً طيبًا، ونُشر الكتاب». عن الإسبانية أيضًا ترجم «الموتى يصبحون كل يوم أصعب مِراسا» وهي مختارات لشاعر السلفادور الثوري روكي دالتون 1935-1975. وصدرت عن المركز القومي للترجمة، 2018، و»مرتفعات ماتشو بيتشو»؛ قصيدة بابلو نيرودا المطولة. و»مرثيتان» لميجيل إرناندث الشاعر الإسباني 1910-1942.

كما قدم ترجمة رائعة لمختارات من شعر بريخت 1898-1956، المسرحي والشاعر الألماني البارز، عن الإنجليزية. وكانت ترجمته لقصائد بريخت هي اللقاء الأول بين قراء العربية وبين بريخت شاعرًا؛ فقد كانت مسرحياته كلها تقريبًا مترجمة بالفعل، ولم يكن الكثيرون على علم بأن بريخت شاعر في الأصل «كانت تجربة طويلة وجميلة.. استغرقتني لثلاث سنوات.. واستعنت فيها بصديقة ألمانية ساعدتني كثيرًا، لذلك أهديت الترجمة إليها.. ترجمة الشعر عمومًا ليست مهمة سهلة.. وبريخت نفسه لم يكن يريد أن يركز الناس على كونه شاعرًا؛ ونشر في حياته نحو أربعين قصيدة فقط، ضمنها في مسرحياته، من أصل نحو ألف قصيدة، وأغلب قصائده لم تنشر في حياته، بل اكتشفت بعد وفاته ونشرت..».

تسمع أحمد حسان وهو يتكلم عن الشعر وعن ترجمته، ربما تفكر على الفور أنه أديب اتخذ من الترجمة طريقًا بديلاً، لكنه لا يوافق على هذا الطرح، حتى وإن ملك حساسية الشاعر ومساراته «كل جلينا كتب في بداية شبابه شعرًا وقصة.. وتقريبًا هذا له علاقة بحداثة السن.. نكتب الشعر لحد أما نعقل أو نتوب.. لكن الحقيقة أن السياسة كانت ما يحرك اختياراتنا ومساراتنا.. لكن هذه الحياة؛ نتعلم في النصف الأول منها أشياء، لنقضي النصف الآخر في مراجعتها».

الرقـــابة.. 2

كيف نترجم كتبًا تقول إننا محقون

أحمد عبد اللطيف

بـدايـةً مـن النصف الثاني مـن القرن الـ 19، يمكن الحديث عـن الترجمة بارتباطها بمصر الـحـديـثـة، كنتيجة طبيعية للبعثات العلمية الـتي أرسلها محمد علي إلى فرنسا، وكانوا أربعين طالـبًا مـن بينهم رفـاعـة الطهطاوي، ليتعلموا كيف تكوَّنت الدولة الفرنسية، وكيف تقدمت. أضافت البعثات لمصر تصورًا عن شكل الدولة البيروقراطية وتركيبتها الهيراركية، كما فتحت لنا أفقًا على الثقافة الغربية لم يكن غائبًا عنا إلا لأننا كنا دولة مستعمرة لا يمثِّل الـغـرب بالنسبة لنا إلا المحتل. لكن اللبنات الأولى لمشروع ترجمة نهضوي لم يتأسس على المعرفة الحقيقية للغرب، وإنما انتقى من الغرب ما يناسب الثقافة العربية الإسلامية ونحّا جانبًا، وغض البصر، عما يتعارض مع قيم الثقافة المنقول إليها. حاولت الترجمة في تلك الفترة أن تقيم جـسـورًا بين ثقافتين ترى كل منهما العالم بشكل مختلف، فأوروبا كانت قد أنهت صراعها الطويل بفصل الكنيسة عن الملك، وكانت قد دخلت عصر النهضة بكل ما يحمله من تحرر، وأسـس فلاسفتها تيار الحداثة الذي كان الطلقة الضرورية لهدم القيم الرجعية والتقدم نحو العلم والمنطق، ثم جاءت الثورة الفرنسية لتؤسس لقيم الجمهورية والـديـمـقـراطـيـة، وبفضل فلاسفة ومفكرين تأسس تنوير فرنسي/ أوروبـي. في أثناء ذلـك، كانت مصر، مـع بقية الــدول الـعـربـيـة، تعيش في ظـلام الـدولـة العثمانية، وعلى مـدار ما يقرب مـن 300 سنة انقطعت صلتنا بالعالم، ليتحوَّل الفنان المصري إلى مـزارع في إقطاعيات ووسـايـا. لا شك أن الحملة الفرنسية، على الـرغـم من

عيوبها كـاحـتـلال، قـد فتحت عيوننا على مآسي حياتنا المظلمة، ليس فقط بالمطبعة التي أسهمت في نهضة ثقافية، بل أيضًا بالكاميرا السينمائية وأسلوب الحياة النظيفة، ما فتح أمامنا طريقًا نحو حداثة عربية استغلها محمد علي ليؤسس لدولة عسكرية قوية، كهدف أساسي، مدركًا أن ذلك لن يحدث ما لم يتأسس لنهضة علمية مـوازيـة. كانت البعثات، إذن، اصطدام بين حضارتين الفارق بينهما، على أقل تقدير، 300 سنة، ولقاء بين ثقافتين من الصعب أن يلتقيا، ولعل كتاب الطهطاوي «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» يكشف هذه الصدمة الحضارية، صدمة الأزهري أمام ثقافة الفرنجة، والأزهري هنا هو المثقف المنوط به نقل الحداثة إلى مصر، بكل ما يحمله من ممنوعات دينية ورؤيـة لا تعرف إلا اليقين والحقائق المطلقة.

هـذا السياق الثقافي المغلق، حيث لا يـعـرف الـنـاس إلا ثقافتهم وأحـيـانًـا كثيرة لا يعرفون ثقافتهم، وما يرتبط بـه مـن غـيـاب تـام للتعليم، باستثناء طبقة محددة ومحدودة، أفرز تنويريين أخلاقيين وتربويين، انطلقت نظرتهم إلى الثقافة الغربية من سياقهم الثقافي والديني، وكان شريطة الكتب المترجمة إما أن تكون علمية أو أدبية لا تصطدم بالثقافة الإسـلامـيـة، بـل وتحض على التعاليم الأخلاقية، ومع أنـه في الفترة مـن 1914-1860 تُـرجـم فـي مصر 237 روايـة، بحسب محمد سيد عبد التواب (بواكير الرواية، ص 36)، فإنها كانت خاضعة لهذه الـرؤيـة، ويتكشف ذلك حتى في مقدمات الروايات العربية في تلك الفترة، مثل «زينب» لهيكل، و«الدين والعلم والمال» لفرح أنطوان، و«أسرار القصور» لأمين رسلان. في هذا السياق، يترجم رفاعة الطهطاوي رواية «وقائع تليماك» لـ فينلون تحت عنوان «مـواقـع الأفـلاك فـي وقـائـع تليماك»، ويقدم لها بأنها تشتمل «نصائح للملوك الحكام ومواعظ لتحسين سلوك عامة الناس..»، فيبدو جليًّا أن الطهطاوي لم يعامل نفسه كمترجم بقدر ما رأى نفسه مصلحًا اجتماعيًّا تخضع اختياراته «لما يفيد الناس»، من هنا كان استخدام لفظ «تعريب» هو الأقرب لمدرسة الطهطاوي التي استمرت لمنتصف القرن العشرين. هذا التأسيس، وهذه الاختيارات والتوجه في تنقية الكتب المترجمة، كان البوصلة لأدب مترجم خاضع للرقابة، رقابة تبدأ أولاً من المترجم (في حالة الطهطاوي مترجم ممثِّل للثقافة الرسمية)، وفيما بعد رقابة دور النشر الحكومية حين انفصل عنها المترجم وفقد سلطته.

لا يقلل ذلـك مـن جهود المترجمين الأوائـل في مصر الحديثة، لكنه يرسم

لنا لوحة تصويرية عن الأسس التي قامت عليها الترجمة للعربية بالمخالفة لقوانين الترجمة الأوروبية، إذ سعت أوروبا على طول تاريخها لتأسيس «علم الترجمة»؛ ووضعت له نظريات وأسس أولها الإجابة على سؤال لماذا نترجم، فلم يكن البعد المحلي هو الشاغل، لأن أول منجزات الترجمة هو تطوير المنتج المحلي والعقلية المحلية عبر اكتساب معارف أخرى وجديدة، وليس الاتساق مع القيم الأخلاقية للمجتمع. ربما أدرك طه حسين هذا الخلل، فأسس لمشروع ترجمة الألف كتاب في سبيل انفتاح أكبر على الثقافة الأوروبية، إذ رأى طه أنها طوق النجاة للثقافة المصرية، وكان ذلك في إطار مشروع إحياء ثقافة البحر المتوسط، كما يتضح في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، الذي ألح فيه على فكرة التقارب بين مصر والغرب، وأشار بنقد لاذع للقطيعة التي حدثت أيام الدولة العثمانية، ما تركت شرخًا في الثقافة المصرية.

الطهطاوي لم يعامل نفسه كمترجم بقدر ما رأى نفسه مصلحًا اجتماعيًا تخضع اختياراته «لما يفيد الناس»، من هنا كان استخدام لفظ «تعريب» هو الأقرب لمدرسته

دور حكومية ودور خاصة

في تسعينيات القرن الماضي؛ وهو العقد الذي شهد صعود التيار الإسلامي والعمليَّات الإرهابية والاغتيالات لسياسيين ومفكرين، تأسس المشروع القومي للترجمة (المركز القومي للترجمة فيما بعد) كرد فعل على التراجع الثقافي في مقابل الغزو الديني. ومع أنه بدأ كمشروع تنويري نهضوي، وأنتج الكثير من الكتب الهامة إلا أنه خيَّب الآمال في أن يكون قاطرة حقيقية للثقافة بعد أن تحوَّل إلى جيتو مغلق يصعب التواصل معه، وبعد أن اقتصر التعامل معه على مترجمين تحولوا مع الوقت إلى موظفين بالمركز، ثم لم يعد من أولوياته متابعة الجديد في عالم الأدب بقدر ما يعنيه تسويد أوراق تدل على نشاطه. مع الوقت تفاقمت أزمات المركز ليستحيل مقبرة للكتب، وليس دارًا لنشر الثقافة. لكن الأزمة الكبرى أن ثمة مشاريع للترجمة يجب أن يلتفت إليها المركز وهيئة الكتاب، لأنها مشروعات قومية أهميتها في قيمتها، وليست

في تحقيق أرباح. وبنظرة سريعة على وضع المركز في مقارنة مع دور النشر الخاصة، سيلاحظ أنه خارج المنافسة، وبالقدر نفسه سيلاحظ أن الترجمة بهيئة الكتاب أصبحت شبه ميتة. لم ينجُ المركز كذلك، كجهة رسمية، من فخ الرقابة والانحياز، وافتقد لإنتاج أعمال مثيرة للجدل أو تدفعنا لإعادة النظر في منتجنا الفكري والتاريخي. لن يقدم المركز، على سبيل المثال، أعمالاً تكسر التابو الجنسي ولا الديني، وستتجاهل الرأي الآخر فيما يخص تاريخ العرب في الأندلس، كأن لدينا وجهة نظر ونبحث عما يؤيدها في الكتابات الغربية. بالطبع توجد كتب مهمة في الفلسفة، وفلسفة النصف الثاني من القرن العشرين، مثل أعمال دريدا والبنيوية وما بعدها، لكنها ليست ملمة بشكل كافٍ بما يحتاج إليه القارئ المصري/العربي.

استطاع المركز القومي للترجمة أن يلقي حجرًا في بركة آسنة، لكنه اكتفى فقط بإلقاء الحجر، فيما تلقت الحركة دور نشر خاصة، مصرية وعربية، التفتت مؤخرًا إلى «تجارة الترجمة» وليس إلى صناعتها، فركزت جُلّ اهتمامها في ترجمة الروايات. نوع أدبي مهم بلا شك، لكن لا يمكن اختصار حركة الكتابة والفكر في العالم في نوع أدبي واحد، مع إهمال تام لترجمة القصة والشعر والمسرح والكتب النثرية والفكرية والعلمية، في ادعاء بأن هذا ما يريده القارئ وما تطلبه المكتبات، وفي تضييق حاد للذائقة، ما أظنه «نهضة كاذبة» تتباهى بكم الكتب المترجمة وتتجاهل الكيف.

أظن أننا، منذ ما يزيد عن عشر سنوات، لا نعمل وفق مشروع ترجمة نهضوي، مشروع جمعي رؤيوي يدرس ما تحتاج إليه ثقافتنا من أجل نجدتها من المستنقع الفكري الذي نعاني منه ويعيد إلينا تعريف البديهيات الفكرية والفلسفية، لتغدو الترجمة مجرد مشروع فردي يخص كل مترجم، مشروع لا يتحقق منه إلا ما يسمح به النشر، وطبقًا لحسابات السوق والمكسب والخسارة. ومع أني لست من أنصار الثقافة الحكومية، أو اختصار الثقافة في المنتج الحكومي، فإني أعتقد أن ثمة مشروعات كبرى يجب أن تتصدى لها جهات حكومية، مثل المركز القومي للترجمة وهيئة الكتاب، وتتصدى هنا بمعنى أن تخطط لها وتدرسها ثم تتحمل تكاليفها الاقتصادية، دون أن تكون هي الناشر، بوضوح: أن تعهد للدور الخاصة بنشرها. سيؤدي ذلك إلى سرعة النشر، ستتجنب البيروقراطية، وستهرب هذه المشاريع من يد الرقيب (سواء الرقيب كموظف أو كعامل مطبعة) وسترى النور أكثر لأن الناشر الخاص سيعمل على التوزيع والمكسب والانتشار عبر الوسائل الجديدة. هذا النوع من التعاون، هذا النوع من الدعم أو النشر المشترك، في ظني، سيكون مثمرًا أكثر.

طه حسين أسس لمشروع ترجمة الألف كتاب في سبيل انفتاح أكبر على الثقافة الأوروبية التي رأى أنها طوق النجاة للثقافة المصرية

مصر أفرزت عددًا هائلاً من المترجمين الكفء في الكثير من اللغات، فضّلوا التعاون مع دور نشر عربية تحقق لهم الانتشار وتقدّر جهودهم ماليا

تراجع الترجمة.. تقدم المترجمين

بنظرة بانورامية على حال الترجمة في مصر، في العشر سنوات الأخيرة، نلاحظ تراجع المركز القومي للترجمة، وتراجع سلسلة الجوائز بهيئة الكتاب لدرجة الاختفاء، ومحدودية إنتاج سلسلة آفاق عالمية بهيئة قصور الثقافة، في الوقت نفسه ليست هناك دور نشر خاصة لديها القدرة على سد هذا التراجع أو تقديم مشروع ترجمي متماسك، وهذ العجز له أسباب متعددة، منها اعتماد الدور الخاصة على الدعم من جهات أجنبية تفرض شروطها في اختيار الأعمال، ومنها اعتماد هذه الدور على مترجمين قليلي الكفاءة لتقليل النفقات، ومنها غياب الرؤية لما يحتاج إليه الواقع الثقافي والمجتمعي وليس ما يحتاج إليه، رغم أن السوق بالمنطق التجاري هم مجموعة من القراء ينتظرون الكتب التي يختارها الناشر. ولعل العلاقة بين الناشر والمترجم أحد أسباب تجنب المترجمين للتعامل مع دور نشر مصرية، أقصد بذلك أجور الترجمة المتدنية التي لا تتوافق مع الجهد والربح.

في أثناء هذا التراجع في دور النشر، يلاحظ أن مصر أفرزت في العشرين عامًا الأخيرة عددًا هائلاً من المترجمين الكفء في الكثير من اللغات، وللأسباب السابقة، فضّلوا التعاون مع دور نشر عربية تحقق لهم الانتشار عربيًا وفي الوقت نفسه تقدّر جهودهم بمكافآت منطقية تتناسب مع نسبة المبيعات من ناحية ومع جهدهم من ناحية أخرى. هذه المروحة من الاختيارات من بين دور نشر عربية كثيرة تهتم بالترجمة أدت إلى ازدهار الترجمة العربية في مقابل كساد الترجمة المصرية. ما من مبالغة في أن هناك مترجمين مصريين تحمَّلوا على أكتافهم نهضة ترجمية عربية في لغات مثل الإسبانية مثلاً. وما من شك أن الدور العربية مثل الجمل والمتوسط والآداب وممدوح عدوان والمدى سابقة بسنوات الدور المصرية سواء في جودة الترجمة والاختيارات أو في شكل الكتاب، أو في حجم التوزيع. وأخيرًا، الدخول في معركة الرقابة المؤجلة، بحيث لا تفرضها الدار ولا يفرضها المترجم، حتى تصل في النهاية إلى جهة مسؤولة فنكون على الأقل غسل أيدينا من الشعور بالذنب.

3

نواجه سوقًا غير مستقرة

أحمد محسن

بـدأتُ فـي حـب الـتـرجـمـة قـبـل أن أسـمـع بها للمرة الأولـى؛ منذ كنتُ طفلاً في الثانية عشرة أشارك في كل مسابقات الـقـراءة والكتابة والفنون والتحدّث بالفصحى وإلـقـاء الشعر. كنت دون أن أدري ألبّي نداء كل بابٍ من أبـوابِ اللغة ينفتح أمـامي. كنتُ أتـرجِـم حـيـنـذاك، مسـتـخـدمًا لغةً واحدةً، هي اللغة التي كنت أعرفها.

حين كـان عليّ تحديد الكلية التي سأدرسُ فيها، وعلى الرغم من رغبتي في الـدراسـة في كلية دار الـعـلـوم؛ لاستـكـمـال الـطـريـق في الـنـهـل من الأدب الـعـربـي، إلا أنـي استمعتُ لنصح كثير مـن أصـدقـائـي بـدراسـة لُـغـةٍ أجنبية وسـلـوك سـبـلٍ موازية للتعمق في دراسة العربية إلى جانب الدراسة الجامعية؛ وبالفعل التحقتُ بـقـسـم الـلـغـة الإسـبـانـيـة وآدابـهـا بجامعة القاهرة. منذ الفصول الأولى بالجامعة، ولأنني كنتُ كثيرَ الكتابة حيـنـهـا، كـنـتُ أتـتـبـع سـيـر وأسـمـاء أعلام مترجمي الإسبانية الكبار. وقبل قـلـيـل، فـي أثـنـاء حـديثي مـع شـاعـرة كولومبية أترجم لها كتابًا، تذكرتُ أن من أوائـل القصص التي ترجمتُها في الجامعة قصة من كتاب كلاسيكي في الأدب الإسباني هو كتاب «الحب الـمـحـمـود». وهـو مـا تـعـجـبـتُ لـه، لأنـه مـن الكتب القديمة ذات اللغة الصعبة، لكن لأن مواد الترجمة التي درستُها خلال سنواتٍ الدراسة كانت ذات تركيزٍ على تعلم اللغة أكثر من اعتنائها بتعليم تقنيات الترجمة وآلياتها.

أذكـرُ حـيـن ذهـبـت إلـى إسـبـانـيـا لـلـدراسـة فـي جـامـعـة سـلـمـنـكـا، نصحتني أسـتـاذتـي، الـدكـتـورة عبير عبد الحافظ أن أكتب بالإسبانية، وأفـكـر بـالإسـبـانـيـة، وأسـمـع بالإسبانية. فأغلقتُ حسابي على فـيـس بـوك، وكـنـت بـالـفـعـل أكـتـب مـذكـراتـي بـالإسـبـانـيـة، وقتها بـدأت علاقتي بالشعر الإسباني للمرة الأولى وجهًا لوجه. كانت شهور الدراسة في إسبانيا، والحياة في البلد، التعامل مع اللغة فـي كـل جوانبها، فـي لغة الشعراء والكتّاب وأساتذة الجامعة، كـمـا فـي لـغـة الـطـلاب الآتـيـن من نـواحـي إسبانيا المختلفة، الذهاب إلى السينما والمسارح، والحديث مع

أطمحُ أن أجعل لترجمة الشعر مساحةً تستحقُّها، وأن أترجم ما أراه جميلاً ومُحتاجًا إليه وإن لم يكن رائجًا كالقصّة والكتب النثرية

سكان القرى، واستخدام التعبيرات الشعبية. هناك بدأت فراغاتٌ كبيرة في علاقتي باللغة بالامتلاء، وبـدأت أكتب قصائد الحبِّ بالإسبانية للفتاة التي أعجبتني في حلقات النقاش في مكتبة عامة. حينذاك بـدأت مرحلة مهـمّـة فـي الإعــداد لـلـتـرجـمـة فيما بعد، القدرة على التحرك في اللغتين في مساحات مختلفة. الـقـدرة على الأخـذ والـعـطـاء فـي كلتا اللغتين. وتجاوز علاقتي بالإسبانية المحكومة دائـمًـا بـقـامـوسـي الـصـغـيـر الــذي لـم يكن يغادرني، إلى لغة تحوطني من اتجاهات الحياة المختلفة.

عـدتُ مـن إسـبـانـيـا بـديـوانِ شعرٍ أردت تـرجـمـتـه. وفـي الأيـام الأولـى ذهـبـتُ للقاء الـدكـتـور علي المنوفي رحمه الله في جامعة الأزهر، تحدثنا عـن الـشـعـر والـتـرجـمـة والـمـشـروع الــذي كـنـت عـازمًـا عـلـيـه، وقـرأت عليه ترجمة لي لقصيدة لأنطونيو مـاتـشـادو، فاستحسنها وأخـبـرنـي أنـنـي سـأكـون ذا شـأن. بعدها بـدأت محاولاتي الأولى في ترجمة الشعر، وكـان يستعصي عليّ، خصوصًا أنني كنت وحـدي، أتـتـبـعُ آثـار الأسـاتـذة مـن مـتـرجـمـي الـشـعـر، لـكـن أغلبهم كـان قـد مـات قـبـل شـروعـي فـي هـذه الـسـبـيـل، كـالأسـتـاذ عـبـد اللطيف عـبـد الـحـلـيـم الـشـاعـر؛ والـمـتـرجـم البارع الـذي تمنيتُ كثيرًا لو لقيتُه. وعلى ذلك فكنتُ دائم المحاولة في اسـتـشـارة الأسـاتـذة، وأذكـر ذهـابـي لمجالس كان يعقدها الشاعر الكبير الحسَّاني حسن عبد الله، الذي كان زميلاً وصديقًا لأبي همّام عبد اللطيف عبد الحليم، وحديثي معه عن الشعر الإسباني والترجمة. ثم تعرّفي بإمام المترجمين؛ الجنتل، أحمد حسان،

وحديثي معه عن أول كتابٍ اتخذت قرار ترجمته وتركتُ عملي للعكوف عليه. وتواصلي الدائم مع أستاذي ماهر البطوطي. كنت أحاول أن أنفذ نصيحة أستاذي الدكتور سليمان العطار رحمه الله، قبل سنواتٍ من تتلمذي عليه في الأدب الأندلسي، حين كنت لا أزالُ طالبًا في عامي الأول بكلية الآداب، وسألته في احتفالية أقامها المركز الثقافي الإسباني في ذكرى وفاة ميجيل دي ثربانتيس مؤلف دون كيخوته، والدكتور سليمان أحد من ترجموها إلى العربية. سألته ماذا أفعل لأكون مترجمًا جيِّدًا، فأخبرني أن أترك كل كتب نظريات الترجمة جانبًا، وأن أنظر في ترجمات المترجمين المجيدين وأرى ماذا يصنعون. لم آخذ بشطر النصيحة الأول، لكنني كنت دائم التتبع للمترجمين المجيدين، فكنت أجمع ترجمات الأساتذة الراحلين، عبد الرحمن بدوي، وعبد الغفار مكاوي، وعبد اللطيف عبد الحليم، ومحمود علي مكّي، وغيرهم.

في أواخر شهور دراستي انضممت، من خلال صديقتي الشاعرة والمترجمة أسماء جمال عبد الناصر، إلى مجموعة على فيس بوك أنشأتها هي وصديقي المترجم محمد الفولي لتدريب طلاب أقسام اللغة الإسبانية على الترجمة باختلاف أنواعها. وكان مُحمد يختارُ نصوصًا مختلفة، صحفيّةً، وريـاضيّةً، وأدبيةً، ومتنوعةً، ويتركُ لنا مهلة أسبوعٍ يضعُ فيها أعضاء المجموعة ترجماتهم ثم يختارُ ترجمةً فائزة وتُمنحُ جائزةً، كانت كتبًا مترجمةً أو بالإسبانية. ظللنا شهورًا نشطين في هذه المجموعة، وكانت أسماء تجري حواراتٍ مع مترجمين وتضع لنا هذا الحوارات لنطلع على تجاربهم. استحالت المجموعة بعدها لمعمل شديد النشاط، وكانت في نظري أهم تجارب تدريس الترجمة التطبيقية وأكثرها إفادةً في كل ما عرض لي في أثناء سنوات الدراسة وما بعدها. وأظن أن ثمار هذه المجموعة ستظهر قريبًا.

أذكرُ أيضًا مثالاً آخر، مترجم جاد وشديد الاجتهاد انضممت لورشته عن البدء في مجال الترجمة، مترجم الإنجليزية محمد سعيد كمال، ومدير أكاديمية في الترجمة والتعريب أنشأها بعدما ترك عمله في واحدة من أكبر شركات الترجمة في الوطن العربي، وكان قبلها ترك عمله معيدًا بكلية الآداب بجامعة حلوان. بالنسبة لي هذه الجهود الفردية في إيجاد بيئات ومساحات لطلبة اللغات المهتمين بمجال الترجمة هي جهود شديدة القيمة، خصوصًا في غياب مقابل ذلك في الأوساط الأكاديمية التي غالبًا ما ينغمس أساتذتها في الأكاديمية ويكونون من غير ممارسي الترجمة فلا تكون مواد الترجمة كما ذكرت سابقًا سوى تمارين لغوية.

بعد التخرج عملتُ مترجمًا شفهيًّا بمصنعٍ للمشروبات الغازية، ثم بمسابقة لملكات الجمال، ثم تدربتُ في مناسبتين مختلفتين بوكالة الأنباء الإسبانية بمكتبها بالقاهرة، وكنتُ في كل ذلك أسرع بالسعي في كل فرصة تلوح في مجال الترجمة لشُحِّ الفرص في مصر، وسوء أسعار مكاتب الترجمة وبعدها عن اهتماي. لكن النقطة الفاصلة بالنسبة لي كانت لقاءً جمعني بصديقي وجاري المترجم محمد الفولي. في ذلك اللقاء حدثني محمد عن عملية الترجمة وأسماء دور النشر وخطوات الشروع في ترجمة كتاب والبحث عن وكيل الكاتب والتواصل بشأن حقوق الترجمة. وفي الحقيقة أنا مدين لمحمد بسهولة بدئي العمل في المجال، إذ قدَّمني إلى الناشر الذي نشر معه كتبه الأولى، وتولَّت الدار التواصل بشأن حقوق الترجمة ثم شرعتُ أنا في ترجمته، كان كتابًا عن الشعر عرفتُه في أثناء إقامتي في إسبانيا من ترشيح صديقٍ شاعر إسباني، وآمَل أن يصدر العام القادم بعد تعطل حركة النشر بسبب الجائحة العالمية.

بعد ذلك سافرتُ إلى كولومبيا بهدف التعرف على أدب أمريكا الجنوبية عن قرب، وتبعًا لرأي تبنّيتُه منذ سنوات،

وتأكدت منه حين سافرتُ للدراسة في إسبانيا، أن الإقامة والحياة في الثقافة والبلد التي يُترجم أدبها المترجم هو أمر فاصل في مشروع الترجمة الممتد عبر حياة المترجم. بالطبع هناك الكثير من الأمثلة لمترجمين لم يزوروا أي بلد من بلدان اللغة التي يترجمون عنها، وهم مترجمون بارعون، لكن لكل شيخ طريقة كما يقولون، وأنا طريقتي الحياة. أنا أحب الحياة وما ينبع عنها مباشرةً. أحب أن أعرف -إلى جانب خريطة الأدب التي تُدرس في الجامعات والمدارس- القصائد التي يعرفها عامّة الناس ويحفظون أبياتها. والروايات التي أثرت في وجدان عموم أهل تلك الثقافة. أحب أن أكون في زيارةٍ لقريةٍ نائية في منطقة الكاريبي أحضر مهرجانًا للصناعات اليدوية فأتسلّل إلى غرفةٍ مغلقةٍ مليئة بالكتب، وأجول بين العناوين آنس بما أعرف منها، وأبحث عما لا أعرف، فيشدُّني عنوان كتابٍ، وأبدأ في قراءته ثم لا أستطيعُ إفلاته من بين يديّ، وأستمر في قراءته يومين متتاليين، وأراسل كاتبته مباشرةً بعد انتهائي منه برغبتي في ترجمته. أحب أن أقابل على رفّ مكتبةٍ في قرية سياحيةً ديوانًا لشاعرٍ شابٍّ لم أسمع به من قبل، تجعلني قراءة بعض قصائده أرمي بالكتاب وأخرج مهرولاً من البيت يدقّ قلبي من قوّة أبيات القصيدة، فأترجم ديوانه بعد ذلك، وأتعرف عن طريقه على ناشرٍ، يعرّفني على كاتبٍ، يهديني ديوانًا له ومجموعة قصص، تظل معي شهورًا، ثم أبدأ في قراءتها في شهور الحجر، وأترجم منها، فتظلّ تؤنس قراءً في بلدانٍ بعيدة لا أنا ولا هو نعرفهم.

بالنسبة لي هذه شطر مهمة المترجم، التنقيب، والنقد، والاختيار، والبحث. وبالعودة للحديث عن عالم دور النشر، هو بالتأكيد عالم صعب، خصوصًا في عالمنا العربي، لأسبابٍ عديدة.

إضافةً إلى ذلك، كنتُ أجهز ترجماتٍ وأراسل بها مجلات عربية مختلفة، ودور نشر أرى أنها قد تهتم بما أقترحه من أعمال. وأرى أن العمل في الترجمة خصوصًا في البداية يتطلب مثابرةً واستمرارًا، فبعد فترةٍ بدأت أعلم بثناء مترجمين وكتاب لم أعرفهم على ترجماتٍ لي، في حين كنت أظن أنهم لم يسمعوا بها، وذلك مما يسعدني كثيرًا حين يصلني. وما يشجعني أيضًا على الاستمرار رغم الصعوبات العديدة، وأولها أمر الاعتماد المادي على الترجمة، وخصوصًا الترجمة الأدبية؛ لعدم استقرارِ سوقها، فما حدث في الشهور الأخيرة وجهل الكثير من دور النشر تتوقف أثر بشكل كبير على الكثير من المترجمين. وكثير من المترجمين -وأنا منهم- يودون التفرغ للترجمة الأدبية، أو جعلها أحد أنشطتهم العملية الرئيسية، لكن عدم الاستقرار، وتأخر الكثير من الناشرين في دفع مستحقات الترجمة، يجعلهم يحجمون أو يفكرون كثيرًا قبل اتخاذ مثل هذا القرار.

وأخيرًا أطمحُ أن أجعل لترجمة الشعر مساحةً تستحقُّها، وأن أترجم ما أراه جميلاً ومُحتاجًا إليه وإن لم يكن رائجًا كالقصّة والكتب النثرية. كذلك أتمنى أن أشارك في تنشيط حراكِ الترجمة الأدبية بتعزيز الجهود الفردية التي يضطلع بها مترجمون رائعون.

الجهود الفردية في إيجاد بيئات ومساحات لطلبة اللغات المهتمين بمجال الترجمة هي جهود شديدة القيمة، خصوصًا في غياب مقابل ذلك في الأوساط الأكاديمية

4

الفوضى الإدارية وازدهار الفساد الثقافي والسياسي

أشرف الصباغ

لا أستطيع أن أتحدث عن تجربتي الشخصية في مجال الترجمة دون الحديث عن الفوضى المنهجية والإدارية، والفساد الثقافي والسياسي. وهذا عنوان ضخم يتضمن في داخله مشكلات المؤسسات الخاصة والعامة (التابعة للدولة)، وغياب المنهج والضمير المهني، وعشوائية العقل نفسه.

عادة ما تدور الندوات والمؤتمرات والأحاديث عن الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى، حول المشكلات التقليدية مثل اختيار النصوص والموضوعات، ولجان الاختيار ومعاييرها، ودور النشر الخاصة والمؤسسات الحكومية التي تدفع بمنتجاتها للترجمة. هناك أيضًا المنتديات والمؤتمرات الأكثر عمقًا وجدية؛ التي تتناول الترجمة كعملية ثقافية كاملة قابلة للنقل والحوار والنقد، ومن ثَم تظهر الترجمة كإحدى أذرع القوة الناعمة لهذه الدولة أو تلك، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الترجمة أيضًا هي المادة الأساسية لعلوم الاستعراب والاستشراق والأنثروبولوجي. وهي العلوم غير البريئة تمامًا، وربما إطلاقًا، من شبهات الاستعمار والسيطرة وفرض النفوذ والشروط. الانتقادات كثيرة، وكلها تدور حول النوايا الطيبة والطموحات والحرص على تقديم المنتج الجيد الذي يعكس ثقافة المجتمعات العربية وأحوالها الفكرية وحراكها الاجتماعي والتاريخي. وهنا تبدو كل الخلافات محض تفاصيل جديرة بالاهتمام، سواء من جانب المترجمين أو من جانب دور النشر أو من جانب المؤسسات الحكومية، ومن جانب المبدعين أنفسهم. وبالذات هؤلاء

حركة الترجمة من الروسية إلى العربية والعكس فقيرة جدًا وضحلة للغاية حال مقارنتها بالترجمة من الإنجليزية والفرنسية، والأسباب كثيرة منها السياسي ومنها التاريخي

المبدعين الذين يعتبرون أن الترجمة صك الاعتراف، وشهادة نقلهم إلى مستوى العالمية والاعتراف الدولي والشهرة العظيمة.

الترجمة أيضًا، عملية صناعة كاملة الأركان، ومن ثَم، فهي عملية تجارية بمعناها الاقتصادي الواسع بكل ما يحمل من مسارات وعمليًّات أساسية وهامشية وأرباح. وهي بهذا المفهوم تدخل ضمن إطار المشروعات الوطنية والقومية التي تستفيد منها الدولة ومؤسساتها و«أجهزتها»، والتي يستفيد منها المجتمع في حراكه الاجتماعي - التاريخي - الثقافي - الفكري. هذه النقطة تخص الجانب الذي يقوم بالترجمة بالقدر نفسه الذي يخص الجانب الذي يُتَرجم منه. ولا يمكن هنا بأي حال من الأحوال أن نتجاهل أنها خاضعة لموازين القوى السياسية والاقتصادية والنفوذ.

الندوات والمؤتمرات والأحاديث تدور دومًا عن الكثير مما ذُكِر أعلاه، ولكنها دومًا تتجاهل أو تنسى، وربما لا تهتم بعمليًّات متابعة النصوص والموضوعات والكتب التي تتم ترجمتها من العربية. أي تتوقف عملية الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى عند صدور الكتاب بهذه اللغة أو تلك، وتبدأ عملية أخرى في غاية الفظاظة والتضليل. تلك العملية الإعلامية الفجة التي تدور حول عظمة ثقافتنا، وعظمة مبدعينا ومفكرينا وكُتَّابنا، وعالمية هذا الكاتب أو ذاك، بينما النصوص والكتب التي تُرْجِمَت «مركونة» على أرفف بعض معاهد وكليات تعليم اللغة العربية.

تمثِّل عملية تتبع المنتج والترويج له

وفق المعايير المحترمة والمتعارف عليها أحد أهم الأهداف من عملية الترجمة، وقد تكون الحلقة الأهم فيها. وأعتقد أننا جميعًا نلاحظ الجهود التي تبذلها المراكز الثقافية والتعليمية، وربما المؤسسات الدبلوماسية، الأجنبية في مصر والعديد من الدول العربية لإقامة الندوات ودعوة المبدعين والكتاب الأجانب للمشاركة في ندوات ونقاشات تتعلق بكتبهم المترجمة إلى اللغة العربية. والمهم هنا، أنه يتم اجتذاب المثقفين والنقاد والمبدعين والكتاب المصريين والعرب لإدارة هذه الندوات والمشاركة فيها والتفاعل معها.

إن حركة الترجمة من الروسية إلى العربية والعكس، على سبيل المثال، فقيرة جدًا وضحلة للغاية حال مقارنتها بالترجمة من الإنجليزية والفرنسية والعكس. هناك أسباب كثيرة لذلك، منها السياسي ومنها التاريخي. فالارتباط بين الثقافتين العربية والغربية أكثر قوة ومتانة، تدعمه السياسات الثقافية والتعليمية، والتوجهات السياسية، ومجموعات المصالح الاقتصادية والسياسية والثقافية. وفي الحقيقة، فالروس أنفسهم ليس لديهم وقت لموضوع الترجمة تجاه العالم العربي إلا في أحوال نادرة مرتبطة بالتقاربات السياسية أو حفلات الاستقبال والمناسبات السياسية والدبلوماسية. هم يركزون على الترجمة تجاه الغرب، وعلى بيع السلاح تجاه الشرق. كما نعرف جميعًا أن روسيا من إمبراطوريات الأطراف؛ أي أنها فاعلة بدرجات مختلفة في محيطها التاريخي، بينما أوروبا والولايات المتحدة أوسع انتشارًا وأكثر تأثيرًا، بحكم عوامل كثيرة. لذلك فمشكلات الترجمة من الروسية، هي مشكلات تخص روسيا بالدرجة الأولى، وتتعلق بتوجهات نخبها السياسية، وبحركة نخبها الثقافية، وببرامجها وتعاونها مع الدول الأخرى، وبأولوياتها مع أصحاب هذه الثقافة أو تلك. كما أن الأمر يتوقف أيضًا على ما تنتجه الثقافة الروسية، وهل هو مهم أو ملائم أو يمتلك خصوصية أو قيمة ما؟!

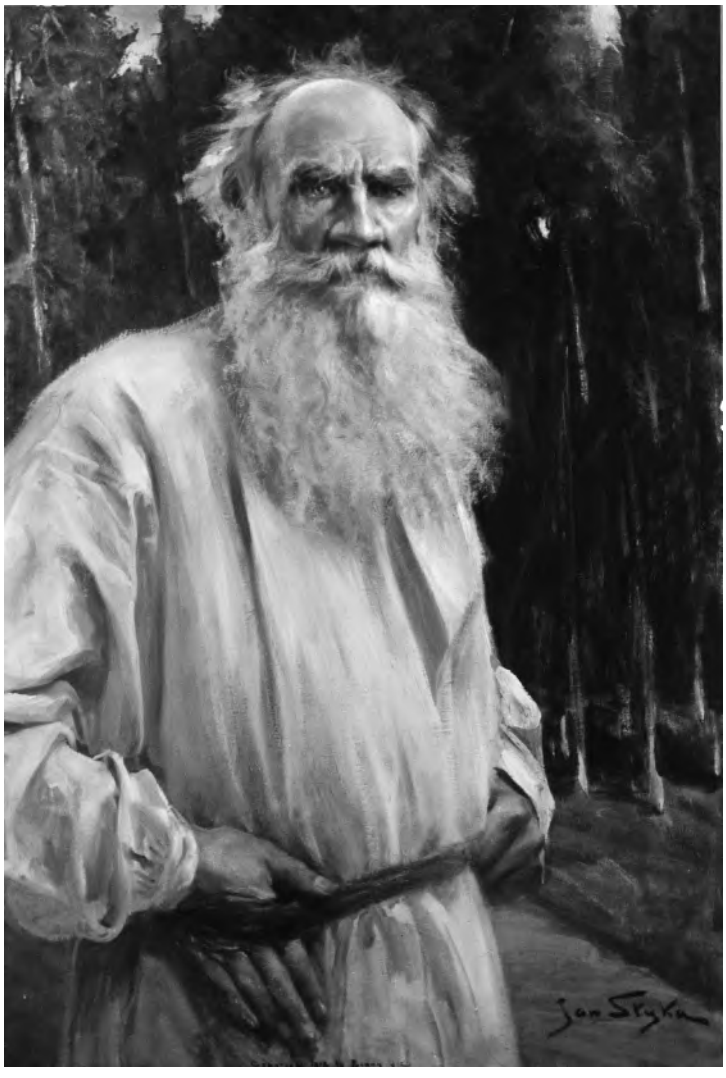

ماذا حدث في عام 2016 ؟!

فوجئت أمامي بنحو 15 كتابًا بعضها يتراوح بين 150 و300 صفحة، والبعض الآخر يصل عدد صفحاته إلى 800 - 900 صفحة. أغلفتها ذات ورق فاخر، ولكنها مصممة بشكل قبيح للغاية يسيء إلى الذوق الشخصي قبل الذوق العام. ورق الطباعة فاخر أيضًا، ولكن الطباعة من الداخل سيئة بشكل مثير للقرف والتقزز.

تصفحتها جميعًا باهتمام بالغ، إلى درجة أنني قرأت عدة صفحات من كل كتاب. وكانت المفاجأة أن هذه الكتب عبارة عن ترجمات عربية لروايات باللغة الروسية. حاولت تذكُّر أسماء الكتاب الروس الذين كتبوا هذه الروايات. حاولت قدر الإمكان أن أكون موضوعيًا. بمعنى أنه على الأقل يمكنني أن أتذكر اسمًا أو اسمين من الـ 15 اسمًا الموجودة أمامي على هذه الكتب الضخمة. لكنني فشلت. فانتقلت إلى أسماء المترجمين، وبطبيعة الحال، ومهما كنت متخصصًا، فمن الصعب أن تعرف جميع المترجمين في هذا المجال أو ذاك. ولكن على الأقل يمكن أن تتذكر اسمًا أو اثنين، أو تتصل بصديق ليساعدك. ومع كل ذلك، فشلتُ تمامًا في معرفة أي من مترجمي هذه الروايات والكتب. ولم يعد أمامي إلا الاطلاع على المعلومات الخاصة بدار النشر والتواريخ ومكان الطباعة. وكانت الكارثة الأكبر أن هذه الكتب تطبع في «حدائق القبة» بالعاصمة المصرية القاهرة، بل ووضع صاحب الدار رقم هاتفه والعنوان، وتفاصيل أخرى. وفوجئت كذلك بأن هناك مؤسسة اسمها «يولا للتبادل الثقافي» تقوم أيضًا بالترجمة والطباعة والنشر، ولديها رقم هاتف، بينما لا يوجد لها مقر محدد! المهم، عدتُ مرة أخرى إلى تصفُّح هذه الكتب باهتمام، وفوجئت بوجود عدة أخطاء ليس في كل صفحة، بل في كل سطر. أخطاء نحوية وإملائية ولغوية. وعليه لا يمكن الحديث عن أسلوب أو شكل أو حتى مضمون للكلام المرصوص على تلك الأوراق الفاخرة.

من الواضح، وهذا ما اكتشفناه فيما بعد، أن هذا «الإنتاج الجبار» يدخل ضمن مشروع ثقافي، أو مشروعات ثقافية ما، لأنه من الصعب أن نتصور أن يقدم شخص بمحض إرادته وبمبادرة خاصة وشخصية على تدمير ثقافتين في وقت

واحد وبأمواله الخاصة، حتى إذا كان قد ربحها من تجارة المخدرات أو الدعارة أو لعب القمار. ومن الأصعب أن نتصور وجود متطوِّع يعمل بالمجان مع فريق من المتطوعين لتوجيه ضربة قاضية للأدب الروسي من جهة، والتأكيد على أن القارئ المصري أو العربي قد وصل إلى أحط مستويات الجهل من جهة أخرى.

ربما يكون هناك مشروع ثقافي كبير رصد مبالغ ضخمة لترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية. ولكن عادة ما يكون هناك اختيار لا للأسماء بقدر اختيار المادة المستهدفة بالترجمة. هذا ينطبق أيضًا على المترجمين والمصححين والمراجعين من حيث القدرة والمهنية. ولكن يبدو أن الأمر أسهل بكثير مما نتصور.

المسألة الآن لم تعد محصورة في إطار اللصوصية الثقافية بالسطو على حقوق المؤلف والناشر الأصلي.

وأعتقد أننا نواجه كل هذه المشكلات والأزمات في معارض الكتب، وبالذات في معرض القاهرة الدولي للكتاب الذي يعتبر من أكبر الأسواق السرية للكتب «المضروبة»، وكذلك بعض «دكاكين» وأكشاك الأزبكية. وهناك الكثير من المثقفين والصحفيين والإعلاميين برر «ضرب» الكتب، باعتباره شكلاً من أشكال مواجهة غلاء الأسعار واستغلال دور النشر وجشع أصحابها، وعدم قدرة القارئ على شراء الكتب مرتفعة الثمن. غير أن هذا لا يبرر ذاك أبدًا، وإن كان الكثيرون يتناولون الأمر من قبيل المزاح أو التحدي الساخر.

لكن كارثة دار النشر الموجودة في «حدائق القبة»، والتي تطبع ترجمات عربية لروايات روسية، تحيلنا إلى مستوى نوعي آخر؛ إذ أن أي قارئ، مهما كان مستواه، سوف يكتشف الكارثة من أول صفحة. وبمجرد أن ينتهي من قراءة عدة صفحات، سيلقي بالكتاب في أقرب «صفيحة زبالة»، وسيعلن على الفور أنه لا وجود لشئ اسمه الأدب أو الثقافة في روسيا. سيتأكد حتمًا بأن الأدب الروسي توقف عند ما نسمع عنهم من كُتَّاب في القرن التاسع عشر. ومن جهة ثانية، سيدرك أي قارئ أو مهتم بالأدب الروسي أن ساحة الطباعة والنشر والترجمة في مصر تحولت رسميًا إلى أحد أهم أسواق «الممنوعات».

ماذا يحدث بالضبط؟!

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أو حتى قبل الانهيار ببضع سنوات، توقفت حركة الترجمة من الروسية إلى العربية والعكس. وفي الحقيقة، فقد كانت حركة الترجمة تتم في اتجاه واحد (من الروسية إلى العربية) بفضل الاتحاد السوفيتي ومؤسساته. ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نتجاهل ترجمة بعض أعمال نجيب

نجح بعض الأشخاص والشِلل والمجموعات في صناعة مترجمين ومستفيدين يشبهونهم، بل ونجحوا في تربية «قطيع ثقافي» يترجم من الروسية وهو لا يعرف منها إلا حروفها الأبجدية وكيف تُنطَق الأسماء

محفوظ وتوفيق الحكيم وأعمال قليلة لكتاب آخرين. ولكن «الميزان» كان يميل لصالح الأعمال المترجمة من اللغة الروسية. وبانهيار الاتحاد السوفيتي، بدأت تظهر جهود فردية لمترجمين من مصر وسوريا والعراق، حيث تعاونوا بأشكال ودرجات مختلفة مع مؤسسات حكومية أو دور نشر خاصة لطباعة ترجماتهم من الروسية إلى العربية. بينما توقفت تمامًا حركة الترجمة والنشر من العربية إلى الروسية.

خلال السنوات من 1991 إلى 2005 نجح الكثير من دور النشر الخاصة في إعادة طبع مجموعات ضخمة من الأعمال المترجمة لكبار الكتاب الروس والسوفيت. ولا أحد يعرف إلى الآن كيف تم ذلك، لأن دور النشر السوفيتية التي طبعتها تلاشت بمجرد انهيار الاتحاد السوفيتي، أو تحولت إلى مؤسسات شكلية تمهيدًا لتحويلها فيما بعد إلى مؤسسات وأسواق أخرى. ويبدو أن الملكية الفكرية قد آلت إلى المترجمين أنفسهم، أو إلى «سماسرة» و«مجموعات مصالح» و«شلل». هذا إضافة إلى دخول بعض دور النشر المعروفة على الخط لتظهر لديها طبعات من تلك الكتب بأشكال وأغلفة مختلفة، وربما بأسماء غير معروفة. من الصعب أن نواصل الحكي، لأنه قد يستغرق وقتًا طويلاً، ومساحة أكبر. ففي نهاية المطاف، بدأت جهود جيل المترجمين المصريين والعرب الكبار الذين ترجموا من الروسية إلى العربية مباشرة تتوقف لأسباب كثيرة. وظلت الجهود الفردية وفقًا لمبدأ الدفع الذاتي، على الأقل للحفاظ ولو حتى على خيط رفيع من هذا الرصيد الثقافي الذي كاد يتلاشى بالفعل.

من الطبيعي أنه عندما تضعف الدول، تنهار الأفكار الكبرى والمشاريع الوطنية. والعكس صحيح أيضًا. ومن البديهي أنه عندما تتضخم الثروات الشخصية والعائلية في ظل فقر الدولة وتداعي اقتصادها، ينبغي أن ندرك أن الفساد قد تجاوز الخطوط الحمراء وبدأ ينهش في المفاصل الأساسية للمجتمع نفسه.

هنا تظهر جملة من الظواهر الإجرامية:

- الشللية (الشلل التي تقسِّم الساحة الثقافية إلى مناطق نفوذ).
- زيادة نفوذ مجموعات المصالح التي تدار من الباطن (باطن مؤسسات الدولة).
- وجود أشخاص أو مجموعات تلعب دور «السمسار» أو «ضابط الاتصال» بين مؤسسات الدولة وبين مؤسسات خاصة ما تعمل في مجالات عديدة، ومن ضمنها الثقافة.
- قدرة هؤلاء الأشخاص والمجموعات، بفضل مواقعهم الرسمية أو إمكانياتهم المادية أو علاقاتهم مع مؤسسات وأشخاص ومسؤولين، على تقطيع النهايات لكي تبقى جميع الخيوط في أيديهم هم فقط.
- حفاظ هؤلاء الأشخاص والمجموعات على علاقاتهم بمؤسسات الدولة (إما لأنهم من العاملين فيها، أو كانوا يعملون فيها) باعتبارهم الأكثر معرفة بكل الخبايا، والأكثر قدرة على تحقيق المصالح المشتركة والمشروعات الوطنية الكبرى. ومن جهة أخرى، نسج العلاقات مع أشخاص ومجموعات ومؤسسات خاصة لدمج مصالح الطرفين تحت عناوين براقة تكاد تصل إلى «المشاريع الاستراتيجية الخلاقة» و«وضع أقدام الدولة على مشاريع القرن الثالث والعشرين» و«تدشين البنية التحتية لأكبر وأعظم مشروعات القرن.

الأمور لا تبقى على حالها. ووفقًا لمجموعة العناصر والظواهر المذكورة أعلاه، ظهر الكثير من المشروعات التي عمل بعضها لفترة ثم توقف، أو فشل البعض الآخر بعد إصدار عمل أو اثنين. وظلت المحاولات الفردية مستمرة للحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه، أملاً في أن تبدأ العجلة العمل من جديد. ولكن يبدو أن الشلل ومجموعات المصالح، والأشخاص الذين يمثلون مراكز قوى جبارة لا يكلون ولا يملون. فتارة تراهم يمنحون أنفسهم جوائز ثقافية وشهادات تقدير، وتارة أخرى تكتشف أنهم أسهموا في تطوير الثقافتين العربية والروسية حتى أوصلوهما إلى المريخ، وتارة ثالثة تكتشف أنهم هم أنفسهم قد أصبحوا مترجمين وأصحاب مشاريع ثقافية جبارة تستحق أرفع الجوائز والأنواط.

لقد نجح هؤلاء الأشخاص والشلل والمجموعات في صناعة مترجمين ومستفيدين يشبهونهم. بل ونجحوا في تربية «قطيع ثقافي» يترجم من الروسية وهو لا يعرف منها إلا حروفها الأبجدية وكيف تُنطَق الأسماء. ولكن الكارثة الحقيقية تظهر عندما ترى أن تلك الأسماء قد نُقِلَت من الإنجليزية أو الفرنسية، فـ «تشيخوف» الروسي تجده «تشيكوف» العربي، و«تولستوي» الروسي هو نفسه «تالستوي» المصري.. أما «ليف تولستوي»، فنجده قد تُرجِم إلى العربية وأصبح تارة «ليون تولستوي»، وتارة أخرى «ليون تالستوي»..

والمسألة هنا ليست مجرد أخطاء في الكتابة أو أخطاء نحوية وإملائية. كل منا قد يتعرض لارتكاب أي خطأ في النحو أو الإملاء أو الاثنين معا. لكننا نتحدث عن الأخطاء المنهجية، وعن الأخطاء المتعلقة بالأسس والقواعد والتوجهات الثقافية، وعلاقتها بصناعة النشر. إننا نتحدث عن «الكذبة الكبرى» عندما تتفق شلل ومجموعات مع مؤسسات حكومية وخاصة على «خلق» أو «صناعة» ثقافات جديدة بمثقفين ومترجمين ومفكرين جدد، وهو ما يذكِّرنا بصناعة نجوم السينما ونجوم الإعلام، وفي نهاية المطاف نكتشف أننا لا نملك لا نجومًا ولا سينما ولا إعلامًا.

لن نظلم الجانب المصري كثيرًا، فالجانب الروسي ليس الأفضل. يبدو أن هناك مصالح مشتركة بين هذه الشلل والمجموعات والأشخاص من الجانبين. هناك شبكة علاقات ومصالح لا يمكن أن نلمحها من أول نظرة أو في مراحلها الأولى عندما تنطلق تحت مسميات «استراتيجية خلاقة».

5

الترجمة: الصعوبات والتحديات والطموحات

إسلام سعد

لا تكمن أزمة البداية في أي عمل في ما يُشار إليه بالتَّعَثُّر؛ لأن الأخيرَ يتجسد في محطاتٍ يمر بها الإنسان على طريقه، ولا يقع أبدًا على مبتدأ الطريق. أزمة البداية مرتبطة بكون البداية - حسنًا - بداية! تنهمر على رأسك، بعد انقضاء فورة الحماس الذي يحفزك على التَّحَرُّك وإنجاز «شيء ما»، الأسئلة مثل: «بمَ أبدأ»، و«ما الخطوات العملية؟»، و«بِمَن أثق ليكون ناصحًا خبيرًا؟»، و«ما مقاييس تطوري في ذلك العمل؟».

بالنسبة إليَّ، وأنا خريج كلية الهندسة، قسم الهندسة الكيميائية (2010)، لم أمتلك أيَّة عدة، بأي معنى ووفق أيَّة درجة، لأطارد ما أسعى وراءه؛ لم أمتلك سوى «رغبة» لا أعرف كيفية إشباعها سوى بالقراءات الشخصية، ومحاولة عرض هذه الأفكار على أصدقائي وأقاربي. اكتشفت أن «الصوت» في نقل المعلومة قد يهتزُّ إن لم يكن ممسكًا بالفكرة إمساكًا متينًا، وحالتك المزاجية تؤدي دورًا مركزيًا في خَطَابتك، كما أنك لا تمتلك الكثير من «الإرادة الحرة» حين تتحدث لغيرك بأفكارٍ في رأسك؛ فربما تتحدث في فلسفة الدين وتفكر في كلِّ ينبغي عليك إنجازه خلال يومين قبل موعد تسليمٍ ما، وتتذكر إخفاقك في أمرٍ كان له تغيير حياتك جذريًا لو كُلِّلَت مساعيك فيه بالنجاح. فإن كان الحالُ كذلك - ولم أتحدث سوى عن فكرتين يتقاسمان ما تريد التحدث عنه داخل دماغك! - فكيف تنقل فكرة «الصلاة» و«التقوى» عند شلايرماخر - مثلًا - بوضوحٍ إلى المخاطَبين؟ كيف يمكنك الحديث عن «الأصلي دون خلطه بـ «الابتدائي» في دراسة أيَّة ظاهرة؟ كيف يمكنك - كما يقول هوسرل - «الذهاب إلى الأشياء نفسها» دون الإغراق في التنظير الذي يصيب المستمعين بملٍ قد يدوم حضوره لما بعد حديثك بأيامٍ؟! هل يمكن للخَطابَة أن تتمتع بإمكانية تشبيها بالرصاصة التي تصيب هدفها مباشرة؟ هل يمكن حدوث ذلك في كلِّ مرة تمارسها؟ يبدو ذلك الأمر مستحيلًا. ومن ثَم، لدينا ذاتٌ، وهدفٌ، دون طريق ولا منهج ولا مُعين.

الترجمة فن ويمكن للمترجم التصرُّف في النَّص الأصلي ليتناسب مع اللغة المنقول إليها. ولذلك موهبة المترجم أمر ضروري، مع تمتعه بقدرات لغوية عالية

بعد تخرُّجي بثلاث سنوات، استطعت تكوين علاقات مع عددٍ قليل من الأصدقاء والأساتذة الذين يتمتعون بخبرة في القضايا التي أهتم بها. كان الأستاذ الراحل علي مبروك في مقدمتهم. بعد أن أفسح لي المجال للتواصل معه، سعيتُ لتكوين عدة أوَّليَّة من المفاهيم والأفكار عن طريقه. بالتالي، في كلِّ حديثٍ بيننا، ثَمَّ قلمٌ وثَمَّة أوراق، وأذنان مصغيتان لحديثه عن الأيديولوجيا والأنثروبولوجيا

الكثير من الأعمال الكلاسيكية في تاريخ الفكر الإنساني لم تَنَل حظها من الترجمة للغة العربية وأحلم بترجمتها للسان العربي

والأنطولوجيا والحداثة وما-بعد الحداثة ... إلخ، ويعقب الإصغاءَ تدوينٌ لكلِّ ما يقوله، ثم قراءة هذه الأفكار والمفاهيم والمناهج - في أكثر تجلياتها عمومية - يوميًا، مع قراءة كلِّ ما يوصيني به أو أغلبه.

بدأنا العمل معًا على ترجمة مقالاته المنشورة في صحيفة «الأهرام» المصرية، بمعدل مقالين في الشهر، ثم الانشغال بإنتاج تلخيصات لأهم كتبه، ربما في 15 أو 20 صفحة أو أزيد قليلًا، وقراءة أبحاثه عن الإمامين الشافعي والأشعري، قبل الشروع في ترجمة كلِّ هذه الأفكار للغة الإنجليزية. من ثَم، ظننت أنني أراكم خبرة في عكس الاتجاه؛ فما أريده هو نقل أفكار جديدة للغتي وثقافتي، لا العكس.

كان مطلوبًا مني إنتاج تلخيص لكلِّ مقال باللغة العربية، ثم يقرأه الأستاذ، ويضع تعليقاته ثم نصل لنسخة نهائية يرتضيها، وأشرع في ترجمتها. خرجت ترجمتي الأولى لتلخيص يقع في صفحة واحدة، وعلى قدر معرفتي بالفلسفة في سنوات دراستي بالكلية، وعلى قدر قراءاتي التي كانت النسبة الأكبر منها باللغة العربية لمفكري الشرق الأوسط وترجمات مفكرين من خارج الشرق الأوسط، كانت هذه الترجمة كارثية في مستواها؛ فقد ترجمتُ - على سبيل المثال - جملة مثل «القرآن قديم» إلى The Qur'an is ancient، ولم أفهم القديم بمعنى «الأزلي» eternal. وكنت أختار لترجمة المصطلحات في كلِّ مرة أولَّ اختيار في ترشيح مواقع الترجمة إليَّ (لكنني أدركت منذ البدء أن استخدام Google Translate خطيئة من خطايا المترجم). أخبرني الأستاذ أن هذه الترجمة لا يمكن نشرها بأيَّة حالٍ من الأحوال، وبسبب عزوفه عن الإسهاب، ظننت أنه سيخبرني في اليوم التالي - بلطفه وهدوئه المعتادين - أن التعاونَ بيننا قد وصل إلى نهايته تزامنًا مع بدايته!

في اليوم التالي، أتى اتصاله مبكرًا، وكنت قد هيأت نفسي للردِّ بلطف على قراره الذي توقعته، مع حرصي على إخباره بضرورة بقاء التواصل بيننا. لكنه طلب مني إحضار ورقة وقلم ليخبرني بما يلي: «حين أستخدم مفردة «إجرائي» أقصد procedural، وحين أستخدم مفردة «تأسيسي» أقصد foundational، وحين أقول (كذا) أقصد (...)، إلخ». كنت أكتب كلَّ ما يقوله متلهفًا، ساعيًا وراء عدم إضاعة أصغر ملاحظة أو كلمة يقولها لي. ثم اختتم كلامه قائلًا: «في المقال القادم، أنتظر عملك الأدق».

بعد مرور ثلاثة شهور، أخبرته أنني لا أريد إنجاز تلخيصات، وأنه من الأجدى لي وللمادة التي أريد ترجمتها العمل على المقال بالكامل، وقد وافقني فورًا. وبمرور الوقت، ربما بعد سنة من التَّدَرُّب وإصلاح الأخطاء، وجدته يتصل بي ذات مرة قائلًا: «الآن، لا حاجة لك في إرسال عملك لي، وإنما ترسله فورًا للأساتذة الاختصاصيين في الدراسات الإسلامية، ولفريق عمل الموقع بالإنجليزية مباشرة». كان حديثه حينها، بعد سنةٍ من العمل والسعي، خيرَ تعويضٍ عن كلِّ ما مررت به خلال تلك الفترة.

من ثم، الآن، لدينا ذاتٌ وهدف ومُعين وطرق في التعامل مع الترجمة من لغتي الأم للغة الإنجليزية وإمساك بمقاصد المؤلف في نصوصه عبر التواصل المباشر معه، لكن، ليس ثَمَّ منهجٌ.

لاحت لي الفرصة الثانية حين رُشِّحت لترجمة نصوص الراحل نصر حامد أبو زيد من اللغة الإنجليزية للغة العربية. ترجمتُ له ثلاثة أبحاث، نُشِرَ منها بحثان وظلَّ الثالث حبيسَ أدراج المكتب حتى هذه اللحظة. حرصتُ في هذه

الترجمات على استخدام ألفاظ نصر أبو زيد نفسه حين أنقل أفكاره للغته؛ فترجمت - مثلًا - كلمة empirical بـ «الإمبريقي» كما كان يكتبها في أبحاثه، ولم أترجمها بـ «التجريبي»، وهكذا كان الحال مع بقية مصطلحاته.

أتتني التعليقات على الترجمة من أصدقائي وأناسٍ لا أعرفهم على نحوٍ إيجابي للغاية. فقال أحدهم: «هذه ليست ترجمة، إذ يبدو أن نصر أبو زيد قد كتب هذه الأفكار باللغة العربية في الأساس». وكان حديثهم عن اختفائي بوصفي المترجم خيرَ إثبات لحضوري.

تعلَّمت كذلك «أخلاقيات» الترجمة بأثرٍ رجعي؛ فبعد أن هدأت فورة الحماس، حماس البدايات في النقد، صرتُ مالكًا لهدوء أكبر حين أوجه نقدًا لأيَّة ترجمة طالعتها؛ فلم أعد ناقدًا للفوارق اللفظية في الاختيارات، أقصد أن الاختلاف في المترادفات لم يعد يشغلني كما كان. وإنما صار مدار انشغالي مرتبطًا بنقد تقنيات الحذف الإيديولوجية وتشويه النصوص ونقد ما يمكن تسميته بإعادة صياغة إيديولوجية لها بدلًا من ترجمتها بأمانة فائقة، وعلى قدر المستطاع، أو تقويم ما تُرجِمَ بعكس المعنى، وما شابه ذلك من أمثلة، ولم أفعل ذلك إلا في سياق الكتب المترجمة التي أضطر لقراءتها في سياق اختصاصي.

في نهايات عام 2016، كنت قد قررت مع صديقي علي رضا ترجمة كتاب «تنويعات التجربة الدينية» للفيلسوف الأمريكي ويليام جيمس، وهو كتاب منشور في عام 1902، وصدرت ترجمته الفرنسية عام 1906، لكن حتى نهايات عام 2016، لم تصدر له ترجمة واحدة باللغة العربية. خطننا سويًا للعمل وفق جدولٍ مُحَدَّد كالتالي: عام ونصف من القراءة لويليام جيمس وعنه، ثم عام من الترجمة، ثم نصف عام من المراجعة. حين أخبرنا ثُلَّةً من أصدقائنا بهذه الخطة، تحمَّس البعض، وحذرنا البعض الآخر من الاستغراق في ترجمة كتاب واحد لفترة من الزمان تتسع لترجمة ثلاثة كتب!

كان حرصنا - علي وأنا - على ترجمة هذا الكتاب نابعًا من كونه كتابًا تأسيسيًا في حقلي فلسفة الدين وعلم نفس الدين. وتَعَجَّبنا من عدم ترجمة أحد لهذا الكتاب رغم امتلاء الأسواق بأعماله الأخرى، وبالأخص كتابه «البراغماتية» الذي صدرت له عدة طبعات من دور نشر مختلفة. وجدنا أن لغةَ الكتاب، على العكس تمامًا مما يقال على نحوٍ شائع، صعبةٌ، وهي لغة إنجليزية لفيلسوف وأديب ينتمي إلى عائلة أدبية عريقة، فأخوه هنري جيمس روائي وقاصّ من الطراز الرفيع، وأخته أليس جيمس كاتبة يوميات متميزة، وأبوهم فيلسوف ترانسندنتالي زرع في كلِّ أبنائه حبَّ القراءة والكتابة وإعمال الفكر في التقاليد الموروثة.

كانت هذه التجربة ثرية للغاية، وحينها، كنت قد قرأت أعمال الدكتور محمد عناني عن الترجمة وفن الترجمة ومرشد المترجم، إلخ. لكنني وضعت الكثير من نقاط النقد داخل كلِّ كتاب لأنظر في أمرها مع كلِّ مرة أعاود فيها قراءة أعماله. لكن الانطباع العام الذي تكوَّن لديَّ عن عملية الترجمة أنها «فن»، وأنه يمكن للمترجم الإتيان بعدة أساليب للتصرُّف في النَّص الأصلي ليتناسب مع اللغة المنقول إليها. هنا، وبهذا المعنى، موهبة المترجم أمر ضروري، مع تمتعه بقدرات لغوية عالية؛ قدرة على فهم النَّص الأجنبي، وقدرة على الإتيان بأساليب لغوية متعددة لنقل «الوظيفة التواصلية» المبتغى توصيلها في النَّص المشار إليه إلى اللغة الجديدة.

في نهاية مطاف الانطباع، وجدت رأي الدكتور محمد عناني متوافقًا لحدٍ ملحوظ مع رأي كريستين دوريو (وبالضرورة يتباين الموقفان في بعض الوقفات الفكرية)؛ إذ ذهب عناني إلى أن ما يعرضه في كتابه «آراء في صلب عملية الترجمة لا في النظرية» وأن «الترجمة فن

يحتاج الأمر لحراك مؤسسي واعٍ بضرورة بناء جسر تواصل ثقافي مع حضارات وثقافات أخرى تجاوزت إشكالياتٍ تشبه إشكالياتنا لحدٍّ كبير لكنها لا تتطابق معها

تطبيقي، وأنا أستخدم كلمة فن بالمعنى العام، أي الحِرفة التي لا تتأتى إلا بالدُّربة والمِران والممارسة استنادًا إلى موهبة، وربما كانت لها جوانب جمالية؛ بل ربما كانت لها جوانب إبداعية». في انشغال كريستين دوريو بتحديد نظرية المعنى بوصفها نقطة انطلاق في علم الترجمة لتقديم أصول وطرائق تعليم ترجمة النصوص التقنية (أو الترجمة التقنية)، تقول إنها ربما اكتفت «بتطبيق تلقائي لطريقة العمل» التي صنعتها لنفسها «بشكل باطني وتجريبي بالكامل، عن طريق التجارب المتكررة والأخطاء ... وتصحيحها». لكنها تتفق مع محمد عناني في أن «تعليم الترجمة ليس تعليمًا كغيره، بمعنى أنه لا يهدف إلى نقل معرفة بقدر ما يهدف إلى نقل مهارة».

بدأت فكرة المنهج في التبلور مع انتقالي للقراءة عن الترجمة باللغة الإنجليزية. وكان الكتاب الأهم بالنسبة إليَّ هو كتاب الأستاذ الدكتور مصطفى مغازي (مدير برنامج اللغة العربية - قسم اللغات العالمية وآدابها - جامعة غرب مشيجان Western Michigan University) «دليل جورج-تاون للترجمة من اللغة العربية للغة الإنجليزية». نجد في هذا الكتاب قواعد لضبط عملية الترجمة تحقيقًا لهدفها الأكبر: اتباع المنهج العلمي في الترجمة على الرغم من احتمال التوصُّل إلى نتائج متباينة، يضاف إلى ذلك «تحقيق الوظيفة التواصلية المنصوص عليها في النَّص الأصلي، حتى لو اضطررنا إلى إضافة تعريفات، أو جُمَل، أو تعبيرات لغوية، أو - كما يحدث في بعض الحالات - حذف جُمَل أو تعبيرات بالكلية». بالإضافة إلى ذلك عند اختيارنا لترشيحات الترجمة (أي عملية فرض الفروض والمفاضلة بينها)، في حالة كلمة أو جملة، علينا مراعاة التالي (على الأقل):

تَضَمُّن اختيارنا لكلِّ المعلومات الموجودة في النَّص الأصلي.

لا يحتاج اختيارنا إلى استخدام نفس البنيات النحوية التي يستخدمها النَّص الأصلي؛ وإنما يحتاج فقط إلى استيفاء نفس الوظائف الإحالية (أو: المرجعية) referential functions الموجودة في اللغة الأولى.

يحتاج الاختيار الصالح على مستوى الترجمة إلى تحقيق الوظيفة البراغماتية «أو: الذرائعية» للجملة الموجودة في النَّص الأصلي ويحتفظ، في الوقت نفسه، بهدف السياق، مثل استخدام الكاتب لتوصيفات مبهمة أو تعبيرات لا توضح تحيزاته الإيديولوجية.

إن خُيِّرنا بين ما يقوله النَّص الأصلي حرفيًا ووظيفته المنشودة، لزم علينا مناصرة الوظيفة المنشودة من النَّص على حساب نقل المعنى الحرفي.

قد تتمكن من استخدام أو بلورة منهج، تأسيسًا على مناهج أخرى أو توليفًا بينها، بتتبُّع العملية العكسية لما تنشده. في هذه الحالة، من خلال فهم الترجمة من اللغة العربية للغة الإنجليزية. في حالتي، كانت بداياتي مع ترجمة مقالات اختصاصية للراحل علي مبروك من اللغة العربية للغة الإنجليزية، فكان هذا الكتاب، كتاب الدكتور مصطفى مغازي، خيرَ معين لي على تطوير طرق ترجمتي وكيفية إنتاج طرق للتعامُل مع الفجوات المعجمية بين اللغتين وإشكاليات نقل اللغة والأفكار.

أما عن طموحات الترجمة بالنسبة إليَّ، فأتمنى أن تُتَرْجَم الأعمال الكلاسيكية الأدبية والفلسفية للغة العربية وفق خطة نشر واضحة، ورؤية إستراتيجية مُنَظَّمَة تنظيمًا دقيقًا.

للآن، ثَمَّ الكثير من الأعمال الكلاسيكية في تاريخ الفكر الإنساني لم تَنَل حظها من الترجمة للغة العربية، وأحلم بترجمتها للسان العربي، وكان كتاب «تنويعات التجربة الدينية» محاولة على طريق طويل لن أنجزه وحدي، ولن ينجزه أفراد يمتلكون الإخلاص الكافي وحدهم، وإنما يحتاج الأمر لحراك مؤسسي واعٍ بضرورة بناء جسر تواصل ثقافي مع حضارات وثقافات أخرى تجاوزت إشكالياتٍ تشبه إشكالياتنا لحدٍّ كبير، لكنها بالتأكيد لا تتطابق معها. وعلى هذه المؤسسات إدراك أن الثقافة، ثقافتنا، هي واحدة من بين مئات الثقافات الأخرى، وأن الأفكار لن تُدْحَض بنقلها للغتنا منقوصة، أو ترجمتها في هيئة نصوص لا تُظْهِر مكامن القوة والمنطق السديد في هذه الأفكار؛ فالاستبداد الذي نريد تجاوزه لن ينتهي عبر استبداد آخر، وهو الاستبداد الثقافي.

6

من الآداب الآسيوية إلى اللغة العربية

محمود عبد الغفار

توجد حركة ترجمة مستمرة في مصر والوطن العربي، ولكنها في النهاية وبحسابات عدد القراء وكذلك عدد سكان بلادانا العربية، تظل حركة ضعيفة مقارنة بمثيلاتها في أوروبا وأمريكا. وقد أشارت دراسات عديدة غربية وعربية إلى ضآلة الناتج عن حركة الترجمة العربية بشكل لافت للنظر. طبعًا هناك حركة ترجمة آسيوية واضحة؛ لكن الإحساس بها محدود لأن عدد الذين يجيدون هذه اللغات ويهتمون بمعرفة ثقافتها وتراثها الإنساني والإبداعي محدود كذلك، ولكنه الآن في تزايد غير مسبوق تجاه بعض الدول وبخاصة كوريا الجنوبية. هناك حركة ترجمة من الأدب الصيني والأدب الياباني لكنها في الغالب صادرة عن الأكاديميين الذين درسوا هذه اللغات قبل عقود. الآن ومع تأسيس أقسام اللغة الكورية في بعض الدول العربية ومنها مصر التي أسست أول قسم لدراسة اللغة الكورية في كلية الألسن بجامعة عين شمس عام 2005 هناك مترجمون من الشباب الواعد الذين يحملون طموحات كبيرة لنشر الثقافة الكورية وترجمة أدبها إلى العربية، وفي هذا السياق هناك جهود كبيرة يبذلها المعهد الوطني لترجمة الأدب الكوري بالعاصمة الكورية سيول لأنه يقيم دورات تدريبية لتعريف المترجمين الشباب بخصوصية الثقافة الكورية وكذلك تقديم محاضرات عن الأدب الكوري القديم والحديث وأيضًا عقد لقاءات حرة مع كتاب وكاتبات ومناقشة بعض أعمالهم وترشيح ما يروق للمتدربين منها للترجمة إلى لغاتهم بدعم ترجمة ونشر من المعهد. في مصر على سبيل المثال قرأت عددًا من الترجمات عن الصينية واليابانية والكورية أيضًا صادرة عن سلسلة الجوائز

هناك حركة ترجمة آسيوية واضحة؛ لكن الإحساس بها محدود لأن عدد الذين يجيدون هذه اللغات ويهتمون بمعرفة ثقافتها وتراثها الإنساني والإبداعي قليلي للغاية

بالهيئة المصرية العامة للكتاب وكذلك عن المركز القومي للترجمة.

وقد كان العرب حتى وقت قريب مجرد رد فعل. يعني قبل احتلال فرنسا لمصر وقبل احتلال انجلترا لمصر كانت هناك حركة نقل وكتابة عن المصريين وكل ما يتعلق بهم بشكل مدهش وصفه علي مبارك في عمله المعروف بـ«علم الدين»، بقوله على لسان علم الدين إنه يرى هؤلاء الأجانب في كل مكان بأعداد كبيرة وهم دائمًا ما يرسمون صورًا ويكتبون كلامًا عن كل ما يشاهدونه. لقد بدأنا رحلة التعرف علينا وعلى سماتنا الخاصة مما كتبه المستشرقون عنا. ثم مع البعثات العلمية إلى الخارج بدأت حركة الترجمة من لغاتهم وآدابهم إلى العربية. وهنا تحديدًا سنجد رسالة دالة جدًا أوردها رفاعة الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». وهي رسالة من الخديو إلى المصريين المبتعثين للدراسة في فرنسا يحثهم على الاجتهاد، ويكاد يوبخهم على تأخرهم في كتابة التقارير الشهرية عن دراساتهم وأنشطتهم العلمية ويطالبهم بترجمة كل ما يستطيعون ترجمته في الآداب والفنون والمعارف والعلوم الغربية. ومن ثَم فحركة الترجمة المتبادلة وكذلك التعرف على الغرب الأوروبي تحديدًا بدأت منذ وقت طويل، وقد ساهم قرب المسافة بين الغرب والشرق في تدعيم هذا التعارف المتبادل في حين بدأت العلاقة مع شرق آسيا تحديدًا تأخذ طابع الاهتمام العلمي والثقافي قبل ثلاثة أو أربعة عقود على أقصى تقدير على الرغم من وجود علاقات سياسية وتجارية واقتصادية عميقة وبعيدة مع هذه الدول. وسيعزز المشترك الثقافي الواضح جدًا بين العرب وبلدان شمال شرق

آسيا في ازدياد حركة الترجمة المتبادلة في السنوات القليلة القادمة.

وفي الحقيقة ليس عندي معلومات دقيقة عن المتحكم في سوق الترجمة، لكنها باختصار حركة عرض وطلب، فضلاً عن أنها حركة بحث عن اهتمامات القراء وطبيعة ما يريدون التعرف عليه عن الآخر في العالم على المستويات الإنسانية والإبداعية والثقافية بشكل عام. هناك مؤسسات مصرية تبذل جهودًا واضحة منذ سنوات في هذا السياق؛ جامعة القاهرة مثلاً - بحكم انتمائي لها- لها دور في دعم الترجمة ونشرها في السنوات الأخيرة. وبكل تأكيد هناك جامعات ومؤسسات أخرى تسهم في هذه الحركة. هناك إلى جانب ذلك دور نشر لها سمعتها وحضورها الثقافي في مصر تقوم بجهود فردية لها الطابع المؤسسي بحكم حجم الصادر عنها من ترجمات. هذه الدور في الحقيقة تؤدي دورًا عظيمًا في حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى العربية على كافة المستويات. طبعًا وبحكم البحث عن اهتمامات القراء سنجد أن أغلب إن لم يكن ما يتم ترجمته يدور في فلك العلوم الإنسانية بشكل عام وفي فلك الإبداع الفني والأدبي وتحديدًا الرواية والقصة وبعدهما الشعر بشكل خاص.

وبحكم علاقتي بالثقافة الكورية يمكنني أن أقول إن المعهد الوطني لترجمة الأدب الكوري يقوم بدور عظيم في الترويج للأدب الكوري على المستوي العالمي. هذا المعهد كان له دور في تقديم أعمال الكاتبة الواعدة «هان كانج» التي حصلت على جائزة «مان بوكر» عام 2016م عن روايتها «النباتية». وللمعهد موقع إلكتروني ينشر خلاله قوائم طويلة من الأعمال التي يرشحها للترجمة إلى كل اللغات العالمية. وهناك أكثر من وسيلة للقيام بالترجمة من خلال المعهد وذلك عبر موقعه الإلكتروني؛ إذ يتقدم المترجم بطلب ترجمة أحد هذه الأعمال مشفوعًا بعدد من الصفحات المترجمة. وبعد مراجعة الترجمة من خلال لجنة مختصة وفي حال قبولها يتم التواصل مع المترجم لعمل خطة بمواعيد محددة للترجمة كما تُحوَّل دفعات من مقابل الترجمة إلى حسابه البنكي كلما انتهى المترجم من الجزء الذي حدده في خطته وكذلك يدعم المعهد تكاليف الطباعة. في برامج أخرى تتقدم دار النشر بطلب ترجمة أحد الأعمال وبعد توقيع الاتفاق مع المعهد تتولى الدار البحث عن المترجم ثم تبدأ عملية الترجمة من هذا المسار. يقدم المعهد دورات سنوية لتدريب المترجمين الأجانب بشكل احترافي، وهي برامج تكون مدتها من أسبوعين إلى ثلاثة أشهر. ويكون لها دور كبير جدًا في تعريف المترجمين الأجانب بخصوصية الأدب الكوري وتحسين قدراتهم في الإحساس باللغة الكورية وتحمسيهم لبذل الجهود في ترجمته إلى لغاتهم.

كذلك تلعب الترجمة عبر لغة وسيطة دورًا مهمًا في نقل الثقافات والآداب الأخرى، ولكن عندما لا يتوفر المترجمون عن اللغات الأصلية مباشرة. الترجمة ومهما اقتربت من روح النص الأصلي تظل غير قادرة على تمثله كما هو بلغته الأصلية، ومن ثَم فالترجمة عبر لغة وسيطة تزيد من هوة التباعد بين النص الأصلي واللغة المترجم إليها، ولذلك لا يمكن الاعتداد بها بدرجة كبيرة رغم قيمتها وأهميتها حال غياب المترجمين المباشرين. من الواضح أن الأجيال الجديدة في العالم العربي شغوفة بالتعرف على الثقافات الآسيوية وأننا في حاجة إلى مؤسسات ترعى المترجمين الشبان، وتدعمهم علميًا وماديًا، وبخاصة ممن درسوا اللغات الآسيوية لحاجتنا الماسة فعلاً إلى جهودهم مستقبلاً، خصوصًا وأن التعرف على الآداب الآسيوية يدعم فكرة المشترك الثقافي والإنساني الواضح جدًا بيننا وبين هذه الشعوب. لدينا ولديهم ميراث مشترك

وأصيل وعميق جدًا على المستويات العقائدية والاجتماعية فيما يتعلق بالعادات والتقاليد تحديدًا. لدينا سياق حضاري ناصع بحكم عدم الدخول في صراعات عسكرية مع هذه البلدان، ومن ثَم فصورتها دائمًا في عقولنا مشرقة، تدعمها باستمرار جودة منتجاتهم التكنولوجية التي نستعملها ليل نهار. هذا إلى جانب تمويلهم المستمر لمشروعات علمية وخدمية في بلادنا. لا ننسى مثلاً المدارس اليابانية في مصر والخدمات التي تقدمها مؤسسة مثل «كويكا» لكثير من المصريين في شتى أنحاء البلاد. وأكثر الأجناس الأدبية التي تترجم عن اللغات الآسيوية هي الرواية بالطبع، ومع طولها النسبي مقارنة بالشعر فإنها تغدو أيسر في النقل مقارنة بالشعر الذي يكون محملاً بانزياحات لغوية وشحنات ثقافية لا نهاية لها، تتطلب من المترجم بذل الكثير من الجهد وتفرض عليه التأني الشديد عند اختيار كل كلمة.

في إطار، تجربتي؛ في الترجمة عن الكورية لا يمكنني الإقرار بأن بعض الأعمال الأدبية العربية التي تترجم وتنشر في اللغات الآسيوية الأخرى يجري إنجازها من قبل جامعات وباحثين يتعاملون مع الأدب كمواد تعكس ظواهر سياسية واجتماعية أكثر منها بوصفها أدبًا، فما تُرجم من الأدب العربي الحديث في مصر ولكتاب مصريين لا يعكس توجهات سياسية معينة. الأمر في الغالب يعود إلى ذائقة المترجم وقدرته على التعامل مع هذا النص أو ذاك وتصوراته عن قيمة ترجمة هذا العمل إلى لغته. فترجمة المعلقات السبع على سبيل المثال لا يمكن أن يحمل أغراضًا سياسية أو اجتماعية معينة اللهم إلا تعريفه بشكل من أشكال الإبداع الأدبي العربي في الماضي. حتى اختيار ترجمة أعمال سلوى بكر مثلا في التسعينيات أو ترجمة بعض روايات لعلاء الأسواني مع مطلع الألفية

الترجمة ومهما اقتربت من روح النص الأصلي تظل غير قادرة على تمثله كما هو بلغته الأصلية، ومن ثم فالترجمة عبر لغة وسيطة تزيد من هوة التباعد بين النص الأصلي واللغة المترجم إليها

الجديدة لا يحمل أية أبعاد سياسية ولا يهدف لإظهار صورة مؤدلجة عن مصر. أقول هذا بحكم معرفتي خلال إقامتي في كوريا بالأساتذة الذين ترجموا مثل هذه الأعمال من العربية إلى الكورية ومن قبيل حسن الظن بهم لأني لم أر لهم أية توجهات أخرى ولا أنشطة غير الانكباب على تعليم العربية للطلاب الكوريين وترجمة الأدب العربي إلى الكورية. وأعتقد كذلك أن أغلب ما يترجم هو اقتراحات مترجمين، لأنه وبكل أسف ليس لدينا خطط طويلة الأمد. كان عندنا في مصر مشروع ترجمة الألف كتاب ضمن سلسلة كانت تحمل الاسم نفسه، وكذلك ترجمة «ألف كتاب» في المركز القومي للترجمة فترة رئاسة الأستاذ الدكتور جابر عصفور له لكن في حركة الترجمة العكسية لا أعرف بالضبط كيف يتم الاختيار. في إطار معرفتي بالجانب الكوري أستطيع أن أقول أن الأعمال يتم اختيارها بشكل فردي ثم يتم البحث عن جهة تمويل كورية لنشر تلك الترجمة. لقد ترجم الكوريون مثلاً القرآن الكريم من الإنجليزية والعربية إلى الكورية، وترجموا روايات حديثة لكتاب وكاتبات عصريات تتم كلها بشكل فردي ومن خلال خبرة الأستاذ الكوري بالأدب العربي الذي في الغالب ما يكون أكاديميًا يعمل بأحد الجامعات الكورية. وتجري عملية التمويل من خلال الهيئات والمؤسسات الكورية المهتمة بالترجمة من اللغات الأخرى إلى الكورية. تتولى هذه المؤسسات دفع المقابل المالي للمترجم وللناشر وكذلك حقوق الملكية الفكرية والنشر ... إلخ. كل ما يمكنني أن أوصي إذن به في عبارات موجزة:

دراسة تجربة المعهد الوطني لترجمة الأدب الكوري والسير على خطاها.

زيادة الدعم المالي الممنوح للمؤسسات الرسمية التي يتعلق عملها بالترجمة.

قيام المؤسسات الرسمية بدور فعال في ترجمة الآداب العالمية ومن بينها الآداب الآسيوية حسب خطط مدروسة وتوزيع علمي لحاجات القراء على المستويين الثقافي والإبداعي تحديدًا.

تدريب دارسي اللغات الآسيوية من الشباب على الترجمة باستقدام أساتذة ترجمة من هذه اللغات في دورات تدريبية ولو مرة في العام.

دعم ترجمات الشباب وتشجيعهم ماديًا على التفرغ للترجمة من خلال مشروعات ترجمية مدفوعة الأجر لسنة أو سنتين حتى ثلاث إلى خمس سنوات بمرتب شهري.

ترسيخ مبدأ أساس لدى كل المؤسسات الرسمية المعنية بالترجمة حول أهمية الترجمة ودورها العبقري باعتبارها جسرًا حقيقيًا في التواصل الثقافي والإنساني، ومن ثَم فكل مليم تنفقه الدولة على ترجمة عمل من أعمال هذه الشعوب سيعود علينا بالنفع بعشرات ومئات بل وآلاب الجنيهاتمستقبلاً.

7

ميزان لا يميل!

سها السباعي

بدأت تجربتي مع الترجمة بالتعلم على يدي أستاذيْن عظيميْن، لكل منهما أسلوبه، وإليهما أنسب فضل ما أنا عليه الآن. انقضت ثمان سنوات من العمل؛ تنوَّع فيها إنتاجي بين الكتب والروايات والمقالات والأبحاث. وددتُ أن أقول إنني أترجم فقط ما أحب، وأنتقي ما يُعرض عليَّ، بل وأقترح على دور النشر ما أشاء من أعمال، لكن جميعنا يعلم أن الدنيا ليست وردية بهذا القدر. لذلك أفضل أن أتحدث من أرض الواقع وأصنف الأعمال المترجمة بشكل آخر باعتبار الترجمة مهنة: العمل مع الأفراد، ومع دور النشر الخاصة وأخيرًا مع المؤسسات الحكومية.

يتصف العمل مع الأفراد ودور النشر الخاصة بالقيود من ناحية طبيعة الأعمال المطروحة للترجمة، وكذلك بالخطورة من الناحية المالية. الفرد يترجم فقط ما يحتاج إليه، مثل بحث أو مقال أو أوراق حكومية، وهذه مواد ذات طبيعة مملة نوعًا بالنسبة لي كمترجمة مستقلة أطمح لوضع اسمي على أعمالي، ولا أعتبرها استثمارًا جيدًا للوقت والجهد، وأطلق عليها أحد أساتذتي «ترجمات أكل العيش». كما أنه ليس مضمونًا أن تحصل على أتعاب الترجمة؛ إذ ليس هناك عقد أو أي شيء ملزم إلا اتفاق شفهي، أو رسالة على الأكثر. الحل الوحيد فرض دفعة مقدمة، وعدم تسليم الترجمة الكاملة في صورتها النهائية ولا يقبل كثير من الأفراد بذلك، مع الوقت، وبالتجربة والخطأ سيكون لديك دائرة موثوقة من العملاء. أما التعامل مع دور النشر الخاصة فهو تجربة مختلفة. العمل هنا يأخذ صيغة قانونية متمثلة في عقود موقعة، لكن دور النشر لا تتشابه، فمنها الملتزم بالعقد والوقت وإخراج الترجمة في أفضل صورة، ومنها ما دون ذلك. وباعتبار دور النشر الخاصة

أشد ما يسبب لي الغيظ والحنق، الإعلانات الفجة عن الاستعداد للترجمة بأقل الأسعار، والمترجمون الذين ينقلون عن المواقع الإلكترونية دون حتى محاولة لإعادة النظر فيما ينسخونه منها

مؤسسات هادفة للربح فهي تحرص على اختيار الأعمال وتسويقها بما يحقق لها هدفها، وهذا أمر مفهوم. التعامل مع المؤسسات الحكومية تجربة مختلفة تمامًا، فهي غالبًا لا تهدف للربح ولذلك تختلف طريقة اختيار الأعمال. من الناحية المالية، كما يُقال «اللي عند الحكومة ما بيضيعش»، لكنه كثيرًا ما يأتي بعد وقت طويل قد تنسى معه أنك ترجمت لهذه الجهة أو تلك، وكذلك تطول فترة انتظار نشر العمل نفسه لاعتبارات كثيرة، فقد ينشر بعد أعوام، وربما لا يُنشر أبدًا، ممَّا يجعل عملك لشهور يتحول إلى جهد ضائع.

أشد ما يسبب لي الغيظ والحنق في مجال الترجمة؛ الإعلانات الفجة عن الاستعداد للترجمة بأقل الأسعار، والمترجمون الذين ينقلون عن المواقع الإلكترونية دون حتى محاولة لإعادة النظر فيما ينسخونه منها؛ بتعديل الأسلوب أو مراجعة الكلمات التي تطل صارخة من النص لعدم اتفاقها مع السياق والمعنى.

الترجمة بالنسبة لي نقل ثقافة مختلفة إلى الآخر بشكل يحمل طيفًا تفسيريًا، ويجب أن يكون ذلك على ميزان لا يميل. لا أضيف رأيي أو فهمي للنص كما فعل إتيان دوليه، ولا أغيِّر ملامح النص ليتفق مع ذوق وثقافة القارئ كما فعل طانيوس عبده، ولا أنقل «روح» النص دون «حرفه»؛ كما فعل الأدباء المترجمون منذ عقود، ولكن لا أقتنع بالترجمة الحرفية التي تجعل القارئ يبحث عن مراجع خارجية لفهم الترجمة.

أطمح إلى أمر حالم لا أعتقد أنه في الإمكان، أن تكون الأعمال المترجمة رسولاً للتقريب بيننا وبين الآخر، فعلاً لا مجازًا، ليس بطريقة «اعرف عدوك»، أن أفهم الآخر، وأتفهم محددات ثقافته بشكل يزيل العداء والخوف من المختلف والعواقب المترتبة على ذلك العداء وذلك الخوف، والتي قد تتصاعد إلى مرتبة الجرائم. أطمح ألاَّ تتدخل السياسة في مجال العمل بالترجمة، وأن تبقى لحروفنا العابرة للغات قدسيتها وسموها على أي خلافات أو مصالح.

8

كي لا نكره ما نُحب!

نانسى محمد

«أنت البدايات وآخر ساحل ومينا»..

هكذا شدا محمد عبده، فيما كنت أجلسُ أمام جهازي العتيق، أستمع إلى الموسيقى، وأعمل على المشاريع التي أبنيها، وأتمنى أن أجد لها منفذًا يراها منه الناس، وأن يتمتعوا بجمالها كما أتمتع أنا، وعاد ذهني إلى البدايات.. بداياتي أنا كمترجمة تخطو في عالم غريب عجيب.. اسمي نانسي محمد الصياد، عمري خمسة وثلاثون عامًا.. وأعمل مترجمة حرّة... وهكذا جرت الأمور.

في عالم الترجمة اليوم، تختلف تجارب كل منا حسب طريقة دخولنا إليه وتعاملنا معه، ومع اللغة التي نجيدها.. وأحيانًا ما نريد أن نتخصص فيه.. فمن يريد التخصص في المجالات المالية والقانونية يتجه للعمل مع الشركات ومكاتب المحاماة وغيرها ممن يحتاج إلى ترجمة المستندات نظرًا إلى طبيعة عملهم مع الجهات الخارجية. وتتفاوت درجة المترجم هنا حسب الطلب على اللغة التي يجيدها، ومقدار تمكنه من مصطلحات ذلك المجال الذي يريد العمل فيه.

تبدأ حكايتي منذ أن وعيت على الدنيا.. وبدأت أقرأ؛ إذ كان لمكتبة والدتي الفضل الأكبر في تفتيح مداركي وعقلي على العالم من حولي.. فقررت في سن مبكرة - الصف الأول الإعدادي - أن أتخصص في اللغة الإنجليزية، لأتعرف على

حققت جزءًا من حلمي برؤية اسمي على كتاب ترجمته بيدي، ولكن يظل الباقي من الحلم؛ وهو أن أترجم ما أريده أنا؛ ما أحب أن أترجمه من الفانتازيا والميثولوجيا

ثقافات العالم من حولي، بعد أن تشبعت طويلاً بمسرحيات شكسبير المترجمة والمختصرة للأطفال في المرحلة الابتدائية، ومنها للترجمات الأعمق والأكثر تعقيدًا كلما تقدمت في العمر. وفي عام 2006، بعد أن تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وانعدام رغبتي في العمل التقليدي كمدرسة، أو كسكرتيرة في إحدى الشركات، ونويت أن أبحث عن عمل في مجال الترجمة.. ولكنني لم أجد الفرصة الحقيقية إلا عبر الإنترنت بعدها بستة أعوام، عن طريق إحدى المجموعات التي كونت فريقًا من المترجمات اللاتي كن يبحثن عن عمل، وعن فرصة، فكانت تلك البداية الحقيقية التي أخذتها كخطوة لتقربني إلى حلمي الأكبر؛ ألا وهو الترجمة الأدبية..

تقلّبت كثيرًا في الأعوام الخمسة التالية بين سماسرة الترجمة؛ الذين يتسلمون العمل من مكاتب الترجمة، ويلقونه إلى فريق كامل من المترجمين، فيتفرق دمه بينهم، ويرمون لهم بالفتات بعد ذلك. ترجمت آلاف الفواتير والإيصالات والعقود، التي ضغطت على أعصابي، وأهلكت بدني، بسبب ضغط البشر الذين كانوا يعاملوننا -نحن المترجمين- كالعبيد؛ إذ يلقون إلينا بعشرات أو مئات الصفحات، ويضغطون علينا في الوقت كي يتمكنوا من تسليم العمل مبكرًا والحصول على الأجر كاملاً، دون مراعاة لأي ظروف أو أي طوارئ قد تحدث لنا.. أما عن أجرنا نحن فطالما كانوا يماطلوننا فيه، أو يلقون إلينا بربعه، ونحن نعلم مقدار ما أخذوا، لكننا كنا نستسلم لعدم وجود مورد آخر. أذكر أن أحدهم اتصل بي ليلاً، وظل يصرخ شاتمًا معنفًا، لأن الإنترنت قد انقطعت عني، ولم أتمكن من إرسال الملف في الموعد

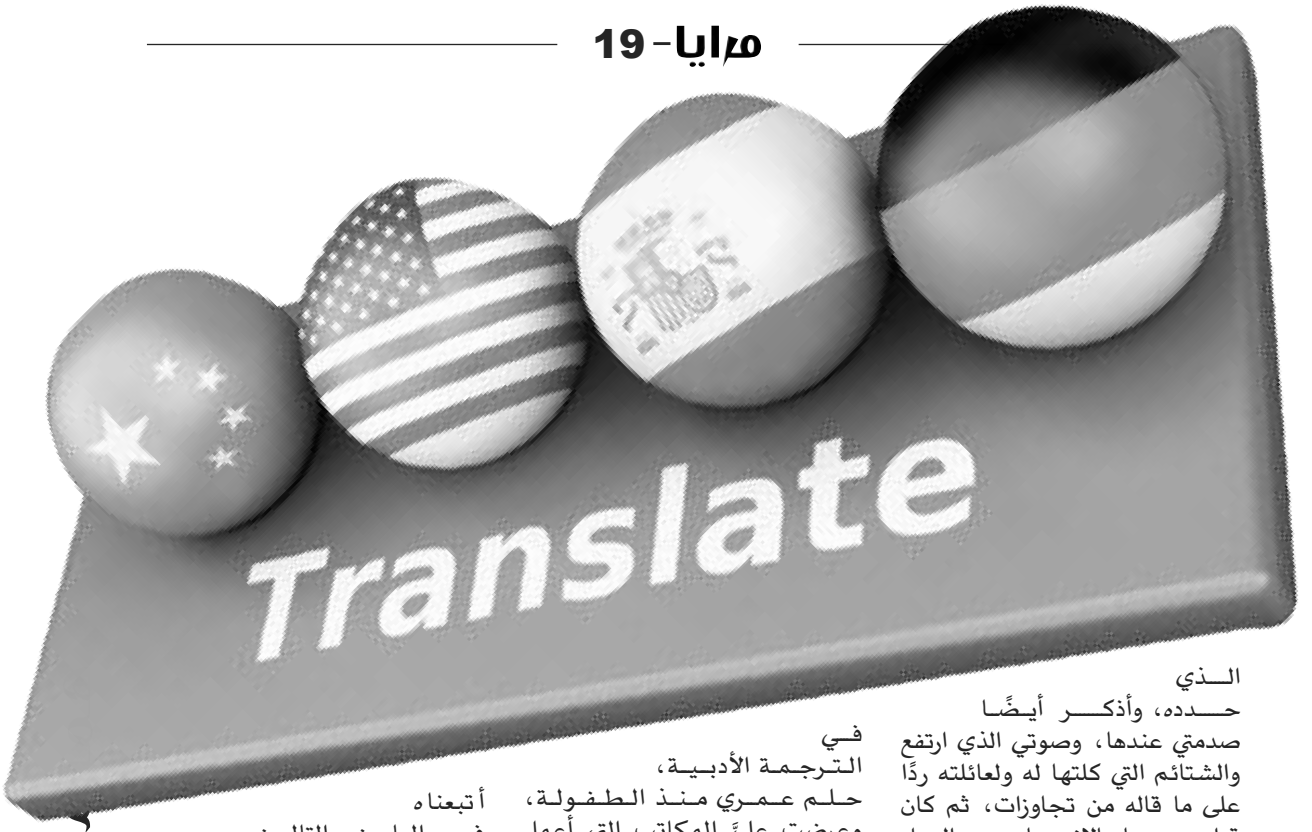

الـــذي حـــدده، وأذكـــر أيـضًـا صدمتي عندها، وصوتي الذي ارتفع والشتائم التي كلتها له ولعائلته ردًا على ما قاله من تجاوزات، ثم كان قراري بعدها بالانسحاب من العمل معه، وتحذير الجميع منه ومن أسلوبه الدنيء في المعاملة. ولكن أينما وليت وجهي بعد ذلك وجدت أشباهه..

ترقيت بعدها قليلاً؛ من التعامل مع السماسرة إلى مرحلة التعامل مع المكاتب مباشرة، وكان الأمر أفضل، لأنهم يعرفون قيمة المترجم وقيمة وقته وجهده.. لكنني لم أجد نفسي وسط الأرقام والمصطلحات القانونية الجافة، ووجدت جسدي يعتل معترضًا عليَّ وعلى ما أفعله به. فكانت اعتراضاته من ارتفاع في الضغط والقولون العصبي وقرب الانهيار العصبي.. والطامة الكبرى.. أنني أحسست أنني سأكره حب عمري، وأبغض الترجمة، فكانت الوقفة. أنا عاشقة للغات، أحب عجينتها السهلة السلسة، وميزانها الدقيق الذي يُقاس فيه كل حرف بميزان من ذهب. لِمَ أسجن روحي وعقلي بين المصطلحات الجامدة التي تذيقني الويل والثبور وعظائم الأمور إن خالفت ووضعت واحدًا منها مكان الآخر؟ وكان القرار في أواخر عام 2017 أن أتوقف تمامًا عن العمل في أي مجالات قانونية أو مالية أو غيرها، وأني لن أعمل إلا في الترجمة الأدبية، حلم عمري منذ الطفولة، وعرضت عليَّ المكاتب التي أعمل معها زيادة الأجر كي لا أترك العمل، ولكنني كنت قد حسمت أمري، وقبلها عرَّفتهم على بعض ممن أثق بهم ليكملوا ما تركت أنا. احتجت إلى فترة نقاهة لبضعة أشهر، ثم بدأت بعدها البحث عن فرصة مع دور النشر المصرية والعربية.

لرحلتي في هذا الجزء حديث طويل؛ أي مترجم مبتديء سيعاني الأمرين كما عانيتُ في البداية، كنت أرسل السيرة الذاتية مع نماذج لقطع مترجمة للعديد والعديد من دور النشر، ولا حياة لمن تنادي. يتساوى في ذلك دور النشر الكبيرة والصغيرة منها، إلا أن الصغيرة منها كانت تجيب بأنها لا تتعامل في الروايات المترجمة بعد، أما الكبيرة فلا ترد حتى بكلمة..

وكانت الانفراجة عندما وجدت إعلانًا على أحد مواقع الترجمة يطلبون مترجمًا لكتاب مهم، فشحذت همتي وأرسلت سيرتي الذاتية إليهم، وأتتني الإجابة بإرسالهم لقطعة يطلبون مني ترجمتها كعينة.. وانتهى الأمر بتعاقدي مع دار العربي للنشر والتوزيع في معرض الكتاب عام 2018، لأترجم لهم كتاب «مختصر تاريخ الصين» الذي أتبعناه في العامين التاليين بكتابي «مستقبل النسوية»، و«لماذا النسوية مفيدة للرجال؟».

لقد حققت جزءًا من حلمي برؤية اسمي على كتاب ترجمته بيدي، ولكن يظل الباقي من الحلم؛ وهو أن أترجم ما أريده أنا؛ ما أحب أن أترجمه من الفانتازيا والميثولوجيا، وغيرها من العوالم المستغلقة علينا هنا كمتحدثين للغة العربية، ولكنني كالعادة، أصطدم بحسابات دور النشر، وعدم إيمانهم بجدوى ما أريد أن أفعله بشكل مادي. الحال نفسه؛ دور النشر الكبيرة كالعادة لا تجيب، والحكومية تستغرق وقتًا طويلاً وأنا - كما تعرفون - أريد أن أرى ثمار جهدي في حياتي، لا أن يحصدها ورثتي بعد رحيلي. ودور النشر الصغيرة تبحث عن موطيء قدم مستقر ماديًا، فلا يغامرون ولا يخاطرون بشيء قد يسبب لهم الخسارة. ونتيجة لذلك فلا زلت أدور في هذه الرحى، أصارعها وتصارعني، وأنا متأكدة من أنني لست وحدي؛ فأنا أتحدث عن جزء من مشكلات كل مترجم.. ولا بد أن كثيرًا منهم قد مر بجزء مما مررت به، وكل خطوة في هذا الطريق أعدتني وتعدُّني لما هو قادم، وأنا في انتظاره.

9

مهمة المؤسسات الحكومية

هبة شريف

الترجمة ليست دراستي الأساسية، فالنقد الأدبي هو تخصصي، ولكن النقد قادني إلى فهم أفضل للنصوص، ومن ثَم للقدرة على الترجمة. يعرف كل من درس الترجمة أن المدرسة الفرنسية في الترجمة تؤكد على أهمية توصيل المعنى من قبل المترجم، وتعتبره أكثر أهمية من نقل البنية اللغوية في النص الأصلي. أتعامل مع النصوص التي أرغب في ترجمتها على إنها مضمون أرغب في نقله والإعلام عنه لمن لا يتقن اللغة التي كُتِب بها النص الأصلي. ولهذا أطالب نفسي دائمًا بأن أفهم النص أولاً كي أستطيع أن أبلغ الآخرين بمضمونه وأنقله. ولكني أتشكك أحيانًا وأتوقف لحظة لأتساءل إذا كنت متأكدة من فهمي للنص وإذا كانت طريقتي في فهم النص هي الطريقة الصحيحة. ويقودني هذا إلى التساؤل التالي: هل هناك طريقة «صحيحة» في فهم واستقبال النصوص؟ فكل فهم للنص هو فهم ذاتي وكل استقبال للنص استقبال ذاتي، ولا يستطيع أحد أن يفرض قراءته الخاصة على الآخرين. فاستقبال النصوص له علاقة قوية بالخلفية الثقافية التي أترجم منها و اللغة التي أترجم إليها، فكيف يمكن أن أكون واثقة إلى هذا الحد أن ما فهمته صحيح؟

هنا أتذكر أمبرتو إيكو وكتابه عن الترجمة الذي أعطاه عنوانًا يلخص مفهومه عن الترجمة: «نفس المعنى ولكن بكلمات أخرى»، فهو يقول إن الترجمة ليست فقط مجرد التنقل بين اللغات ولكنها أيضًا تنقل بين الحضارات - أو بين دوائر معارف

في مصر نحن في وضع يستقبل الترجمة عن اللغات الأخرى، ولا نروِّج لترجمة الكتب العربية المصرية مثلما يفعل العديد من الدول الأخرى

مختلفة. فعلى المترجم أن ينتبه للقواعد اللغوية في اللغتين: الأصل واللغة التي ينقل إليها، ولكن عليه أيضًا أن يراعي ويفهم العناصر الثقافية بمعناها الواسع. فهل تكفي إذن دراسة النقد واللغة وتاريخ الحضارة حتى يرتاح المترجمون في مهنتهم ويتمكنون منها ويبدعون فيها؟ قد تكفي دراسة الخلفية الثقافية لإعطاء المترجمين الثقة الكافية والمعرفة اللازمة للبدء في الترجمة، ولكن تبقى الترجمة على الرغم من ذلك مهمة غير سهلة في أي من السياقات الثقافية، فأنا أرى الترجمة ليست مهنة مريحة، أو مربحة في معظم المجتمعات. فبادئ ذي بدء، لا يمكن أن يكون العمل بالترجمة مهنة أساسية يعتمد عليها المترجم لتدر عليه دخلاً منتظمًا وثابتًا وكافيًا، ومع ذلك، أتصور أن المترجم لا يحركه الربح المادي، بل يحركه في الأساس الشغف بالترجمة، أو هكذا أ أتصور أنا. وأعتقد أن الشغف بنص ما هو ما يحرك لدى المترجمين رغبة ملحة في نقله والإخبار عنه، كأنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بهذا النص لأنفسهم. والكلام عن أهمية نقل المعارف وأهمية التلاقح الثقافي والحضاري الذي تقوم به الترجمة كلام مكرر ومعروف، فلا أريد أن أكرر وأؤكد على أهمية الترجمة، فأهميتها لا تحتاج إلى تأكيد، ولكن ما يحتاج إلى النقاش والتأكيد هي تلك العقبات التي تواجه الترجمة والمترجمين والناشرين، وليست كلها عقبات مادية، فالمترجم لا يقف وحده ويعمل وحده وينجز العمل وحده، فهو طرف داخل صناعة بأكملها بها أطراف كثيرة تعمل كلها لصالح العمل المترجم وتحكمها علاقات قانونية ودولية وفنية إبداعية أيضًا. وأتصور أن كل من يعمل في مجال الترجمة في مصر - سواء كان مترجمًا أو ناشرًا - فهو في حال لا يحسد عليه مقارنة بوضع الترجمة في بلاد أخرى.

عملت فترةً رئيسة لمكتب

المؤسسة الثقافية السويسرية بالقاهرة (بروهلفتسيا). وفي خلال تلك الأعوام التي ترأست فيها المكتب كنت أُشرف أيضًا على برامج دعم ترجمة الأدب السويسري إلى اللغة العربية، والمنح التي تقدمها الحكومة السويسرية لترجمة الأعمال السويسرية إلى العربية، وعرفت عن قرب كيف تتعامل الحكومات والدول مع منتجاتها الثقافية، وكيف تروِّج لها في الداخل والخارج. وبدأت أفكر في واقع الترجمة في مصر، ومقارنته بدول صغيرة وتعاني من قلة الإنتاج الثقافي مثل سويسرا إلا أنها استطاعت نشر العديد من أعمالها الفكرية والأدبية في العالم.

وهنا لفت نظري أننا في مصر في وضع يستقبل الترجمة عن اللغات الأخرى، ولا نروِّج لترجمة الكتب العربية المصرية مثلما يفعل العديد من الدول الأخرى، فهل يعود ذلك إلى أننا نوجد حاليًا في ظرف تاريخي يحتم علينا أن نأخذ عن الثقافات الأكثر تقدمًا في المعارف والعلوم والفنون، لأننا لا ننتج هذه المعارف لأسباب

من الأفضل أن تترك دور النشر الحكومية مهمة النشر وخاصة نشر الكتب المترجمة لدور النشر الخاصة ولا تنافسها في ذلك

كثيرة يطول شرحها؟ هل موقعنا المتأخر في السياق الحضاري الحالي هو ما جعل دعم الترجمة عن اللغات الأجنبية - عادة الإنجليزية - هو الهدف الأساسي في المؤسسات الثقافية الحكومية المخصصة للترجمة مثل المركز القومي للترجمة؟ هل عدم اهتمام المؤسسات الحكومية الثقافية في مصر بالترويج للأعمال الفكرية والأدبية المصرية وتوجيه الاهتمام إلى الثقافات الأخرى له علاقة بوضعنا في عالم المعرفة وترتيبنا المتأخر وسط مجتمعات المعرفة؟ فقد قرأت في تقرير التنمية الثقافية العاشر الذي تصدره مؤسسة الفكر العربي أن حجم إنفاق الدول العربية مجتمعة على ما تقوم به من أنشطة بحثية لا يتجاوز 9 مليارات دولار أمريكي، وهي نسبة تساوي 0.4 من الناتج المحلي للدول العربية. فهل هذا القصور في الإنفاق على إنتاج المعرفة هو السبب في عدم وجود منتجات ثقافية عالية الجودة مما يجبر كل محب للمعرفة التحول إلى قراءة الكتب الأجنبية بلغتها الأصلية أو إلى الإقبال على الكتب المترجمة؟ وهل يهتم القارئ العربي بالكتب المترجمة لأن الكتب العربية دون المستوى المتوقع ولإدراكنا للتفوق الحضاري الأوروبي واعترافًا به؟ يذكر تقرير التنمية الثقافية العاشر أيضًا أن عددًا من بلدان العالم العربي؛ مثل مصر والجزائر والمغرب وتونس والسودان اعتمدت على نظم التعليم والبحث الغربية، فقد أنشئت في مصر

والعراق وسورية خلال العقود الأولى من القرن الماضي معاهد وجامعات وفقًا لنماذج الجامعات البريطانية والفرنسية، وعلى الرغم من أن هذه المعاهد والجامعات قد استطاعت أن تبني قدرات ملموسة في البحث العلمي فإن مستواها تدهور لعديد من الأسباب التي لها علاقة بطرق الإدارة ونقص التمويل المخصص للأبحاث العلمية. فهل أسهم تبني هذا النموذج الثقافي المعرفي الغربي في تقوية إدراكنا لألا موقع لنا على خريطة المعرفة؟ ولكن هل هذا تبرير كافٍ لغياب الاهتمام بالترويج للأعمال الفكرية العربية المصرية والأدب العربي المصري؟ لماذا نجد دولاً صغيرة تهتم بالترويج لآدابها وأعمالها الفكرية وتراثها ولا نجد ذلك الاهتمام في مصر؟

التقيت في أثناء معرض القاهرة للكتاب في عام 2019 بأحد ممثلي الحكومة المالطية، وهو يحاول أن يروِّج لترجمة الكتب المالطية، وأثار تركيزه على الترويج للكتب المالطية في مصر اهتمامي، فبحثت قليلاً في الفضاء الرقمي ووجدت أن مالطا، تلك الدولة الصغيرة جدًا، قد خصصت أربعين ألف يورو لدعم ترجمة الكتب المالطية إلى اللغات الأخرى. ومالطا دولة صغيرة للغاية (عدد سكانها 493.559 نسمة في 2019) وهي بهذا الشكل دولة لان يمكن أن يقارن إنتاجها الفكري بدولة مثل مصر. ووجدتني أتساءل فورًا عن السبب في أن كل دول العالم، حتى تلك الدولة الصغيرة جدًا، تهتم بالترويج لكتبها وترجمتها إلى اللغات الأخرى، بينما لا تهتم المؤسسات الثقافية الحكومية في مصر إلا بالترويج للترجمة إلى العربية.

إذا ألقينا نظرة على الموقع الإلكتروني الخاص بالمركز القومي للترجمة، لوجدنا أنه يحدد رؤيته في الترجمة عن اللغات الأجنبية بهدف يعلن عنه بوضوح وهو «سد الثغرات المعرفية الموجودة في ثقافتنا المعاصرة، وفي المجالات العلمية التي تدخل في نطاق اهتمامات المؤسسات الأكاديمية الحريصة على مواكبة التصاعد غير المحدود» في ظل ثورة المعرفة، ويهدف المركز إلى رفع معدلات إنتاج الكتب المترجمة بوجه عام.

وأنا لا أعترض على هذه الحقائق لأن الفجوة الثقافية بيننا وبين مجتمعات المعرفة كبيرة بالفعل، ولأن توفر الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية ضرورة وليست رفاهية أبدًا في عالم متسارع الخطى ومترابط بهذا الشكل ولأن كل دول العالم تترجم عن اللغات الأخرى. ولكن يبدو إن الحالة المتأزمة في هذه اللحظة التاريخية التي تتواجد فيها الثقافة المصرية تجعلها في وضع يفرض عليها تلقي المعارف ولا تصدرها، نظرًا إلى تفوق الحضارات الأخرى، بخاصة الغربية في مجال الفنون والعلوم، وعلى الرغم من تسليمي التام بكل هذا، فإني ما زلت لا أفهم مع ذلك غياب الاهتمام بالترويج لترجمة الأدب المصري والأعمال المصرية إلى اللغات الأخرى، رغم اهتمام عدد لا بأس به من الناشرين الأجانب بترجمة الأدب العربي. غاب الترويج للأدب المصري العربي تمامًا عن رؤية المؤسسات

الثقافية المصرية وتركت هذه المهمة ليتولاها ناشرون أجانب في الدول الأخرى، واكتفينا نحن في مصر بانتقاد وإدانة دور النشر الأجنبية والوكلاء الأدبيين لأنهم لم يهتموا بالأعمال الفكرية التي نرى نحن من وجهة نظرنا هنا في مصر ومن موقعنا كقراء مصريين إنها الأفضل لقراء آخرين في مكان آخر من العالم، وننسى أو نتناسى إن دور النشر الأجنبية التي تترجم الكتب العربية دور قائمة على الربح، لأنها دور نشر خاصة وليست حكومية، ولهذا فمن حقها تمامًا أن تختار تلك الأعمال التي ترى أنها قادرة على تسويقها وقادرة على جذب انتباه القراء في هذا السياق المختلف، وهم قراء لهم خلفية ثقافية مختلفة، ويختلف بالتأكيد ما يثير اهتمامهم ويجذبه. والأعجب من ذلك أنه لا أحد من منتقدي دور النشر الأجنبية أو المؤسسات والمراكز الأجنبية التي تهتم بترجمة الأدب العربي، يوجه هذا الانتقاد الحاد إلى المؤسسات الثقافية الحكومية في مصر والتي من المفترض أن يكون هذا هو دورها، وأن تعمل هي على الترويج والتسويق للأدب العربي المصري والكتب الفكرية، فإذا كان هناك من يجب أن يعمل على الترويج للأعمال الأدبية والفكرية المصرية، فهي المؤسسات الحكومية المصرية، وإذا كان هناك من يجب أن يُنتقد لتقصيره في نشر هذه الأعمال في الخارج أو لإغفال أعمال مهمة لم تترجم إلى اللغات الأخرى، فهي المؤسسات الحكومية في مصر التي اكتفت بالترجمة إلى العربية بدلاً من تقديم برامج دعم وتسويق للأعمال الفكرية المصرية ووضعت هذا الهدف جنبًا إلى جنب مع الترجمة عن اللغات الأخرى.

والأغرب أيضًا هو إن هذه المؤسسات لا توفر حتى المعلومات الكافية عن الكتب المصرية باللغات الأجنبية، وهذا أقل ما يمكن أن تقوم به، ويبذل الناشرون الأجانب جهدًا كبيرًا للحصول على أي معلومات عن الكتب المنشورة في مصر بلغة غير العربية، ولا يجدون المعلومات الكافية في معظم الأحوال، فكيف نلوم على

والغريب أن الترجمة للعربية قد أصبحت إحدى وسائل وأدوات المؤسسات الثقافية الحكومية للربح. فهل أصبح الربح المادي هدفًا لهذه المؤسسات متناسية أن دورها يجب أن يكون خدميًا وداعمًا وحاميًا للثقافة وليس منتجًا للتعبيرات الثقافية

الناشرين الأجانب اختياراتهم في حين إننا لا نقوم حتى بدور صغير من أجل الترويج لأعمالنا الفكرية، بل إننا لا نخاطبهم من الأساس؟ وأنا هنا لا أتحدث عن برامج دعم الترجمة إلى اللغات الأخرى كما تفعل دول أخرى، بل أتحدث فقط عن توفير المعلومات الذي يبدو أنه أمر شديد الصعوبة لسبب غير مفهوم ويعكس غياب دور الدولة في المجال الثقافي بشكل كاشف. ولكن إذا كانت الدولة قد قررت أن تتخلى عن دورها الأصلي في مجال الثقافة عن طيب خاطر فلماذا تصر على أن تلعب دورًا آخر غير دورها الأصلي وتنافس دور النشر الخاصة في صناعة النشر بدلاً من تقديم الدعم وإنشاء مكتبات عامة وإتاحة الكتب المصرية وغير المصرية فيها ؟ والغريب أن الترجمة للعربية قد أصبحت إحدى وسائل وأدوات المؤسسات الثقافية الحكومية للربح. فهل أصبح الربح المادي هدفًا لهذه المؤسسات متناسية أن دورها يجب أن يكون خدميًا وداعمًا وحاميًا للثقافة وليس منتجًا للتعبيرات الثقافية. وهل من المعقول إن نقرأ على موقع المركز القومي للترجمة إن من أهداف المركز أن يتحول إلى مركز استثماري وأن هدف المركز هو « الانتقال من مرحلة الاعتماد على الدعم المالي من الدولة إلى تحقيق معدلات كافية من الدعم وذلك بالتحول التدريجي بالمركز إلي مشروع استثماري، يغطي نفقات تشغيله من بيع الكتب المنتجة من ناحية ويحقق أرباحًا بزيادة فاعلية التوزيع والتسويق من ناحية ثانية، وأداء خدمات الترجمة بالأجر للمؤسسات والهيئات القومية والعالمية من ناحية أخرى».

وهنا أتساءل عن الرؤية التي تحكم المؤسسات الثقافية الحكومية المعنية بالترجمة، فهل التوزيع والربح هو الأساس الذي أنشئت لأجلهما هذه المؤسسات كي «تغطي نفقات تشغيلها» وتحقق الربح أم إن «نفقات تشغيلها» كمؤسسة حكومية تُحسب وفقًا لما تقدمه من خدمة، والربح يترجم وفقًا للدعم والإتاحة وهو دور من المفترض ألا أحد يستطيع القيام به غيرها. وهل دور المركز ترجمة الكتب وبيعها، أم أن هذه مهمة يمكن أن تقوم بها دور نشر خاصة ويقدم المركز لها الدعم المناسب في حالة ترجمة كتب لا تحقق أرباحًا كالكتب الفلسفية والأكاديمية؟ وإذا قام المركز بالتركيز على الربح، فإلى أين سوف ينتهي به المطاف؟ هل سينتهي به المطاف إلى شكل مشوه مختلط بين النشر الخاص الذي تحكمه آليات الربح والخسارة والنشر الحكومي الذي من المفترض إنه لا يعمل وفقًا للربح؟ أعتقد أن مشكلة غياب رؤية متكاملة لدور المؤسسات الحكومية هي العقبة الرئيسية أمام صناعة النشر ومن ثَم الترجمة. فقد كان من الأفضل أن تترك دور النشر الحكومية مهمة النشر وخاصة نشر الكتب المترجمة لدور النشر الخاصة ولا تنافسها في ذلك، وكان من الأفضل للقراء ولصناعة النشر أن تتجه المؤسسات الثقافية الحكومية إلى ما تقوم به المؤسسات الثقافية الحكومية في كل العالم: الترويج للمنتج الثقافي المحلي في الخارج والداخل ودعم المنتجين الثقافيين.

10

نتحدى نطاق الاختيارات المحدودة

محمد فتحي خضر

لو طُلب مني المشاركة في هذا الملف منذ ثمانية أشهر لما اختلف محتواه كثيرًا عن اليوم، باستثناء إضافة التأثيرات السلبية التي خَلَّفتها أزمة فيروس كورونا على سوق النشر والترجمة، والضبابية الشديدة التي تكتنف المشهد الحالي والمستقبلي، والتخبط، ومحاولة ابتكار حلول وطرائق بديلة لتخفيف وقع هذه الأزمة.

يواجه المترجم في عمله الكثير من التحديات، والعجيب في الأمر أن بعض أنواع التحديات تكون مُشبِعة ويسعد بها المترجم، وأعني تحديدًا التحديات الفنية، كأن يخوض المترجم مجالاً جديدًا عليه، أو يصادف نَصًّا قويًّا يستنفره ويخرج منه أفضل ما لديه. ومع الإقرار بحقيقة أن المترجم إنسان، وله احتياجات مادية، ويسعى إلى العثور على أفضل مقابل لعمله، فإذا نحينا العنصر المادي جانبًا، سنجد أن السبب الأساسي الذي يدفع المترجم إلى امتهان الترجمة هو حبه للقراءة والترجمة، ورغبته في نقل ما يقرأ ويستمتع به إلى الغير.

أقرب مجالات الترجمة إليَّ هي الثقافة العلمية، وبكل أسف لا يحصل هذا المجال على ما يستحق من الاهتمام. وفي ظل الهيمنة الطاغية لترجمة الروايات على المشهد، ثم كتب التنمية الذاتية، صار النطاق المتاح أضيق وأضيق، إلى درجة أنه توجد دور تقتصر في إصداراتها على الروايات وحسب، وهذا أمر مفهوم نظرًا إلى الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها هذا النوع، ورغبة دور النشر في تحقيق أفضل مبيعات ممكنة، لأنها في نهاية المطاف مشروعات هادفة للربح، لكن في النهاية أرى أن أنجح دور النشر هي تلك التي تتحرى التنوع في إصداراتها، ولا تقتصر على نوعية واحدة من النصوص.

تتلخص التحديات التي تواجهه المترجم عند التعامل مع جهات حكومية في تأخير الطباعة والنشر وسداد المستحقات

يتمثل أحد أكبر التحديات التي تواجه المترجم في اختيار العمل الذي يترجمه. فكثيرًا ما يكون نطاق الاختيار محدودًا، وفي أحسن الأحوال ليس في إمكان المترجم العمل إلا على كتاب واحد أو كتابين على الأكثر في الوقت نفسه، وعادة ما يكون لدى الناشر تصور مسبق عن نوعية الكتب التي يرى أنك، كمترجم، ستؤدي فيها بشكل طيب، وهكذا تجد نفسك أحيانًا أسير نوعية محددة من الكتب. وقد يحدث أحيانًا أن تكتشف أن ثمة عملاً كان من المناسب لك أن تترجمه ولكن بسبب الصورة المسبقة المأخوذة عنك فضل الناشر منحه إلى مترجم آخر.

وإذا قررت، كمترجم، أن تتحلى بالإيجابية واقترحت أنت عملاً تراه جديرًا بالترجمة على دار للنشر، قد تُفاجأ حينها بأن وجهة نظرك، كقارئ ومترجم، غالبًا ما تكون بعيدة عن حسابات صناعة النشر وحركة البيع والشراء، وكثيرًا ما يأتيك رد مهذب مفاده أن الكتاب المقترح قيم ولكن ببساطة الدار ليست مهتمة بهذه النوعية من الكتب.

وهناك بالطبع التحديات التي تواجهه المترجم عند التعامل مع جهات حكومية، والتي تتلخص في كونها، بحكم التعريف، حكومية، مثل التأخير في الطباعة والنشر وسداد المستحقات، وهو ما يصيب المترجم بالإحباط أحيانًا، ويدفعه إلى الإحجام عن التعامل معها.

على صعيد الحلول، لا أعتقد أن الحل عمومًا هو زيادة تدخل الدولة في عملية الترجمة والنشر بصورة مباشرة، اللهم إلا في حالة الأعمال التي قد لا تعود بالربح على الناشر الخاص، وأرى أن الحل يكمن في فتح المجال أمام دور النشر

والمبادرات الخاصة والمشروعات المستقلة والناشئة عن طريق تخفيض الرسوم والضرائب المفروضة على هذه الصناعة وتسهيل إقامة معارض الكتب وما إلى ذلك من آليات. ولعل أفضل دور تستطيع الدولة - بل وواجب عليها - القيام به هو مكافحة تزوير الكتاب، المترجَم وغيره، نظرًا إلى أن الخسائر المترتبة على هذا التزوير تسبب ضررًا فادحًا لدور النشر وتجعلها في سباق دائم للحد من الخسائر بدلاً من التفكير في التوسع. وفي ضوء التطورات الأخيرة ربما تصير هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى بعض دور النشر.

هناك نقاط مضيئة متمثلة في حرص بعض دور النشر على تنويع إصداراتها، ومنح المترجم قدرًا من الحرية أحيانًا في اختيار الأعمال، حسب مقتضيات سياسة النشر بالطبع، وهذا أمر مهم للغاية إذا كان لديك خطة، ولو عامة، لشكل ونوعية الأعمال التي تحب أن تحمل اسمك كمترجم، وأعتقد أن كل مترجم لديه خطة كهذه حتى لو لم تكن معالمها واضحة، لأنه في نهاية المطاف، وبعد انتهاء مهمة الترجمة وحصولك على المقابل وإنفاقه، على الفور غالبًا، فإن كل ما سيتبقى هو العمل الذي يحمل اسمك.

لا أحب اختتام كلامي بتوجيه «نصائح» أو توصيات، ولكن أرى أن على المترجم التحلي باليقظة على الدوام، وأن يتحرى التوفيق بين مقتضيات سوق النشر والترجمة من جهة، وطموحه الشخصي وأحلامه من جهة أخرى، وأن يعمل بصورة مستمرة على إذكاء الحماسة داخله وعدم السماح للظروف الضبابية أو غير المواتية بأن تطفئ طموحه، وهي مهمة تزداد مشقة يومًا بعد يوم.

تبقى الترجمة مهمة غير سهلة في أي من السياقات الثقافية.. الترجمة ليست مهنة مريحة أو مربحة في معظم المجتمعات

11

الترجمة عن العبرية.. سباق قفز الحواجز

محمد حسني

نحن نتعلم لغة..
أنا أتعلم الإنجليزية.
أنت تتعلم الأسبانية.
هو يتعلم الألمانية.
..
تعلم اللغات مثير للإهتمام.
نريدأن نتفاهم مع الناس.
.. ما مهنتك؟
أنا مترجم.
أنا أترجم كتبًا.

المقاطع السابقة من دروس موقع جوته[1] 50Languages. وهي محادثة بسيطة تدور مع أي شخص يتعلم لغة أجنبية، وقد تتبعها أسئلة عن العمل، والسفر، وربما الأدب والسينما..

لكن بالنسبة لي، وطيلة 24 عامًا، من دراسة العبرية، لم تدُر قط بمثل تلك البساطة.

تتباين الانطباعات من الدهشة والاستنكار والإعجاب، وبين من يطري على معرفتك بلغة «العدو» وبين من يحيي «دعمك للسلام».

آخر تعليق قابلته، عندما أضفت فيلما إسرائيليًا إلى ألبوم المشاهدات على فيسبوك:

-«أنت ليه بتتفرج على أفلام إسرائيلي»؟

= «أنا دكتور.. مدرس في الجامعة، قسم لغة عبرية»

-«أيوة.. وليه بتتفرج على أفلامهم؟»

مشوار مترجم العبرية هو سباق قفز حواجز، حواجز المعرفة، وحواجز الضمير، وحواجز لقمة العيش.

الخطوة الأولى: في البدء.. كان الفضول..

وبالأدق كان الفضول في ظل التخبط

يترسخ لدي أن الخطأ الفادح الذي ننزلق فيه هو التعامل الدائم مع كل ما يتعلق بإسرائيل باعتباره «خاص» و«غير عادي»، ومع الانغماس أكثر فأكثر في التفاصيل والجزئيات، أمسينا غارقين حتى الأذنين في بركة عكرة

هو الدافع لاختيار دراسة العبرية بين اختيارات ربما كانت وقتها أفضل (وبالطبع تأكد الآن أنها الأفضل). في الأغلب يتعلم الناس اللغة من أجل التعرف أكثر على أهلها، أما «اعرف عدوك» فهو الاستثناء.

أما عن العمل، فكل الأحلام المرسومة تظل بين الأقواس هي العمل في الترجمة التحريرية في المؤسسات الإعلامية الحكومية أو العسكرية.. وأعلاها الترجمة الفورية[2] في الرئاسة. وقبل أن اسمع حتى كلمة «التطبيع»، عرفت أن نوعية السائح الإسرائيلي في أغلبها لا تحتاج أو لا تريد مرشدًا سياحيًا، كما لم نكن نعرف بعد أن هناك شركات تتعامل مع إسرائيل.[3]

حواجز غير عادية: كيف نتعلم

بوطئك بلاطات قسم اللغة العبرية، وبملاحظة أنك لم تزل في تسعينيات القرن الماضي، فإن هناك حواجز أخرى، غير اعتيادية بالمقارنة بدارس أية لغة أخرى. أولها هو الحصول على مادة مطبوعة أو صوتية باللغة العبرية، والحصول على قواميس وكتب. لا يوجد أمامك سوى مكتبتين بجامعتي القاهرة وعين شمس، أحدث ما فيهما منذ 15 سنة فأكثر، أو رحلة إلى «أرض الخوف»-المركز الأكاديمي- ولتتحمل العواقب الأمنية، مثل الاستدعاء، ورفض التعيين في وظيفة حكومية.

حواجز طبيعية:

يواجه أي مترجم، منذ بداية دراسته للغة مشكلات عدم التطابق بين لغة المصدر(التي يترجم عنها) ولغة الهدف (التي يترجم إليها)، وهو أمر متوقع بالبديهة، فعلى المستويات الصرفية والنحوية والأسلوبية، لا تتطابق اللغات في الضمائر والأدوات، الأعداد، تصريف الأفعال، تركيب الجملة..إلخ[4]

وعن العبرية بوجه خاص فإن علاقتها الطبيعية بالعربية أقوى

من أية لغة أخرى فاللغتان من أصل واحد، لغتان ساميتان، وفي العصور الوسطى، (تُرجم) عدد ضخم من الأعمال الفلسفية والعلمية من العربية والعبرية اليهودية[5] إلى العبرية. يتجاوز التشابه بين اللغتين الكلمات الأساسية مثل أعضاء الجسم والأفعال الأساسية... إلى المجازات والاستعارات وعدد من المفاهيم الثقافية، والحكم والأمثال،[6] التي ترجع لمراحل تاريخية متقدمة.

لغة ذات تطور خاص:

لقرون طويلة، لم تعد العبرية لغة استعمال يومي، واقتصرت على الكتابات الدينية والصلوات -إلى جانب الآرامية التي بسطت نفوذها على اليهودية- وفي «عصرها الذهبي» في البلدان الإسلامية بالعصور الوسطى، تطورت كلغة مكتوبة وحسب.

تم «إحياء» العبرية بشكل مغاير، أولًا كلغة كتابة في عصر التنوير، ثم طرحت فكرة تطويرها كلغة للحديث بين المستوطنين بديلًا للغة اليديش[7] المقترنة بـ«الشتات». وقد ضم المشروع الصهيوني مستوطنين يتحدثون «لغات أم» متعددة، حتى الأجيال المولودة في فلسطين، ظلت تتعامل بلغاتها الأصلية في المنزل.

اتسمت لغة الصحافة، وبنسبة متزايدة لغة الأدب الآني، خصوصا في ظل وسائط النشر الرقمية، بزوال الحدود بين لغة الكتابة ولغة الحديث. فعلاوة على التأثير الكبير للغات الأوروبية في مستويات الأسلوب والدلالة، تجد تعبيرات اللغة الدارجة، بما في ذلك الكلمات العربية، طريقها إلى لغة الكتابة، وبشكل سريع. يشكل هذا تحديًا لمترجم العبرية، الذي يحتاج وبشكل حيوي للمتابعة الدائمة للغة وتطورتها.

اللغة والفكر

«اللغة وعاء الفكر»، أي أنه لا يمكن دراسة اللغة بمعزل عن ثقافة المتحدثين بها، التي لا تعد مجرد خلفية بل هي متداخلة في نسيج اللغة.

لا يعاني الدارس من ندرة الكتب العربية المتعلقة، بل على العكس، ففي

رغم الإحباط

من المردود المادي،

هناك شيء بداخلي

يتمسك بحقي في

المعرفة المجردة من

أية اعتبارات مسبقة أو

أهداف متوقعة، أن اقرأ و

أسمع وأشاهد..

أن أترجم ما تحلو لي

ترجمته دون حيثيات

هذا المجال بالذات فإن «كل من يؤمن بالله واليوم الآخر(أو حتى لا يؤمن) لا يقل خيرًا، ولا حتى يصمت» أو كما علق البعض «مهنة من لا مهنة له» فتجد كما مهولًا من الكتب التي تعج بالأخطاء والمغالطات، والتنميط المتواتر. وبينما أسهمت ثورة المعلومات في سرعة وكثافة تدفق المعلومات، فإنها فعلت الأمر نفسه بالنسبة للغث والسمين على حد سواء، وهو ما يمثل مشكلة حقيقية أمام الدارس الغض.

«سوق» العمل

ظل سوق العمل مرتبطًا بالمؤسسات الإعلامية الحكومية، ومعظمه في الترجمة الصحفية، وقليل منه في التحليل والدراسات، بينما سيطر على الجانب الأخير باحثين في مجالات التاريخ والسياسة لا يعرفون العبرية. ولم يؤد الانفتاح في إصدار الصحف المستقلة ثم المواقع إلى نقلة ملموسة في سوق العمل في الترجمة العبرية.

في 2005 تحديدا ظهر متغير جديد، في سوق العمل، ألا وهو «خدمة العملاء»، في شركات تستخدم قوى بشرية (اللفظ الأنيق لمقاول الأنفار) وتحصل، بفضل تطور تقنيات الاتصالات، على عقود من أكبر الشركات في العالم لتشغيل قطاعات خدمة العملاء باللغات المختلفة، بدءًا من حجوزات الفنادق والطيران ومرورًا بخدمات الإنترنت والمحمول ووصولا للأجهزة الإلكترونية. وتستفيد تلك الشركات من فارق السعر الذي تحصل عليه بالعملة الأجنبية، مقابل رِخص القوى العاملة المصرية. علاوة على العقود المؤقتة، ليتكلّس الخريج الذي يظل يكرر جملًا بعينها، ولا يراكم خبرة أو مسارً مهنيًا حقيقيًا كمترجم..

وما يزيد عن ذلك بالنسبة لدارسي العبرية بوجه خاص، أنه يمثل تحولًا حادًا لما كان يعتبر مسلمات تتعلق بهذا الحقل من الدراسات، سواء باعتباره مرتبطا بقضية قومية، أو ارتباط العمل بمؤسسات ذات طبيعة خاصة.

هناك من لم تكن لديهم مشكلة بالمرة، بل وتلهفوا على العمل في شركات عملاؤها من الإسرائيليين. لم يكن ذلك حال الجميع، فقد ذكر لي أحد الخريجين الواعدين أنه لم يستطع أن يتحمل الضغط النفسي، ومع المرتب المغري، وفي ظل شح الفرص البديلة، قرر انه لن يستمر. وهل كان سيُلام لو استمر؟!

صديق آخر، حدثني عن تجربة طويلة في العمل في شركة سياحة ثم في شركة خدمة عملاء. في البداية لم يكن مستوعبا الأمر، لكنه كان العمل المتاح، ضغط نفسه للتأقلم مع الأمر باعتباره «شغل» كما أن معاملة زبائنه كانت طيبة. حسب خبرته، يعتقد المتصلين في البداية أن الموظف إسرائيلي مهاجر، إذ من الشائع أن تؤثر اللغة الأم على لكنة المهاجرين لأكثر من جيل. لدى معرفة المتصل الإسرائيلي أن الموظف مصري ويتحدث من القاهرة، كان يندهش أحيانا بينما يعبر بعضهم عن ترحيبه، لم تصادفه ردود فعل عدوانية أو مهينة.

سألته: «منذ عشرين عامًا، عندما كنا طلابًا، هل كنت تتمنى ذلك؟»

رد: «بالطبع لا..».

فرس الحنطور

في النظام الرأسمالي، الربح هو المحرك الأساسي لكل التفاعلات، من هنا يصبح «الدارس = منتَج» في سوق العمل، وعلى كل المؤسسات أن تخرج «المنتج» الملائم لـ«سوق العمل». فالنظام يحدد لكل شخص، ومن بينهم المترجم ماذا يعمل، وقبل ذلك ماذا يجب عليه أن يكون باعتباره «منتجًا» ليكون «مطلوبا» في «سوق

نسب الترجمات الكاملة لأعمال مترجمة من العبرية عن العربية قليلة جدا مقارنة بأعداد المتخصصين، والمعايير الأكاديمية لا تعتد بالترجمات من بين مؤهلات الترقية

العمل. و«سوق» الترجمة في مصر شديد القسوة، ومرتبط بالعمل ضمن مؤسسة.

ظلت المؤسسات الرسمية محافظة في معظم إنتاجها على الخط السائد، سواء في الترجمة الصحفية، أو ترجمة الكتب. تجاريها دور النشر الخاصة، تخوفًا من تهمة التطبيع، إذ يجب ان تكون الأعمال مواكبة لذلك، حتى لو تم افتعاله، ويجب أن تكون المقدمة «اعتذارية» ومدعومة بكلمات التحليل والتشريح والكشف أو «الفضح». لا تستطيع أن تترجم رواية لأنها اعجبتك، أو أن لها قيمة أدبية، ولن تقدم قراءة أو تحليل من زاوية غير «اعرف عدوك».

هكذا، نجد أن نسب الترجمات الكاملة لأعمال مترجمة من العبرية عن العربية قليلة جدًا مقارنة بأعداد المتخصصين وليس الخريجين فحسب. والجدير بالذكر أن المعايير الأكاديمية لا تعتد بالترجمات من بين مؤهلات الترقية، بغض النظر عن أهمية الكتاب وحجمه وعلاقته بالتخصص، وهو ما يصرف الأكاديميين عن الترجمة.

الترجمة والملكية الفكرية.. «خشبة حبشي»:

إن أردت نشر ترجمتك فمرحبًا بك

عليك الحصول على حقوق الترجمة من المترجم/ أو دار النشر

ولكن لو أنك حصلت عليه فإنه يعني «التطبيع»

عليك أن تجرب إحدى ألعاب السيرك:

مروض الوحوش: أن تجد دار نشر مستعدة لقبول التحدي ونشر الكتاب وفقا للشروط المتبعة، أي أن تراسل المؤلف أو دار النشر للحصول على موافقة رسمية.

لعبة الإخفاء: نشر الترجمة وتجاهل حقوق النشر والتأليف، وينجح أكثر مع المطابع المجهولة والطبعات المحدودة.

الساحر: البحث عن ترجمة أخرى للعمل نفسه، وليكن بالانجليزية على سبيل المثال، وفي حالة الحظ السعيد يتسنى الحصول منها على موافقة على الترجمة للعربية، بينما العمل مترجم عن الاصل العبري.

البهلوان: يتم تغيير اسم العمل أو كتابته كعنوان فرعي، وكتابة مقدمة وخاتمة واعتبار العمل دراسة.

تجاوز ذلك الحاجز لا يعني الحصول على عائد يوازي الجهد المبذول في الترجمة. ويؤيد ذلك نائل الطوخي(8) الأديب والمترجم، وهو زميل دفعتي، أن الترجمة في حد ذاتها تمثل له تحديًا ومتعة، كما أن النشر يتوج مجهوده بإخراجه للقراء، وهو ما يعوض ضعف المردود المادي. نشر نائل ثلاثة أعمال مترجمة، آخرهم وأشهرهم رواية «تشحلة وحزقيل» لألموج بيهار، وأشار أن استقبال الترجمة كان مُرضيًا رغم صعوبة أسلوب الرواية الأصلية، وأن هناك من تفاعلوا مع العمل بشكل جيد، بينما يظل هناك أيضًا القارىء الذي تبحث عيناه عما هو سياسي دائما في الكتاب المترجم عن العبرية.

كيف يستحضر التيمم ويبطل الماء؟!

بسبب أحجية الملكية الفكرية، بات من شبه المحال نشر كتب مترجمة عن العبرية، عبر مؤسسة كبيرة، بينما تكون الابواب مفتوحة لأعمال تتعلق بإسرائيل بلغات أخرى، أو الترجمة عن ترجمات لأعمال كتبت في الأصل بالعبرية. من أقرب الأمثلة مؤلفات المؤرخين الجدد، وهي شديدة الأهمية من حيث المنهج أو نشر الوثائق، إذ ترجمت عن الانجليزية والفرنسية.

في السنوات الأخيرة، بدأ المشروع القومي للترجمة نقل الكتب التي ألفها اليهود في العصور الوسطى بالعربية اليهودية، من الأحرف العبرية للعربية. وكنت قد استطعت شراء كتاب حديث ينشر للمرة الأولى، فكان رد الموظف المسؤول عن النشر أن تاريخ النشر يجب أن يمر عليه او على وفاة محرره 50 عاما، والبديل أن أحصل على المخطوط الأثري نفسه.

صرفت النظر عن احتمالية الحصول على عائد. فكرت.. لماذا لا يكون هناك مشروع جماعي، ولماذا لا يمارس الطلاب الترجمة عمليًا، طرحت الفكرة على زميلين فتحمسا، قدم أحدهم كتابًا وُزع على 15 طالبًا متميزا. استطاع 13 منهم إتمام الترجمة، كان السبق في إنجاز ترجمة كتاب خلال شهرين ونصف الشهر، وأن يقوم بالترجمة طلاب بالفرقة الثالثة. نُشر نصان فقط من بين نصوص الكتاب في عددي المرايا رقم 1 ورقم 14.

الإدراك.. الخروج من البركة

بعد سنوات من الدراسة الأكاديمية، أخذ يترسخ لدي، أن الخطأ الفادح الذي ننزلق فيه، هو التعامل الدائم مع كل ما

يتعلق بإسرائيل باعتباره «خاص» و«غير عادي»، بتلك الرؤية، ومع الانغماس أكثر فأكثر في التفاصيل والجزئيات، أمسينا غارقين حتى الأذنين في بركة عكرة، تتضافر مع تاريخ الهزائم والتراجع لتتركنا في حالة عجز حتى عن التفكير في أية احتمالات لتغيير الوضع القائم.

إن إسرائيل، ومع كونها دولة غير اعتيادية إلا أنها ليست فوق التاريخ، وتحليل عناصر تلك الظاهرة مقترنة بسياقاتها الأوسع، سيسفر عن الحجم الواقعي لها، كصورة مصغرة من الاستعمار، حتى في أدق تفاصيلها التي قد نعتقد بخصوصيتها، فعلى سبيل المثال، كان توظيف رواية العهد القديم، بل وحتى فكرة «العهد» و«الشعب المختار»، كانت فكرة استعمارية أوروبية قبل قرون من ظهور الصهيونية.

إنه الحاجز الأخير

في الناحية الأخرى هناك أناس عاديون فيهم الخير والشر، لا هم أعظم قدرة ولا هم أدنى خلقة. والوقوف ضد الظلم لا يحتاج لخلق أيقونات ولا تنميطات لأنه واضح لكل ذي عينين. يمكن أن اكون ضد الاحتلال دون أن أعتبر «الإسرائيلي= سوبر شرير» وكفى.

ورغم الإحباط من المردود المادي، هناك شيء بداخلي يتمسك بحقي في المعرفة المجردة من أية اعتبارات مسبقة أو أهداف متوقعة، أن اقرأ وأسمع و أشاهد.. أن أترجم ما تحلو لي ترجمته دون حيثيات ودون اعتذاريات، أن أجد طريقي إلى قارىء دون أن أفرض وصايتي ووصاية جيل أقدم على عقله، وأن أحرمه من تبني موقف من خلال الفهم والإدراك وليس الترديد.

ترجماتي: «أصداء الهوية.. الجيل الثالث يكتب بهوية شرقية»، تحرير ماتي شموئيلوف ونفتالي شيم - طوف - صدر فصلان من الكتاب في عددي المرايا 1، 14. والبقية قيد النشر الرقمي.

«قصائد إلى أسرى السجون»، ألموج بيهار، معد للنشر الرقمي، مدونتي الخاصة «ترجمان»

يهود مصر التاريخ الشفوي، قيد المراجعة.

---

(1) www.goethe-verlag.com.

(2) للدقة هي ترجمة تتبعية، كما أدركت فيما بعد.

(3) حتى تفجرت قضية الجاسوس عزام عزم، بعد اكثر من 10 سنوات عرفت أنه جاسوس صناعي.

(4) وكمثال للتوضح (it) بالإنجليزية ضمير يشير إلى غير العاقل بينما لا يوجد ضمير مقابل بالعربية، وفي اليابانية أكثر من ضمير للمخاطب بحسب درجة القرب من الشخص.

(5) العربية اليهودية: كتابات خاصة بالجماعات اليهودية، بلغة عربية بحروف عبرية.

(6) يمثل ذلك حاجزًا كبيرًا في بعض اللغات، ومثالًا، على قدر معرفتي المتواضعة، قد يستخدم الفعل «ينبح» في الصينية كاستعارة للمواجهة بشجاعه، كما أن «الدب» في الثقافة الصينية هو مثال للقوة والشجاعة، أي انه يقابل الأسد في ثقافتنا.

(7) اليديش: لغة ألمانية وسيطة كُتبت بأحرف عبرية، وامتزجت بكلمات عبرية وآرامية، وبلغات سلافية.

(8) نائل الطوخي أديب ومترجم عن العبرية، بخلاف الترجمات القصيرة نشر ثلاثة كتب مترجمة:

- من النكبة إلى غزة.. هو لا يزال احتلالا، دار العين، 2009
- الأمة والموت.. عن صناعة الهولوكست وصناعة إسرائيل، القاهرة، دار ميريت، 2010
- تشحلة وحزقيل، القاهرة، دار الكتب خان، 2016

عشرون عامًا على تأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة

يحيى فكرى

تواريـــخ

20

عـــامًا

على تأسيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة

يحيى فكري
صور: عادل وسيلى

صحونا ذات صباح جميل لنجد الشوارع تهتف لفلسطين. وصِرنا جميعًا يغمرنا شعورًا مختلفًا في مطلع الألفية الجديدة، هكذا أصبحنا نحدث أنفسنا بأن رياح التغيير تهب، وأن فجرًا جديدًا يبزغ بعد ليل طويل. وعدنا لنغني «صباح الخير على الورد إللي فتح في جناين مصر»!
كان قد مرّ ما يقرب من عشرين عامًا على حكم مبارك، وتزداد الأحوال في مصر تعاسة وركودًا. لم يعد هناك من يرى أية مشروعية لذلك النظام الشائخ الفاسد، خاصة وقد باتت تعصف به الأزمات من كل حدب وصوب.

نظام يغرق في أزماته

لقد دخل نظام مبارك في نهاية التسعينات في أزمة مركبة، متعددة الجوانب، أهمها الجانب الاقتصادي. فبدءًا من عام 1998 حدث تدهور شديد في كل المعدلات الاقتصادية، ما قوض كل الأوهام التي روجوا لها في منتصف التسعينات، عند بداية تطبيق سياسات الخصخصة والنيوليبرالية، بأن مصر هي «النمر الشرق أوسطي الصاعد».

هكذا شهد مطلع الألفية انهيار شديد في معدلات النمو وارتفاع العجز في ميزان المدفوعات وتراجع الاستثمارات الأجنبية، وخلال عام 2001 خسر الجنيه المصري أكثر من ثلث قيمته أمام الدولار، ووصل مجمل الانخفاض في سعره عند بداية التعويم عام 2003 إلى حوالي 80%. وكتبت مجلة الإيكونوميست (أهم الدوريات المعبرة عن تقديرات الرأسمالية العالمية) في عدد يناير 2002 : «مصر التي وُصفت في منتصف التسعينات بالنمر الاقتصادي، تبدو الآن كتمساح تساقطت أسنانه، فعبر انهيار سعر الصرف، وأسعار الأسهم والعقارات، انخفض حجم الثروة في مصر بمقدار النصف خلال الأعوام الثلاثة الماضية. وأدى هروب رؤوس الأموال والسياسات الخاطئة إلى انهيار الاستثمارات الأجنبية بمقدار الثلثين بينما ارتفعت البطالة لتصل إلى 20% وفقًا للتقديرات غير الرسمية ومن المنتظر أن تزيد بسبب الأزمة الاقتصادية وبالتالي لن يجد 800 ألف يدخلون إلى سوق العمل سنويًا أي فرصة عمل».

وبالطبع كان الأثر المباشر لذلك هو تردي الأحوال المعيشية للأغلبية الساحقة من المصريين. هكذا

ارتفعت الأسعار، وازدادت معدلات الفقر، وتهاوت خدمات الصحة والتعليم والمواصلات ومجمل الخدمات والضمانات الاجتماعية. وبعد حوالي عشر سنوات من بداية تطبيق برنامج الإصلاح الاقتصادي، وما نتج عنه من إفقار متسارع للجماهير، بات هناك شعورًا عامًا بفقدان الأمل، وغضبًا مكتومًا يبحث عن طريقه للانفجار.

والمؤكد أن عام 2000 كان عامًا تعيسًا على مبارك ونظامه، فلم يقتصر الأمر على التدهور الاقتصادي، وإنما شهد في منتصفه فشل مفاوضات كامب دايفيد الثانية بين عرفات وباراك (رئيس الوزراء الإسرائيلي) برعاية كلينتون. وهو ما قوض بشكل نهائي مشروع السلام الفلسطيني الإسرائيلي، الذي بدأ باتفاقية أوسلو عام 1993، وكان نظام مبارك عرَّابه والمروج الرئيسي له. وشهد نهاية العام صعود اليمين في الولايات المتحدة وإسرائيل بفوز بوش وشارون، وبدأ بوش وعصابته –حتى قبل توليهم الحكم- في إطلاق سهامهم الحادة ضد مبارك ونظامه بصفته المسؤول من وجهة نظرهم – بسبب فشله وركوده وفساده واستبداده- عن تزايد العداء لأمريكا في المنطقة.

هكذا خسر مبارك دعم الإمبريالية له في وقت كانت فيه تلك الإمبريالية تدق طبول الحرب على أفغانستان والعراق، وتستعد للتدخل بجيوشها في المنطقة. هذا بينما احتدمت الأمور في مواجهته بانفجار الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة الأقصى) ومظاهرات التضامن معها في كل ربوع مصر. وأصبح يسود شعورًا عامًا أن الشارع المصري لم يعد قابلًا لاستمرار الحال على ما هو عليه.

عالم يتغير

في نوفمبر عام 1999 –عشية ميلاد الألفية- انطلقت في مدينة سياتل بالولايات المتحدة مظاهرات حاشدة ضد مؤتمر منظمة التجارة العالمية، فيما اعتبر ساعتها إعلانًا عن ميلاد حركة مناهضة العولمة الرأسمالية. هذه الحركة التي تواصلت فيما بعد باتساع مطرد عبر عدة محطات كبرى شهيرة من سياتل إلى جنوة إلى بورتو أليجري، ودمجت في مسارها مناهضة الحرب مع مناهضة العولمة، ونظمت في فبراير عام 2003 مظاهرات عالمية حاشدة للمطالبة بإيقاف الحرب على العراق.

صعود حركة مناهضة العولمة مَثَّلَ انعطافة هامة في الصراع الطبقي العالمي ساعتها، ليس فقط لقدرتها على تنظيم حشود عالمية كبيرة، وإنما أيضًا لأنها انطلقت، ولأول مرة منذ عقود، في مواجهة الرأسمالية العالمية ومؤسساتها: منظمة التجارة العالمية والصندوق والبنك الدوليين. وتجاوزت بذلك المطالب العالمية الجزئية مثل انقاذ البيئة أو اسقاط ديون العالم الثالث، وإن كانت قد حشدت في مسارها كل الحركات والجماعات التي تناضل من أجل مطلب أو آخر: الخضر، وأنصار البيئة، والحركات النسائية، واتحادات الفلاحين، والنقابات العمالية، والمنظمات غير الحكومية، والفوضويين، والاشتراكيين الماركسيين بمختلف تياراتهم، وبالطبع حركة أوقفوا الحرب. ولقد خلق هذا الزخم الشديد للحركة حالة من التجذير السياسي واسع النطاق على امتداد قارات العالم الخمس لسنوات تالية.

وبعد أقل من عام من مظاهرات سياتل، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية، وأدت إلى تفجير حركة تضامن

واسعة معها، وانطلقت مظاهرات عارمة في عديد من العواصم العربية الكبرى تهتف لفلسطين والقدس والانتفاضة وتدين التخاذل العربي. وهكذا لعبت الانتفاضة على الساحة العربية نفس الدور الذي لعبته حركة مناهضة العولمة على الساحة العالمية، أي خلقت حالة من التجذير السياسي في مختلف بلدان المنطقة.

ففي يوم الخميس 28 سبتمبر عام 2000 اقتحم شارون باحات المسجد الأقصى تحت حماية نحو ألفين من جنود الاحتلال الإسرائيلي. وأعلن أن الحرم القدسي سيظل منطقة إسرائيلية، ما استفز الجماهير الفلسطينية وأدى إلى خروج مظاهرات احتجاج كبيرة ووقوع مواجهات دموية في مختلف مدن الضفة وغزة. وفي يوم السبت 30 سبتمبر عرضت قناة تليفزيون فرنسية شريط فيديو لعملية اغتيال الطفل محمد الدرة الذي كان يحتمي بجوار أبيه ببرميل أسمنتي في شارع صلاح الدين جنوبي مدينة غزة. هذه اللقطات المصورة التي تحولت إلى أيقونة الانتفاضة وأثارت مشاعر عشرات الملايين من العرب ضد همجية الاحتلال الصهيوني.

وفي يوم الأحد 1 أكتوبر تجمع آلاف الطلبة في ساحات جامعتي القاهرة وعين شمس، حول معرضين نظمهما الطلاب الاشتراكيون احتجاجًا على ما يجري في الأراضي المحتلة. وقد دفع زخم الأحداث والغضب مما يجري الطلاب للاحتشاد بشكل عفوي، وتطور الأمر سريعًا لتتحول الحشود الاحتجاجية إلى مظاهرات كبيرة تقتحم البوابات الحديدية للجامعتين وتخرج إلى الشارع، في سابقة كانت الأولى من نوعها منذ سنوات -ما يقرب من عشر سنوات على الأقل، عندما خرجت مظاهرات احتجاج طلابية ضد الحرب الأولى على العراق (حرب تحرير الكويت).

وعلى امتداد شهري أكتوبر ونوفمبر عام 2000 لم تتوقف المظاهرات الطلابية للتضامن مع الانتفاضة في مختلف المدن المصرية. وامتدت الحركة من طلاب الجامعات إلى طلاب المدارس، وهو حدث شديد الدلالة، لأنه يكشف عن انتشار الغضب داخل فئات

اجتماعية أوسع. وتحولت مظاهرات طلاب المدارس إلى طقس شبه يومي في أحياء وبلدات عدة، وارتفع وسطهم هتاف شهير مقتبس من هتافات جماهير كرة القدم: «واحد اتنين الجيش المصري فين»! وبالطبع كان الهدف من المطالبة بتدخل الجيش في هذا الهتاف ساعتها هو إنقاذ الشعب الفلسطيني، وليس فرض حكمًا عسكريًا على الشعب المصري.

كما شهدت مظاهرات أكتوبر ونوفمبر حدثًا آخر غير مسبوق أيضًا، عندما ارتفع وسط حشود الطلبة في ساحة جامعة القاهرة هتافًا يتحدى مبارك لأول مرة منذ توليه السلطة: «يا علاء قول لأبوك.. كل الطلبة بيكرهوك»! هذا التحدي الذي كشف عن الغضب المكتوم، وتطور عبر السنوات التالية إلى معركة للتغيير الديمقراطي انتهت بثورة يناير المجيدة وإسقاط مبارك.

تأسيس اللجنة الشعبية

شهدت مصر طوال عقد التسعينات حالة من الركود السياسي وخفوت في حدة النضالات الاجتماعية، اللهم إلا من النذر اليسير، وهو وضع نتج عن شروط عديدة محلية وإقليمية وعالمية، ليست محل نقاش هنا. إلا أن زخم مظاهرات التضامن مع الانتفاضة خلق صحوة سياسية، وأصبح هناك جيلًا جديدًا يندفع إلى ساحات النضال، ودماءً جديدة تتدفق في شرايين الحركة.

وطوال الأسابيع الأولى منذ انطلاق الانتفاضة لم تتوقف أشكال التضامن معها، فإلى جانب المظاهرات نُظمت عدة مؤتمرات حاشدة للتضامن في: نقابة الصحفيين، وحزب التجمع، وعدد من المواقع المحلية في شمال القاهرة ومدينة نصر ومدينة السويس ومدينة العريش؛ كما صدر عدد كبير من البيانات السياسية من قوى ومؤسسات تعلن عن تضامنها مع الانتفاضة.

وفي يوم الجمعة 13 أكتوبر عام 2000 دعا مركز النديم لتأهيل ضحايا العنف والتعذيب إلى اجتماع موسع في مقره، حضره عدد كبير من المناضلين السياسيين والشخصيات العامة، غالبيتهم العظمى من اليسار بمختلف تلاوينه، للبحث في كيفية دعم الانتفاضة وسبل التضامن معها. وتم في هذا الاجتماع تأسيس «اللجنة الشعبية المصرية لدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني». وبعد عدة أيام أعلن مركز هشام مبارك للقانون عن استضافة اللجنة، بحيث تمارس نشاطها من مقره على كورنيش النيل في الملك الصالح.

واتفق المجتمعون في مركز النديم على مهمتين أساسيتين للجنة: الدعم السياسي والدعم المادي، وصدر عنهم بيان تأسيسي يتضمن هذا الإطار. وفي أول اجتماع داخل مركز هشام مبارك تقرر إصدار عريضتين لجمع التوقيعات عليهما، الأولى موجهة لأمين عام الأمم المتحدة تطالبه بتفعيل القرارات الدولية المساندة للشعب الفلسطيني، والثانية موجهة لرئيس الجمهورية تطالبه بقطع العلاقات مع إسرائيل. كما تقرر العمل على تنظيم حملة لجمع توقيعات شعبية على العريضتين، وتقرر أيضًا البدء في جمع تبرعات عينية وتسليمها إلى اللجان الشعبية في فلسطين.

ولأن الشهور الأولى من الانتفاضة شهدت تعاطفًا واسعًا من جانب الجماهير المصرية، وحماسة شديدة للتضامن معها، لذا حققت المهام العملية التي ألقتها اللجنة الشعبية على نفسها نتائج باهرة. والحقيقة أن الإعلام لعب دورًا مركزيًا وقتها في إلهاب حماسة

الجماهير المصرية، وساهم بالأساس في ذلك قناة الجزيرة القطرية، وقناة النيل الإخبارية التي كانت تتمتع ساعتها بروح شبابية ودرجة من الاستقلالية. كما ساهم أيضًا برنامج «رئيس تحرير» للإعلامي حمدي قنديل بشكل رئيسي في الدعاية والتعبئة للجنة الشعبية.

هكذا نجحت اللجنة في جمع كميات هائلة من التبرعات العينية خلال وقت قصير، اشتملت على مواد غذائية جافة (دقيق، وأرز، وسكر، ولبن مجفف، الخ) وأدوية ومستلزمات طبية. وبالطبع كان هناك نشاطًا مركزيًا لجمع التبرعات يديره مركزي النديم وهشام مبارك وعدد من قيادات اللجنة، إلا أن الحدث الأهم، وبالغ الدلالة، هو النشاط المحلي الواسع لجمع التبرعات في الأقاليم، خاصة المدن والبلدات الريفية في الوجه البحري، الذي ارتبط بزخم الانتفاضة والحماسة الشعبية للتضامن معها، والذي لعب دورًا هامًا في تعبئة الجمهور حول اللجنة.

وقررت اللجنة تنظيم قافلة إغاثة لتسليم التبرعات، وتوجهت بخطاب رسمي إلى وزير الخارجية لتسهيل مهمتها، فجاءها الرد من عمرو موسى –وزير الخارجية- محييًا ومباركًا، فيما اعتبر اعترافًا رسميًا بها. وخرجت القافلة الأولى يوم 26 نوفمبر عام 2000، لكنها مُنعت من الوصول إلى رفح وتسليم التبرعات إلى اللجان الشعبية الفلسطينية، واضطروا إلى تسليمها لمسئول السلطة الفلسطينية في العريش على غير ما كان مخطط له. إلا أن حملات جمع التبرعات تواصلت بنفس الحماسة والزخم استعدادًا لتجهيز قوافل تالية.

على جانب آخر قامت اللجنة بتوزيع العريضتين بشكل واسع لتجميع التوقيعات عليهما، ونظمت مجموعة من الفعاليات المتنوعة (ندوات، أمسيات فنية، الخ) في مواقع عديدة لجمع التوقيعات. وبعدما نجحت في جمع أكثر من ربع مليون توقيع، قام وفد كبير من أعضاء اللجنة يوم 28 فبراير عام 2001 بتسليم التوقيعات على العريضة الموجهة لأمين عام الأمم المتحدة في مقر المركز الإعلامي للأمم المتحدة بجاردن سيتي. وبعدها قام الوفد بتسليم التوقيعات على العريضة الموجهة إلى رئيس الجمهورية في قصر عابدين بصحبة اثنين من أعضاء البرلمان هما حمدين صباحي وعبد العزيز شعبان، وفي حضور زكريا عزمي رئيس ديوان رئيس الجمهورية.

وخلال عام 2001 نظمت اللجنة سبعة قوافل تحمل تبرعات من الأغذية والأدوية لدعم الانتفاضة. وفي يوم 10 سبتمبر 2001 نظمت اللجنة مظاهرة أمام مجمع التحرير، دعت إليها بصفتها تجمع لوفد شعبي لتسليم رسالة احتجاج إلى السفارة الأمريكية. هذه المظاهرة كانت أيضًا –بمعنى ما- جديدة من نوعها، فهي لم تكن تحرك جماهيري عفوي، وإنما كانت تجمهر تم بناءً على دعوة من قوى سياسية منظمة، وهو حدث غير مسبوق منذ سنوات طويلة.

وهكذا افتتحت مظاهرة 10 سبتمبر سلسلة طويلة من المظاهرات والتجمهرات، تمت جميعًا بناءً على دعوات من قوى سياسية، طوال السنوات التالية وحتى انطلاق ثورة يناير المجيدة. وخلال المظاهرة ارتفع أيضًا لأول مرة هتافًا شهيرًا ظل يتردد بعدها لسنوات: «يسقط.. يسقط.. حسني مبارك»! الذي بادر به الاشتراكيون الثوريون يومها.

تهافت المعارضة السياسية

لكي ندرك حجم الدور الذي لعبته اللجنة الشعبية، ومدى تأثيرها، علينا أولًا التعرف على حدود الحركة السياسية في ذلك الوقت. ولو حاولنا رسم خريطة لقوى المعارضة السياسية المصرية وأحوالها في مطلع الألفية، سنجدها على الوجه التالي:

هناك أحزاب المعارضة الشرعية القائمة (أهمهم أحزاب التجمع والوفد والناصري) وجميعهم أحزاب هامشية لا شأن لها، متواطئة مع النظام وتتبع سياسات انتهازية، وليس بينها ما يمكن وصفه بأنه تنظيم جماهيري. المنظمة الجماهيرية الوحيدة في مصر ساعتها كانت جماعة الإخوان المسلمين، وهي تنظيم غير شرعي يملك قاعدة جماهيرية واسعة، وإن اقتصر نشاطها على تقديم الخدمات والمشاركة في الانتخابات البرلمانية والنقابية، وتتمتع بنفس الدرجة من التواطؤ والانتهازية، ودون أية فعالية سياسية ذات طابع احتجاجي.

إضافة لهؤلاء كان هناك ثلاثة أحزاب غير شرعية، أكثر حضورًا وفعالية من الأحزاب الشرعية، لكن أقل جماهيرية بكثير من الإخوان: حزب العمل (حزب شرعي تم حله) وهو تنظيم وطني راديكالي شديد التلون، يتأرجح ما بين المواقف اليسارية والإسلامية، ويتسم خطابه بالصخب الشديد فكان أعلى الأصوات وأكثرها حدة ضمن المعارضة السياسية خلال التسعينات؛ وحزب الوسط وهو انشقاق عن الإخوان المسلمين، حاول بناء حزب إسلامي حداثي مندمج في الحركة الديمقراطية؛ وحزب الكرامة، وهو انشقاق راديكالي عن الحزب الناصري، يقوده جيل السبعينات في الحركة الناصرية، يمارس أدوارًا أكثر نضالية ويتمتع بنفوذ جماهيري في بعض المواقع، لكن تتسم مواقفه بعصبوية شديدة. وإلى جانب الكرامة سنجد بعض الحلقات الناصرية، الأصغر والأقل فاعلية.

أما تنظيمات اليسار الماركسي ذات الإرث النضالي، والشأن الكبير في السبعينات، فقد تفككت جميعًا واندثرت منذ منتصف الثمانينات وحتى منتصف التسعينات، ولم يتبق منها سوى حلقات محدودة ظلت هي الأخرى هامشية وبلا تأثير. أهم ما بقى منها كان الحزب الشيوعي المصري وهو حلقة صغيرة مارست نشاطها من داخل حزب التجمع وتحت مظلته، وعلى نفس خطه الانتهازي. ذلك بالإضافة لبعض الحلقات الأصغر من بقايا اليسار الراديكالي السبعيني كانت تحاول الحفاظ على وجودها دون أية فعالية تُذكر.

وإلى جانب هؤلاء سنجد حلقتين أكثر شبابية وفعالية: الاشتراكيين الثوريين، وهي حركة نشأت في مطلع التسعينات، كانت في ذلك الوقت محدودة العدد ومنقسمة، تمارس نشاطًا ضيقًا ودؤوبًا في بعض الجامعات والمواقع العمالية؛ واليسار الديمقراطي، وهي حركة كانت ساعتها في طور التشكل، دفع إليها بعض كوادر اليسار السبعيني تحت مظلة المركز المصري الاجتماعي الديمقراطي.

ولم تقتصر حركة اليسار على تلك التنظيمات، وإنما تجاوزتها إلى منظمات المجتمع المدني الحقوقية. فقد انخرط عدد كبير من كوادر اليسار الراديكالي السبعيني، بعد اندثار حلقاته، في العمل والنشاط داخل تلك المؤسسات التي شهدت انتعاشًا خلال التسعينات. ولقد تبنى البعض منها توجه نضالي متحدي للدولة القمعية، كان أهمهم مركزي النديم وهشام مبارك. وإلى جانب التنظيمات والحلقات ومؤسسات المجتمع المدني، كان هناك المئات من كوادر اليسار السبعيني منفرطي العقد، الذين عزفوا عن السياسة واعتزلوا العمل العام، ثم جاءت مظاهرات

التضامن مع الانتفاضة لتعيد إليهم الروح والرغبة في النضال.

ربما تكون هذه الخريطة خادعة، بما تشمله من تكوينات عديدة ذات توجهات متنوعة. الحقيقة أن تلك التكوينات جميعًا، لحظة انطلاق حركة التضامن مع الانتفاضة، إما كانت في حالة موات، أو هامشية وشديدة الضعف، أو محدودة التأثير بشكل نوعي. لم تكن هناك حركة سياسية كالمتعارف عليها في البلدان الديمقراطية، أو حالة من المد والتصاعد النضالي كالتي عرفتها مصر في السنوات العشر التالية. لم تكن هناك تنظيمات نقابية لها أي درجة من الاستقلالية أو النفوذ الجماهيري، ولم تكن هناك أية حركات اجتماعية، حتى التنظيمات الجهادية المسلحة التي علا شأنها في مطلع التسعينات كان قد تم سحقها بالفعل في نهايتها.

اختصارًا، مصر مبارك في مطلع الألفية لم تكن فقط بلدًا يعاني من ركود اقتصادي، وأزمة اجتماعية، وعزلة دولية، وفساد وشيخوخة في هياكل الحكم، وإنما أيضًا كانت بلدًا يعاني من هامشية وضعف حركتها السياسية وقواها المعارضة، وشبه موات في حركة جماهيرها ومبادرتها العفوية. هذا ما كان عليه

الحال عشية ذلك الصباح الجميل، يوم انطلاق حركة التضامن مع الانتفاضة.

كيف تحل معضلة التنظيم؟

لا شك أن مظاهرات أكتوبر ونوفمبر عام 2000 أعادت الروح بعفويتها للحياة السياسية، وكشفت الغطاء عن كم الغضب والفوران في الشارع المصري. فاستمرارها على مدار شهرين متواصلين، وانتقالها من طلاب الجامعات إلى طلاب المدارس، واتساع نطاقها الجغرافي على امتداد العديد من المدن والبلدات، هو حدث غير مسبوق منذ الأربعينات.

ولا شك أيضًا أن اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة ساهمت بشكل رئيسي في تحفيز وتطوير ذلك التجذير السياسي. ولعبت دورًا مركزيًا في خلق بؤرة لتعبئة وتنظيم أعدادًا غفيرة من الشباب الجدد الذين التفوا حول حركة التضامن مع الانتفاضة.

وبعد خفوت حدة مظاهرات، صارت اللجنة خلال أسابيع قليلة يُنظر لها بصفتها مركزًا وقيادة لحركة التضامن. وسريعًا ما تشكلت عشرات من اللجان الفرعية في المواقع المحلية والنقابات المهنية، تعمل كل منها بشكل مستقل عن اللجنة الأم، وإن كانت تمارس نشاطها جميعًا تحت مظلة واحدة، وتقوم كلها بمهمتين أساسيتين: جمع التبرعات، وجمع التوقيعات على العريضتين، ويتم توجيه الحصيلة في الحالتين إلى اللجنة الأم.

النجاح البارز للجنة الشعبية ارتبط ساعتها بطبيعتها السياسية والتنظيمية، بصفتها تكوين جبهوي واسع ومنفتح ينسق بين المشاركين فيه على مهام عملية محددة. لقد اقتدى مؤسسو اللجنة بالسياسة التي انتهجتها حركة مناهضة العولمة، واقتبسوا الصيغ التنظيمية التي اشتقتها الحركة منذ ما يقرب من عام. وقاموا بإنتاج إطارًا للعمل سمح لنشيطين ومناضلين سياسيين قادمين من روافد مختلفة، وحاملين لتوجهات متباينة، والأهم منخرطين تحت رايات سياسية وتنظيمية –متنافسة أحيانًا، وغير متناسقة في أغلب الأحيان- بالعمل معًا وانجاز المهام المطلوبة بفاعلية وكفاءة. وهكذا قدمت تلك الصيغة التنظيمية حلًا مثاليًا لمعضلة التشرذم والركود الطويل الذي كانت عليه الحركة السياسية في مصر في مطلع الألفية.

كان هناك سؤالًا متحديًا، أصبحت الإجابة عليه ضرورة ملحة في ذلك الوقت، هو:

كيف لجماعة من النشيطين السياسيين تضم: 1) ممثلين لقوى معارضة هامشية وانتهازية مثل حزبي التجمع والشيوعي المصري؛ 2) ممثلين لمنظمات مجتمع مدني حقوقية مناضلة ذات طابع مؤسسي مغلق مثل مركزي النديم وهشام مبارك؛ 3) ممثلين لتنظيمات وطنية راديكالية عصبوية مثل حزب الكرامة ومتلونة مثل حزب العمل؛ 4) ممثلين لتنظيم جماهيري خانع ومتواطئ ورجعي ومنغلق على نفسه مثل الإخوان المسلمين؛ 5) ممثلين لحلقة يسارية ثورية مناضلة صغيرة العدد ومحدودة التأثير مثل الاشتراكيين الثوريين؛ 6) ممثلين لحلقة يسارية في طور التشكل تحاول بطريقة حلقية ملتبسة الاستفادة من زخم اللجنة مثل المركز الاجتماعي الديمقراطي؛ 7) إلى جانب بعض الشخصيات العامة، وعدد كبير من المناضلين المستقلين المنحازين جميعًا للانتفاضة والراغبين في دعمها.. كيف يمكن لهذا الجمع المتنافر، الذي لا يوحده سوى تضامنه مع الانتفاضة، أن يعمل معًا بفاعلية وكفاءة، تستجيب لزخم الشارع، وتدفع بعفويته في اتجاهات أكثر تسييسًا وتنظيمًا،

في ظل دولة قمعية غير متسامحة مع أي نشاط جماهيري منفتح؟

لم يكن بالطبع هذا ممكنًا دون وجود حركة جماهيرية حاضنة، إلا أن وجودها لا يكفي وحده، لابد من توجه في إدارة العمل يعي المعضلات التي تواجهه: أول سمات هذا التوجه هو قبول العمل الجماعي، كاختيار لا مفر منه؛ وثانيها هو قبول التنوع داخل هذا العمل الجماعي، وحق كل طرف في الحفاظ على انحيازاته ومواقفه المستقلة؛ وثالثها هو وضع شروط لإدارة العمل تضمن استمراريته وكفاءته، وتحفظ التوازن بين الجميع.

الشرط الأول أن يكون اجتماع اللجنة مفتوحًا بشكل دائم، يحق لكل من يرغب في دعم الانتفاضة أن يشارك فيه. الشرط الثاني ألا يكون لأي طرف داخل الاجتماع وزن خاص عن الآخرين، ممثل القوى السياسية والشخصية العامة والمناضل الفرد المستقل جميعهم متساوون في حق المناقشة والاقتراح والتصويت. الشرط الثالث أن تُتخذ جميع القرارات بالتوافق بين الجميع، ولا تعتمد مبدأ الأغلبية والأقلية. الشرط الرابع أن يقتصر النقاش والقرارات على المهام العملية وترتيباتها.

مسار النهاية

نجحت صيغة اللجنة الشعبية نجاحًا باهرًا في البداية، وحققت نتائج تجاوزت كل التوقعات، وصارت خلال عدة أسابيع المركز الأهم والأكثر وزنًا داخل الحركة السياسية في مصر. لكن مع تراجع زخم البدايات بدأت تظهر عيوب الصيغة التنظيمية. فاجتماع تنسيقي مفتوح يحق لكل من يرغب أن يشارك فيه بنفس الدرجة من التساوي بين الجميع، وضرورة توافق كل الحضور على أي قرار يُتخذ، هي شروط تؤدي مباشرة إلى الشلل وانعدام الفاعلية. ولا يمكن لهذه الشروط أن تحقق النجاح إذا لم تصاحبها إرادة لدى جميع الأطراف بحتمية تقديم تنازلات سياسية من جانب كل منهم لصالح الآخرين.

ولقد توافرت هذه الإرادة في البداية لكنها اختفت فيما بعد، ومع اختفائها بدأ الشقاق والتكتل داخل اللجنة، ووصل الأمر في نهاية عام 2001 إلى انقسام اللجنة عمليًا إلى لجنتين، تعمل كل منهما باستقلالية عن الأخرى. ورغم انقسام الاجتماع التنسيقي، إلا أن المهام العملية (جمع التبرعات، وجمع التوقيعات، وتنظيم القوافل) ظلت تتم بكفاءة بسبب استقلالية النشاط القاعدي. وسرت وقتها طُرفة وسط كوادر اللجنة أنها تضم نوعين من الأعضاء: نوع يقوم بالنشاط الذهني، غارق في الاجتماعات التنسيقية، بما تشمله من سجالات ومشاحنات وشد وجذب وعدم فاعلية؛ ونوع يقوم بالنشاط اليدوي، نشيط وفعال ويحقق انجازات، يحاول النوع الأول أن يسطو عليها!

وفي يوم الجمعة 29 مارس 2002 اقتحم ثلاثون ألف جنديًا إسرائيليًا مخيم جنين في مدينة نابلس الفلسطينية، بهدف سحق الانتفاضة، ما أشعل الحريق ثانيةً. واندفع فرقاء اللجنة الشعبية إلى إعادة توحيدها وتجاوز خلافاتهم في استجابة نضالية لسخونة الأحداث، ونجحوا بالفعل باستثناء جناح يساري متطرف محدود ظل منعزلًا. ودعت اللجنة إلى مظاهرة احتجاجية يوم الثلاثاء 2 أبريل في ميدان النهضة أمام السفارة الإسرائيلية. إلا أن الحشود الأمنية منعت المتظاهرين من الوصول للسفارة، فتجمعوا عند النصب التذكاري أمام جامعة القاهرة. ونجحت المجموعات الطلابية المرتبطة باللجنة في حشد مظاهرة كبيرة داخل أسوار الجامعة يومها، اقتحمت البوابة الحديدية والتحمت بالمتظاهرين في الخارج.

هكذا عادت مظاهرات طلاب الجامعات والمدارس

العفوية إلى الشارع، لفترة وجيزة هذه المرة. إلا أن اختلافها عن الموجة الأولى - وأهميتها- أنها انطلقت بعد مبادرة من اللجنة الشعبية يوم 2 أبريل. وبعد تراجع المظاهرات العفوية عاد الشقاق إلى اللجنة، لكن بترتيب مختلف للانقسامات، وبات واضحًا للجميع أن الصيغة القائمة وصلت لنهايتها. وفي الشهور الأخيرة من عام 2002 بدأت الإمبريالية في دق طبول الحرب على العراق، وظهر الاحتياج لتنظيم فعاليات احتجاجية تستجيب للغضب المحلي وتواكب الحركة العالمية.

خرج اقتراح بتشكيل لجنة لتنظيم مظاهرات احتجاجية على الحرب. والحقيقة أنها كانت إعادة تشكيل للجنة الشعبية بنفس أطرافها وصيغتها التنظيمية وتعمل من نفس المقر (مركز هشام مبارك)، لكن بتجاوز للخلافات التي عرقلت وشلت الأولى. ودعت اللجنة الجديدة إلى تنظيم سلسلة من المظاهرات - مظاهرة كل شهر - احتجاجًا على الحرب، كان أخرها مظاهرة السبت 15 فبراير عام 2003 في ميدان السيدة زينب، وهو اليوم الذي أُختير عالميًا لتنظيم مظاهرات احتجاجية في كل أرجاء المعمورة، وشهد أكبر حشد احتجاجي في تاريخ الإنسانية.

بات لدى الجميع يقين بأن الحرب على الأبواب فالجيوش محتشدة تنتظر الشرارة، فقط لا أحد يعرف الموعد تحديدًا. هكذا اتفقت اللجنة على إطلاق دعوة للتظاهر في الساعة الواحدة ظهرًا في ميدان التحرير يوم بدء الحرب. سرت الدعوة بشكل واسع، إلا أن أحدًا لم يكن يقدر حجم الاستجابة.

وفي صباح الخميس 20 مارس 2003 بدأت الحرب، وتوجه الجميع إلى ميدان التحرير في الواحدة ظهرًا. ووصلت الحشود خلال ثلاث ساعات لما يزيد عن أربعين ألف متظاهر، واضطرت قوات الأمن إلى الانسحاب من الميدان، ليحتله المتظاهرون في سابقة لم تحدث منذ عام 1972. وفي نهاية اليوم أعلن المنظمون فض الاعتصام، والدعوة لمظاهرة تخرج في اليوم التالي بعد صلاة الجمعة من الجامع الأزهر إلى ميدان التحرير. وفي اليوم التالي احتشدت قوات الأمن مبكرًا لمنع أي تواجد في الميدان، ما أدى إلى قيام عدة مظاهرات عارمة جابت شوارع وسط المدينة، وحدثت صدامات عنيفة بين الأمن والمتظاهرين، الذين احرقوا الإعلانات التي تحمل صور حسني مبارك، وبات من الواضح للجميع أن مصر تدخل عصرًا جديدًا.

واصلت اللجنة الشعبية تنظيم قوافل الدعم حتى عام 2004، ووصل عدد القوافل التي أرسلتها منذ البداية وحتى النهاية إلى 19 قافلة. لكننا يمكن أن نعتبر مظاهرات 20 و21 مارس تاريخًا فاصلًا، فهي مَثّلت نهاية لحركة التضامن وللجنة الشعبية بالتبعية، وبداية لمعركة التغيير الديمقراطي. صارت نهاية في اتجاه صاعد وأكثر جذرية، وأصبحت البوصلة التي تتجه إليها أنظار الجميع، والسؤال الذي تدور حوله كل المداولات، هو: كيف نبدأ معركة من أجل الديمقراطية والإصلاح السياسي؟

هكذا لعبت اللجنة الشعبية دورًا مركزيًا في تطوير الحركة العفوية وتسييسها، وساهمت في إعادة إحياء الحركة السياسية وانتشالها من مستنقع الركود، وحفزت امكانيات النضال السياسي والاجتماعي في واقع تعتمل فيه عوامل الغضب والرغبة في التغيير.

أى نسويّة

ترجمة: سوزان واتكينز ● ترجمة: أسماء يس

دراسات

أي نسويَّة

سوزان واتكينز

ترجمة: أسماء يس

في الجامعات، وجدت الروح الراديكالية لتحرر المرأة موطنًا لها، حيث اتخذ الطابع المؤسسي مسارًا مختلفًا. ومنذ منتصف الستينيات، بدأت فصول تاريخ النساء النضالي في الظهور بشكل عفوي في جميع أنحاء الولايات المتحدة، بالاعتماد على تجربة دراسات حركة الحقوق المدنية والتعليم الراديكالي لمدارس ميسيسيبي الصيفية. وبحلول عام 1971 ، كان من الممكن للصحافة النسوية أن تعد قائمة بـ 600 منهم، معظمهم لا يزال هامشيًا وغير معتمد.(1)

ومرة أخرى، لعبت ثروة المؤسسات الخيرية دورًا حاسمًا؛ من خلال تطبيق دروس عملها على دراسات تحرر السود في الستينيات، وقد استهدف تدخل فورد بملايين الدولارات إضفاء طابع مهني منتظم على المجال؛ عبر تقديمها لمِنَح لمشاريع ما بعد الدكتوراه، بالإضافة إلى تمويل لمراكز أبحاث النساء في أفضل الجامعات، على سبيل المثال: (ستانفورد، بيركلي، ويليسلي، براون، ديوك، أريزونا). وفي عام 1975 ، نظمت المؤسسة إطلاق ساينز Signs كمجلة نسوية متعددة التخصصات، وفي عام 1977 ساعدت في تأسيس الرابطة الوطنية لدراسات المرأة، والمركز الوطني للبحوث المتعلقة بالمرأة، بقيادة المسؤولة السابقة في شركة فورد مريم تشامبرلين Mariam Chamberlain.(2)

في الثمانينيات من القرن الماضي، تحولت المؤسسة إلى «تعميم» النسوية، كعنصر من مكونات المناهج الأساسية للطلاب الجامعيين. وبحلول أوائل التسعينيات، كانت أولويتها هي دمج البحوث المتعلقة بنساء الأقليات؛ وبدأ مسؤولوها سلسلة من المؤتمرات التي من شأنها أن تمهد الطريق لتبني النظرية التقاطعية. هامش وفي تقرير لأحد المستشارين أشار بحق إلى أن مشروع فورد في مجال دراسات النوع الاجتماعي قد «أثّر بشكل فعّال على الاتجاه الذي سيتخذه».(3)

كان الشكل الثاني؛ الأكثر تخصصًا من المؤسسات القائمة استهداف الجامعات هو نمو منظمات دعم الطلاب، والتي كانت ممولة تمويلاً جيدًا من تحقيق اهداف مثل «المساواة والتنوع والشمول»، وكانت تعمل تحت مظلة البند التاسع Title IX. وقد وفّر التمويل استمرارية القيادة والموارد والخبرة القانونية، وشملت الحملة، الإضراب والملصقات والقمصان، التي حافظت على التأكيد على سياسات مناهضة التمييز خلال فترات انخفاض نشاط الطلاب. جنبًا إلى جنب مع متطلبات المناهج الأساسية لدراسات النوع الاجتماعي، ضمنت هذه البيروقراطيات المصغرة التي يديرها مجموعات جديدة من الطلاب شكلاً من أشكال سياسات المساواة بين الجنسين التي أصبحت طبيعية، «مثل الفلورايد في الماء»(4) وهو منهج راديكالي غير رسمي، يعمل داخل حدود نموذج مناهضة التمييز ويساعد على إعادة إنتاجه. قدَّم المسؤولون المدربون تدريبًا مهنيًا؛ موظفو البند التاسع، وموظفو المساواة والإدماج، ومستشارو السلامة في الحرم الجامعي، كوادر سياسة للنوع الاجتماعي، التي لم يكن لها أحيانًا أي علاقة بتعاليم النسويات في هيئة التدريس.

مريم تشامبرلين

في الوقت نفسه، خضع التفكير النسوي لثقافة عميقة؛ إذ تطوَّر داخل التقاليد الأكاديمية الأمريكية. وقد أفسحت الادعاءات الجريئة والطموحات المتنامية لتحرير المرأة الطريق أمام التمايز الصارم والاختيارات ذات التوجه المهني للطروحات النسوية؛ وأسست الاعتمادية الأكاديمية تسلسلاً هرميًا غريبًا على حركة المساواة، في تخصصات السياسة، والاقتصاد، والعلوم الاجتماعية والسياسية، التي كان من شأنها أن تنتج كوادرائعة من الخبراء النسويين. وتميل الأبحاث إلى الانضواء ضمن التقاليد الكلاسيكية الجديدة أو الوظيفية، كمًا وكيفًا، في العلوم الإنسانية، وقبل كل شيء في أقسام الأدب، إذ كانت الأجيال الجديدة من نشطاء النوع الاجتماعي تدرس بشكل عام، في ظل التأثير السائد لفوكو Foucault.(5)

ضمن هذه الحدود، تم تشجيع التفكير النقدي غير التقليدي وتمويله. وفي نحو عام 1990 ، قدم كل من بيركلي Berkeley وأوكلا UCIA تحديين نظريين رئيسيين للنموذج المهيمن المناهض للتمييز في السياسة النسوية. وفي قضية النوع الاجتماعي، شنت جوديث بتلر Judith Butler هجومًا عاطفيًا على ثنائية «الرجال» و«النساء» التي تفترضها الحركة النسوية السائدة، وتساءلت عن ممارستها المتمثلة في تقديم ادعاءات تمثيلية نيابة عن المرأة؛ وقد كان القيام بذلك مجرد توسيع نظام معرفة السلطة المسؤولة عن إنتاج هذه الثنائية «ذكر» و«أنثى». إذ كان

(1) كاثرين ستيمبسون ونينا كريسنر كوب، دراسات المرأة في الولايات المتحدة: تقرير لمؤسسة فورد، نيويورك 1986، ص. 4. تأسست الصحافة النسوية The Feminist Press في عام 1970 برأس مال قدره 100 دولار، وهي مجموعة تحريرية متطوعة وبعد ذكر عابر في نشرة تحرير نساء بالتيمور الإخبارية نتجت عنه استجابة حماسية؛ لعبت دورًا رئيسيًا في إعادة طبع الأعمال المفقودة للمؤلفات الراديكالية الداعية إلى التمرد. وفي عام 1972 ، تلقت الصحافة 600 ألف دولار من فورد، في مقابل سلسلة عن عمل المرأة، وهي الأولى من بين العديد من المنح واسعة النطاق لمواد التدريس النسوية. انظر فلورنس هاو، حياة في حركة، نيويورك 2011 ، ص 310-279.

(2) إجمالًا، قدمت فورد 22 مليون دولار من إجمالي 36 مليون دولار من الأموال الخيرية لدراسات المرأة بين عامي 1972 و1992. انظر روزا برويتو، «مؤسسة فورد ودراسات المرأة في التعليم العالي الأمريكي: بذور التغيير؟»، تحرير إلين كوندليف لاجمان، المؤسسات الخيرية: منحة دراسية جديدة، إمكانيات جديدة، بلومنجتون 1999، ص 271–6. دراسة برويتو Proietto هي محاولة نادرة لوضع ميزانية عمومية مهمة في مجال تُكتب فيه معظم التقييمات من قبل الممارسين أنفسهم.

(3) ليزلي هيل، برنامج مؤسسة فورد لإدماج دراسات نساء الأقليات «، فصلية دراسات المرأة، المجلد. 18 ، عدد 2-1 ، 1990 .

(4) كاثرين ستيمبسون، تقرير المستشار إلى: برنامج مؤسسة فورد للتعليم والثقافة، الإصدار رقم. 011359، نوفمبر 1982 ، مقتبس في برويتو، «مؤسسة فورد ودراسات المرأة «، ص 273 - 4. مع إضفاء الطابع المؤسسي على الحركة النسائية الأمريكية، بدأت في تكرار متلازمة الباب الدوار، التي تعمل في قمة قوتنا على مستوى أدنى. ومن ثم، يمكن لمريم تشامبرلين أن تتقدم بسلاسة من توزيع المنح من فورد Ford إلى ncrw التي تمولها شركة فورد، بينما عُينت كاثرين ستيمبسون، الحاصلة على منحة فورد في Signs، للإعلان عن إنجازات المؤسسة في مجال التعليم. اعتقدت تشامبرلين وأليسون بيرنشتاين؛ خليفتها في شركة فورد، أن دعم المؤسسة كان حاسمًا في مساعدة دراسات المرأة على اكتساب «الشرعية والزخم»: «العمل الخيري وظهور دراسات المرأة»، Teachers College Record، vol. 93، رقم. 3 ، ربيع 1992 .

(5) جينيفر بومجاردنر وإيمي ريتشاردز، مانيفيستو، انظر: جو ريجر، في كل مكان ولا مكان: النسوية المعاصرة في الولايات المتحدة، أكسفورد 2012 ، ص. 5 .

من المفترض أن تعارض السياسة النسوية الجديدة تجسيد الجندر والهوية، مع الأخذ في الاعتبار بناءها المتغير كشرط منهجي مسبق، وكذلك كهدف سياسي.(1)

وقبلها ببضعة أشهر، هاجمت كيمبرلي كرينشو Kimberlé Crenshaw قانون مناهضة التمييز من منظور الدراسات القانونية النقدية، وذلك بسبب محوره الأحادي، الذي يتعامل مع العرق والجنس على أنهما فئتان من الخبرة، تستبعد إحدهما الأخرى بدافع من مطالبها السياسية، وأنه ينبغي إعادة التفكير في الإطار بأكمله، بل وإعادة صياغته.(2) إذ ينبغي أن يضع العمل السياسي الجماعي المهمشين في المركز، وأن يبدأ من احتياجات الفئات الأكثر حرمانًا، ومن ثَم يعيد تشكيل العالم لصالح البقية.(3)

على صعيد المقارنة، فإن النقطة الرئيسية التي ينبغي تسجيلها هي الحجم الهائل للإنتاج النسوي نتيجة لهذا التمويل الضخم؛ وقد شمل حجمًا هائلاً من المِنح الدراسية - تشير ببليوجرافيا دراسات المرأة إلى ما يقرب من 4000 عنوان؛ بما في ذلك أعمال رفيعة المستوى.(4) وكذلك كرَّست نسوية بيلتواي Beltway مجموعة من الخبرات السياسية والقانونية لا مثيل لها في بقية العالم؛ منها إتقان مهارات الضغط، والصياغة، وجمع الأموال، وتقديم العروض المصقولة أو المقترحات التي درست بعناية، جنبًا إلى جنب مع النقاط الدقيقة في إجراءات الكونجرس أو الإجراءات القانونية، في أثناء تجميع قائمة من جهات الاتصال القوية، لذلك أسست النسويات داخل نظام الجامعة الأمريكية بنية تحتية بحثية لا مثيل لها، وقد شملت هذه البنية التحتية معاهد ومراكز متخصصة، واستضافة ندوات ومؤتمرات وطنية أو دولية، وإجراء تحقيقات تجريبية واسعة النطاق، وتوضيحات نظرية معقدة، ودراسات مقارنة، وتقارير فنية التي يدعمها ما يقرب من أربعين مجلة متخصصة. من المؤكد أنه لن تنفق أي دولة أخرى 36 مليون دولار على المنح النسوية، بالإضافة إلى بعض التمويل الذي يعتبر الأكثر سخاء في العالم. وقد أحصت دراسة حديثة نحو 540 دورة في دراسات النوع الاجتماعي والمرأة في الولايات المتحدة، مقارنة بـ 44 دورة في كندا، و35 في المملكة المتحدة، في حين لم تحصِ أكثر من عشرين في أي بلد آخر.(5) وتنطبق نسب مماثلة على المجلات العلمية النسوية: 43 إصدارًا في الولايات المتحدة، و8 في المملكة المتحدة، و5 في فرنسا وأستراليا، و4 في كندا، وأقل من ذلك في أي مكان آخر.(6)

كما أن جميع المجلات والمطبوعات رفيعة المستوى في هذا المجال موجودة في الولايات المتحدة، على سبيل المثال ساينس مجلة Signs التي لا تزال الرائد الفكري للحركة، وهي تعج بدراسات نسوية عن النوع الاجتماعي والمجتمع، والاقتصاد النسوي، وكذلك مجلة هيباتيا Hypatia، ومجلة تاريخ المرأة Journal of Women's History؛ وتضم المجلة النسوية الدولية للسياسة فريق تحرير واسع النطاق the International Feminist Journal of Politics، وقد كان تأسيسها نتيجة لمحادثات ونقاشات جمعية الدراسات الدولية، ومقرها الولايات المتحدة.(7)

كانت الدول الأخرى الناطقة بالإنجليزية أقرب المنافسين؛ فقد امتلكت أستراليا إطارًا قويًا لتكافؤ الفرص، ولكنها تظل ذات نظام جامعي محدود؛ وكان لدى كندا عدد قليل من مراكز الإنتاج الفكري النسوي القوية فيما يخص النظرية والبحوث الاجتماعية، لكن هذا يضعها فقط على قدم المساواة مع الولايات الأمريكية الأصغر؛ على سبيل المثال ويسكونسن، أو نورث كارولينا. وفي المملكة المتحدة، ظهر العمل الماركسي النسوي الرائد في الستينيات والسبعينيات المتمثل في ثقافة اليسار الجديد، إلى حد كبير خارج الأكاديمية؛ في وقت لاحق، صُقلت وتنامت التخصصات الوطنية في الدراسات الثقافية النسوية واقتصاديات التنمية، لكن النفوذ السياسي للنسوية البريطانية كان ضعيفًا نسبيًا. وفي ألمانيا، أنشئت الوزارات النسائية ذات النفوذ على المستوى الإقليمي في المقاطعات خلال الثمانينيات، لكن النظام الجامعي ظل غير نافذ؛ وحتى أواخر عام 1990 ، كان 5% فقط من الأساتذة من الإناث، وكانت دراسات المرأة محصورة إلى حد كبير في المجتمع والبالغين، ومراكز التعليم، وقد ازدهرت على الهامش نظرية النسوية الأمومية والبيئية في فرنسا؛ باستثناء بعض المقاطعات، مثل فانسان. وفي إيطاليا، ظلت الجامعات وآلية الحكومة مغلقة إلى حد كبير أمام الدراسات النسوية وصنع السياسات لعقد آخر. أما في أماكن أخرى؛ كالشرق الأوسط، وأمريكا اللاتينية، وأفريقيا، والهند، فقد موَّلت أموال المؤسسات الأمريكية أبحاث النوع الاجتماعي إلى حد كبير. اختصارًا، تمتعت الحركة النسائية الأمريكية السائدة بمزيج من الثروة والثقل المؤسسي والإنجازات العلمية بحيث لا يمكن لأي حركة نسوية أخرى على الإطلاق أن تُقارن بها.

شرعية حرب العصابات

إذا كانت طاقات حركة تحرير النساء المبكرة قد دُجنت إلى حد كبير من قبل الكابيتول هيل Capitol Hill [المجالس التشريعية] ، أو رقِّيت داخل الأكاديمية، فقد كان هناك فرع واحد من النسوية الراديكالية التي تهدف بدلاً من ذلك إلى تعزيز علاقتها بالدولة.

ونظرًا إلى أن قوانين مناهضة التمييز لم تُصمم قط لتغطية حقوق وأخطاء العلاقات بين الجنسين، فقد كان على المحامين النسويين أن يحاولوا التأكد من قيامهم بذلك. وتضمَّن هذا نشاط تقاضٍ مستمر لتوسيع نطاق القانون - توسيع «التمييز على أساس الجنس»؛ ليشمل التحرش الجنسي وإنجاب الأطفال، مع قيام المحامين الذين تمولهم المؤسسة بتقديم حالات اختبار فردية لتوسيع حدود الاستفادة، وذلك بتقديم حكم واحد في كل مرة، في المجالين التوأمين؛ التوظيف والتعليم.(8)

---

(1) تثقيف النشطاء: ديفيد جريبر، يوتوبيا القواعد، نيويورك 2015، ص 56-7.

(2) جوديث بتلر، مشكلة النوع الاجتماعي، نيويورك ولندن 1990، ص 194، 130، 8-7.

(3) كيمبرلي كرينشو، «إلغاء تهميش التقاطع بين العرق والجنس: نقد نسوي أسود لعقيدة مناهضة التمييز، النظرية النسوية والسياسة المناهضة للعنصرية، منتدى جامعة شيكاجو القانوني، 1989، رقم. 1.

(4) ليندا كريكوس وسيندي إنجولد، دراسات المرأة: ببليوجرافيا موصى بها، الطبعة الثالثة، ويستبورت، ط 2004؛ تصل إلى 828 صفحة مطبوعة.

(5) أون كورينمان oan Korenman، «برامج دراسات المرأة، والإدارات ومراكز البحوث»، جامعة ماريلاند، مقاطعة بالتيمور؛ آخر تحديث، 2014

(6) كيركوس وإنجولد Krikos and Ingold، دراسات المرأة، الصفحات من 721 إلى 9، مع استكمال «القائمة الأساسية للمجلات»، رابطة مكتبات الكليات والبحوث، قسم دراسات المرأة والجنس؛ كلا المصدرين مقرهما الولايات المتحدة.

(7) لا ينبغي اعتبار الهيمنة الأمريكية باعتبارها تشير إلى ضيق الأفق الفكري: فمعظم هذه المجلات ذات نطاق دولي مثير للإعجاب. وقد قدَّر محررو Signs أن ثلثي أبحاث المجلة تركزت خارج الولايات المتحدة؛ بشكل رئيسي على آسيا وأوروبا، في حين أن 52 في المئة من كتابها كانوا علماء من خارج الولايات المتحدة، وقد تسلمت مقالات من ثمانين دولة: ماري هاوكسورث Mary Hawkesworth، Signs 2005-2015: تأملات في الطبيعة والوصول العالمي للإنتاج المعرفي النسوي متعدد التخصصات، الإشارات، المجلد. 36، رقم. 3، ربيع 2011. حتى إن Signs قامت بإدارة قضية النوع الاجتماعي والدراسات القطبية، ونشر نصوص عن رعاة الرنة الصاميين، ومكانة المرأة في الأدب في أنتاركتيكا، ووصف مدروس للتنظيم عبر الحدود ضد العنف المنزلي على شواطئ بحر بارنتس.

(8) وشملت المشاريع التي رعتها فورد في الثمانينيات معهد بيروت لدراسات المرأة في العالم العربي. ومركز بوينس آيرس للبحوث المتعلقة بالمرأة؛ ومركز نيودلهي لدراسات المرأة والتنمية؛ ووحدة المرأة في التنمية بجامعة ويست إنديز؛ The Gruppo di ricerca sulla famiglia e sulla condizione femminile في جامعة ميلانو؛ ومركز الأبحاث والموارد النسائية في لندن. كما موَّلت فورد بحثًا أجراه باحثون في مركز التدريب والبحوث الأفريقي للمرأة التابع للأمم المتحدة؛ ورابطة النساء الأفريقيات للبحث والتطوير ومقرها السنغال؛ جامعة دار السلام. ومركز بحوث دراسات

ومنذ السبعينيات، أعادت أحكام المحاكم، والتدخلات التنفيذية، واللوائح الجديدة الصادرة عن اللجنة تكافؤ فرص العمل Eeoc ، وقرارات المحكمة العليا، وتدخلات الكونجرس، تفسير معاني التمييز والتحرش الجنسيين باستمرار، مما وسَّع مسؤولية أصحاب العمل والجامعات وألقي الضوء على الأضرار الناتجة عنها. وكانت النتيجة مجالاً قانونيًا في حالة من التحريض الدائم؛ على العكس مما يحدث في البلدان التي تترك فيها القوانين المصاغة صراحة مجالاً أقل للمناورة، ومن المرجح أن يتخذ النشاط النسوي أشكالاً غير قانونية. جعلت العملية التي يقودها المتقاضون، في رأي أحد المحامين الشباب، مجالاً قانونيًا مثيرًا ومزدهرًا؛ «هناك دائمًا محكمة قد تكون على استعداد لتوسيع تعريف التحرش الجنسي». (1)

فتح الاضطراب المتجذر هذا الطريق لفرع واحد من التشريع النسوي الراديكالي، للدفع نحو أجندة أكثر تشددًا، وقد صاغت كاثرين ماكينون Catharine MacKinnon هذا الأمر بشكل كامل؛ إذ بحثت في التقليد الماركسي بحثًا عن أدلة حول كيفية بناء «نظرية ملحمية» مماثلة للنسوية، وهي نظرية من شأنها استيعاب قوانين المجتمع للحركة في مجملها، وتمكين النساء من أن يصبحن «مجموعة في حد ذاتها». (2)

وقد حددت ماكينون «العمل» باعتباره الطبقة/الفئة الأساسية للماركسية، وافترضت أن «الجنسانية» هي المكافئ النسوي لها؛ وهي العملية التي يتم من خلالها إنشاء «العلاقات الاجتماعية بين الجنسين وتنظيمها والتعبير عنها وتوجيهها». من وجهة النظر هذه إذن، لا ينبغي الخلط بين الجنسانية وبين الإثارة، أو الملذات المتبادلة، أو ممارسة الحب. وقد كانت ديناميكيتها هرمية، تتضمن تقسيمًا منهجيًا للسلطة الاجتماعية، تم فرضه على المرأة، إذ كُرِّست ثنائية «ذكر» و«أنثى» من خلال إضفاء الإثارة الجنسية على ممارسات كالهيمنة والخضوع، وعُلِّمت النساء كيفية تعريف أنفسهن ككائنات موجودة من أجل رغبات الذكور الجنسية. رفضت ماكينون بشكل قاطع فهم الجنسانية كممارسات ثقافية أنثروبولوجية شكَّلتها الظروف المتغيرة تاريخيًا لتنتج في النهاية حالة من عدم المساواة بين الجنسين، فضلاً عن النموذج الفرويدي للدافع الفطري الذي قمعته عمليات التنشئة الاجتماعية، والذي ينبغي السماح به بقدر أكبر من التعبير. وبالنسبة لها، كانت الجنسانية «هي عدم المساواة بين الجنسين: الإثارة الذكورية في اختزال الشخص إلى شيء ما هو قوتها الدافعة»، والدليل على ذلك كُشف عنه من خلال رفع الوعي النسوي حول تجربة المرأة التي تعيشها، والمتمثل في «الاغتصاب، وسفاح القربى، والضرب والتحرش الجنسي والإجهاض والبغاء والمواد الإباحية». (3)

التنمية بجامعة الخرطوم. والجامعة الكاثوليكية في ساو باولو؛ مؤسسة كارلوس تشاجا في البرازيل، ومكتب جامايكا للمرأة. انظر، من بين أمور أخرى، نوكيت كاردام، جلب النساء إلى: قضايا المرأة في برامج التنمية الدولية، بولدر، 1991، ص 91-88؛ هاو، حياة في حركة، ص 324-30. انظر أيضًا إلى الماضي من قبل الممارسين في إد هاتون «مستقبل دراسات المرأة: تقرير ورشة عمل مؤسسة فورد»، فصلية دراسات المرأة، المجلد. 22، رقم 4-3، 1994.

(1) قضايا لاندمارك بارنز (رُفعت في عام 1974، واستأنفت في عام 1977)، وتأسست مطالب مقايضة لمدير لممارسة الجنس كشكل من أشكال التمييز، وألكساندر ضد بيل (1977)، التي تحظر المضايقات مقابل المقايضة (درجات جيدة مقابل ممارسة الجنس) في الجامعات؛ تم تمديد التمييز في وقت لاحق ليشمل بيئة معادية. بوليت بارنز، مديرة أمريكية من أصل أفريقي في مكتب EEO التابع لـ EPA في واشنطن العاصمة، دعمها صندوق الدفاع القانوني للمرأة الذي يتخذ من العاصمة الأمريكية مقرًا له.

(2) انظر أبيجيل ساجوي، «محامون فرنسيون وأمريكيون يعرِّفون التحرش الجنسي»، اتجاهات في قانون التحرش الجنسي، ص 10-609.

(3) كاثرين ماكينون، نحو نظرية نسوية للدولة، كامبريدج، ماساتشوستس 1989، ص. 39 ،x. تم استعارة مفهوم «النظرية الملحمية» من شيلدون

وكانت النتيجة السياسية المنطقية لهذا التفسير هي الانفصالية النسوية والسحاق السياسي، وتقاليد الأقلية بكل تاريخها ونزاهتها. وبدلاً من ذلك، لمحت ماكينون في قانون مكافحة التمييز الأمريكي «صدعًا في الجدار»؛ أو على وجه التحديد «فرصة تشريعية خاصة لموضوع الاعتداءات الجنسية. كان الهدف هو استخدام القانون لمواجهة واقع وضع المرأة؛ أي «العوز القائم على الجنس والتبعية القسرية والهبوط الدائم إلى الأعمال المهينة والتجويع»، بالإضافة إلى الاغتصاب المنتشر، والضرب الممنهج، والدعارة «الظرف الأساسي للمرأة»، والذي كانت صناعة الإباحية جناحًا له.

كانت الدولة الليبرالية «ذكورية»: لقد تعاملت مع النساء مثل الرجال، وفرضت وجهة نظر الرجل كقانون على المجتمع؛ لقد كفلت الحريات السلبية الواردة في دستور الولايات المتحدة فقط حريات الوضع القائم للذكور. وكانت المساواة تتطلب اجتهادًا جديدًا يجسِّد وجهة نظر المرأة، لكن ستتم مهاجمته باعتباره «مرافعة خاصة»، وباعتباره «ليس محايدًا»، ولكن القانون الحالي لم يكن كذلك. لذا كان على الخطوات الأولى أن تتحرى تحويل عبء الإثبات في قضايا الاعتداء الجنسي لصالح المرأة، لاستبعاد الدفاع عن نوايا الذكور، أو الموافقة الواضحة للإناث. وكان ينبغي على النسويات الكفاح من أجل حظر المواد الإباحية بموجب قوانين التمييز على أساس الجنس، وتجريم الدعارة.[1]

في ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين، تعرضت وجهة النظر هذه لانتقادات شديدة من قبل النسويات الأخريات، وذلك باعتبارها فقيرة ثقافيًا وأنثروبولوجيًا. من الناحية النظرية، تضمنت نقطة انطلاق ماكينون - مثلما هو العمل بالنسبة للماركسية، وكذلك الجنس بالنسبة للنسوية - خطأ مزدوجًا. وبالنسبة لماركس، لم تكن الممارسة المحددة «العمل»، بل هي طريقة إنتاج ما هو مطلوب للمعيشة اليومية؛ الغذاء، والوقود، والملبس، والمأوى، والتي يعد العمل أحد العوامل الحاسمة فيها، جنبًا إلى جنب مع الطبيعة، والمكاسب المتراكمة للتكنولوجيا ورأس المال، واللغة. فإذا كان التكافؤ بين الجنسين هو المطلوب، فسيعمل على تنظيم التكاثر البشري، والذي يمثل النشاط الجنسي جانبًا مهمًا منه، إلى جانب الحمل والولادة ورعاية الرضع والتنشئة الاجتماعية للأطفال وصنع الذوات الجندرية.

كما أن توقيتات العمل وتقسيماته مترابطة مع تلك الخاصة

وولين، «النظرية السياسية كمهنة»، مجلة العلوم السياسية الأمريكية، المجلد. 63، رقم. 4، 1969.

(1) ماكينون، نحو نظرية نسوية للدولة، ص 3، 13، 41، 113، 110، 109، 130-1.

بالإنتاج. في مقابل النظرة النسوية الراديكالية للعلاقات بين الذكور والإناث كمجال استقطاب بسبب الاضطهاد الأساسي للعنف الجنسي، ويوفر هذا المفهوم إمكانات للتعاون التفاوضي والمشاريع المشتركة. فهو يعترف بالتضادات التي قد يكون فيها الجنس تقسيمًا ثانويًا، وليس تقسيمًا أساسيًا، ومن ثَم يمكنه معالجة العلاقات القمعية بين النساء، سواء الهيكلية أو الشخصية، والتي لا تقدم النسوية الراديكالية تفسيرًا مناسبًا لها. تكمن قوة الماركسية كنظرية اجتماعية في قدرتها على الاحتفاظ بالإيجابيات والسلبيات، والخلق والدمار، في إطار واحد.

إذا كانت هناك حاجة إلى «نظرية ملحمية» نسوية، فستحتاج إلى أن تفعل الشيء نفسه - لتشمل الملذات والمخاطر؛ عوامل الجذب الخطيرة للآخرين، مشكلات الحب المتعددة. من شأن التقدم السياسي للفقه النسوي الراديكالي أن يلقي ضوءًا مثيرًا للاهتمام على الطريقة الأمريكية للتعامل مع مسألة الجنس في مجتمع جماهيري: من ناحية، السوق؛ من ناحية أخرى، تنظيم أيديولوجي أصغر بكثير. وكان العمل مع أندريا دوركين Andrea Dworkin، ذا دعاية أكثر فاعلية؛ إذ هزمت المحكمة العليا في عام 1986 أول مشروع كبير لماكينون، وهو الدفع بقوانين مكافحة الإباحية على مستوى الدولة. (في كندا، حيث لاقت هذه السياسة مزيدًا من النجاح، كان الهدف الأول للإغلاق هو المجلة المتخصصة في النسوية السحاقية، Bad Attitud).[1]

كانت الدولة الليبرالية «ذكورية»: لقد تعاملت مع النساء مثل الرجال، وفرضت وجهة نظر الرجل كقانون على المجتمع

استمرت صناعة الإباحية في الازدهار عبر الإنترنت، ووصلت موادها المصورة الآن إلى جمهور أوسع بكثير، وعلى نطاق أوسع بكثير مما وصلت إليه المجلات السيَّارة، والمتاجر التي تعمل في بيع الأغراض غير اللائقة «للبالغين»، وصارت توفِّر منهجًا للتثقيف الجنسي في سن المراهقة المبكرة.

كانت المواد الإباحية خاضعة للقوى نفسها التي شكَّلت بقية الاقتصاد الأمريكي: العولمة، والاستعانة بمصادر خارجية، وانكماش الأسعار، والتسويق المتخصص، والخصخصة، واستهداف المرأة؛ على الرغم من أن جمهور الرياضة لا يزال، إلى حد كبير، من الذكور، إلا أن جزءًا متزايدًا من المواد المثيرة كان يستهدف النساء. أما من ناحية العرض، بقيت صناعة منخفضة الأسعار، على سبيل المثال؛ وادي سان فرناندو في لوس أنجلوس، وهو جزء صغير من حجم هوليوود، محاصر بالقرصنة والمنافسة من غرف الدردشة عبر الإنترنت، وتقوم على الدفع مقابل اللعب، وقد وصفتها الفتيات اللواتي يظهرن أمام الكاميرا على الإنترنت بأنها شكل آمن نسبيًا من العمل بالجنس.

(1) ماكينون، نحو نظرية نسوية للدولة، الصفحات 5-244، 3-242، 162، 237، 164، 249، 247.

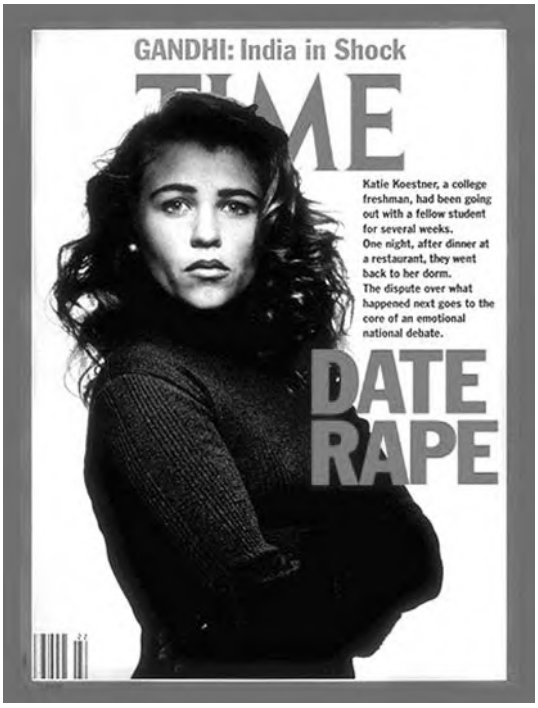

على الجبهة الثقافية، هُزِمَ التشريع النسوي الراديكالي، فضمن مكانة أقوى في الجامعات الأمريكية. ففي خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، تضافر نشاط المتقاضين وقرارات المحكمة الإضافية والتدخلات التنفيذية لتوسيع نطاق تعريفات الباب التاسع للمضايقة والاعتداء، وتخفيف عبء الإثبات على المدعي وزيادة مسؤولية الجامعة.[2]

ودعا الناشطون القانونيون مثل ماكينون MacKinnon وآن سيمون Anne Simon إلى الحاجة الماسة إلى إجراء تغييرات في آلية البند التاسع لصالح النساء.[3] وفي التسعينيات، قامت حملات مناهضة للاغتصاب في الحرم الجامعي، وكان مؤيدوها نساء، بعضهن مُحافظات تمامًا؛ مثل كاتي كويستنر Katie Koestner، الناشطة ضد الاغتصاب التي ظهرت على غلاف مجلة تايم TIME في عام 1991، وقد تحولن إلى راديكاليات من جراء تعرضهن للاغتصاب! أما التيارات النسوية الأخرى؛ ما بعد البنيوية، والتقاطعية، والكوير [هو مصطلح عام يشير إلى الأقليات الجنسية من غير المغايرين]، والمساندين لقضايا البيئة/ الخُضر، والمهتمة بالتغير المناخي، فقد انتقلت إلى قضايا أخرى، فقد مالت إلى انتقاد الراديكالية النسوية. ومع ذلك، فإن المشروع القانوني الذرائعي المتمرد لهذا الاتجاه لم يقابله أي برنامج سياسي اقتصادي لإعادة التوزيع، وهو بهذا المعنى، كان مخلصًا ومتسقًا مع النموذج الأمريكي السائد.

٤. البناء العالمي

هناك أسطورة واسعة الانتشار مفادها أن القيادة النسوية الأمريكية وضعت حقوق المرأة على جدول الأعمال العالمي، لكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح. فقد جاء الزخم الأوَّلي من الكتلة السوفيتية،

(2) تشمل التدخلات البارزة كارول فانس، المتعة والخطر: استكشاف الجنس الأنثوي، لندن 1992 [الولايات المتحدة 1984]؛ فاردا بورستين، نساء ضد الرقابة، فانكوفر، 1985.

(3) كارول فانس، المتعة والخطر، ص. 34. كتبت فانس: «يتفق النسويون على أن المواد الإباحية متحيزة جنسيًا»، لكن لماذا كان التمييز الجنسي في الجنس أسوأ من التمييز الجنسي في أي مكان آخر؟ لماذا الحملة ضد صناعة الإباحية ولكن ليس ضد قطاع الزواج (الأكبر بكثير)؟

ودول العالم الثالث المنتمية إلى منظمة عدم الانحياز.[1] في أوائل السبعينيات، وبينما كانت واشنطن تكافح الهزيمة العسكرية في الهند الصينية التي تفاقمت بسبب الركود والأزمة السياسية في الداخل، كانت الدول الأفريقية والعربية اليسارية تنهض مؤقتًا، مدعومة بفيض من دولارات النفط. وفي عام 1974 ، استخدمت «مجموعة الـ 77» أغلبيتها الجديدة في دولة واحدة وصوت واحد في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وذلك للدفع نحو إعلان نظام اقتصادي دولي جديد، والذي بموجبه يمكن للدول النامية أن تنظم أنشطة الشركات متعددة الجنسيات، والاستفادة من الشركات الموجودة على أراضيها، بما في ذلك تأميم أصولها، مع دفع تعويضات بموجب القانون المحلي للبلد المؤمم. كان هذا بالطبع لعنة بالنسبة للولايات المتحدة، لكن الكتلة السوفيتية قدمت دعمها الجديد مقابل أصوات مجموعة الـ 77 لأجندة بريجنيفيت للسلام.

كان هذا هو السياق الذي أيّدت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة اقتراحًا من منظمة المرأة الأوروبية بقيادة الاتحاد السوفيتي بشأن «عام دولي للمرأة» في عام 1975 ، تُوِّج بمؤتمر عالمي في مكسيكو سيتي لتخطيط اندماجها الكامل في النظام الاقتصادي المقبل.[2]

بالنسبة لوزارة الخارجية الأمريكية، كانت الجمعية العامة في السبعينيات ساحة معركة دبلوماسية، تم فيها قياس النجاح من حيث قدرته على درء الضرر. وقد شارك مسؤولوها في الاستعدادات لمؤتمر مكسيكو سيتي بطبيعة الحال، ولكن ظلت أولوية واشنطن للسياسات الجنسانية العالمية هي السيطرة على النمو السكاني: فقد خصصت ميزانية قدرها 3 ملايين دولار لتجمع الأمم المتحدة عام 1974 بشأن تنظيم الأسرة، مقارنة بـ 350 ألف دولار لمؤتمر المرأة لعام 1975 .[3] واستضافت مكسيكو سيتي اجتماعين، حددا نمطًا للمستقبل: مؤتمر حكومي دولي رسمي للأمم المتحدة، ساده الجدل والمواقف المعتادة في مثل هذه المناسبات. تم اختيار المندوبين من قبل مسؤولي وزارة الخارجية لعرض السيدات الرائدات في بلادهم.[4] بالإضافة إلى منتدى ثقافي موازٍ جذب جمهورًا من 6000 شخص لبرنامج عروض أفلام، ورقص، وصلاة (بقيادة الأم تيريزا) وحلقات نقاشية. وهنا كان المزاج أكثر راديكالية؛ فقدمت حركة النساء الأمريكيات أكبر فرقة أجنبية، على الرغم من وجود عروض قوية من دول أمريكية أخرى، كانت المكسيك في ذلك الوقت ملجأ لأولئك الفارين من الديكتاتوريات في الجنوب. وكانت المتحدثة الأبرز امرأة بوليفية من السكان الأصليين، وهي دوميتيلا باريوس Domitila Barrios ، التي نجت من إحدى المذابح التي استهدفت عائلات عمال المناجم على أيدي القوات الحكومية المدعومة من الولايات المتحدة، وسُجنت وتعرَّضت للتعذيب؛ وهو مما أدى إلى إجهاضها نتيجة لذلك. في الجلسة العامة الرسمية، كان المحور المركزي ذو الشقين هو معاهدة إعلان للحقوق، وخطة عمل لثلاث كتل، و cedaw اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. ومشروع G-77 لتحرير المرأة من خلال التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وشدد الكوميكون على السلام وموضوع الولايات المتحدة المتمثل في المساواة.[5] وكانت النتيجة وثيقة غير عملية ومتكررة، تصل إلى 33 صفحة، جاءت متحدية للسياسة الخارجية الأمريكية؛ وذلك بالدعوة إلى دعم النساء السود اللائي يعانين من الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، ودعم النساء الفلسطينيات تحت الاحتلال الإسرائيلي؛ وهو ما صوتت الولايات المتحدة ضده. وبشكل ملموس، دعت خطة عمل المكسيك إلى «عِقْد دولي للمرأة والتنمية»، على أسس جديدة، يركز على الصحة والتعليم وتوفير رعاية الطفل؛ كل دولة ستنشئ مكتبًا لرصد التقدم المحرز على هذه الجبهات، وتقدم تقريرًا إلى مؤتمرات المتابعة التي عقدت في كوبنهاجن (1980) ونيروبي (1985) وبكين (1995).

وبالفعل أنشئ الهيكل الأساسي لجهاز بحث نسوي عالمي، مع مركز لجمع البيانات، و instraw ، و Unifem ، وهما صندوقان تطوعيان، وكلاهما مقره في UNHQ في نيويورك. عقد موظفو الأمم المتحدة ندوات ضمت «خبراء» بشأن قضايا المرأة لوضع معايير لمشاريع البحث العالمية؛ وأطلقت المؤسسات الفرعية، مثل Ilo و Fao ، دراسات استقصائية خاصة بها.

لم يكن الأمر كذلك حتى عام 1979 ، بعد أربع سنوات من المكسيك، حين اتخذت الولايات المتحدة دورها النسوي العالمي. وأعلن وزير خارجية كارتر في برقية من ست فقرات إلى السلك الدبلوماسي الأمريكي أن «الهدف الرئيسي لسياستنا الخارجية هو النهوض بوضع المرأة وظروفها في جميع أنحاء العالم.[6]

وجاء الانطلاق الرسمي للنيوليبرالية المعولمة بعد بضعة أشهر، عندما رفع رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي في عهد كارتر، بول فولكر Paul Volcker ، أسعار الفائدة، ورُفع الستار عن أزمات ديون العالم الثالث، وصياغة برامج التعديل الهيكلي في الثمانينيات والتي من شأنها أن تعيد استخدام الاقتصادات الجنوبية لصالح العصر الجديد.

> **إذا كانت هناك حاجة إلى «نظرية ملحمية» نسوية، فستحتاج إلى أن تفعل الشيء نفسه – لتشمل الملذات والمخاطر؛ عوامل الجذب الخطيرة للآخرين، مشكلات الحب المتعددة**

(1) في عام 1997 ، عندما كان الكونجرس يناقش الحياة الجنسية لبيل كلينتون، أصدر عضو مجلس النواب خطاب «زميله العزيز» يحذر من أن المدارس ستنتهك المادة التاسعة إذا لم تتعامل مع السلوك الذي خلق «بيئة معادية» للنساء في الحرم الجامعي؛ وكررت إدارة بوش الموقف في عام 2001 ؛ جاكوب جيرسن وجيني سوك، «بيروقراطية الجنس» انظر: قانون كاليفورنيا، المجلد. 104 ، رقم. 4، 2016 .

(2) كاري بيكر، الحركة النسائية ضد التحرش الجنسي، نيويورك 2008 ، ص. 62 .

(3) أكد ثيربورن Therborn هذه النقطة في كتابه «بين الجنس والسلطة»، ص. 76 .

(4) كان الاتحاد النسائي الديمقراطي الدولي (widf) في ذلك الوقت أكبر شبكة دولية للمرأة، مع منظمات أعضاء في أكثر من مئة بلد. وعلى الرغم من أن هيئاتها الرسمية في دول الكوميكون كانت محافظة بشكل مخيف، فقد لعبت فروع Widf دورًا مهمًا في تنظيم النساء حول المسائل الاجتماعية والاقتصادية في أجزاء من إفريقيا وأمريكا اللاتينية وشبه القارة الهندية.

(5) ديبوراه ستينسترا، الحركات النسائية والمنظمات الدولية، نيويورك 1994 ، ص. -124 شبه القارة الهندية.

(6) لعبت الشقيقة التوأم لشاه إيران دورًا محوريًا، بينما حُبس أفضل شباب وشابات بلادها في زنازين سافاك المحصنة؛ ومن بين زملائها المندوبين كانت السيدة إيميدا ماركوس والسيدة ليا رابين والسيدة جيهان السادات. ترأس الوفد السوفيتي أول رائدة فضاء في العالم، وهو دليل على ادعاء موسكو أن النساء في الكتلة الاشتراكية الحكومية يتمتعن بالفعل بالمساواة، وهو ما كان صحيحًا من الناحية الإحصائية على الأقل من حيث التعليم والتوظيف.

مئة زهرة

مع بداية عقد الأمم المتحدة للمرأة، اتخذت المنتديات غير الرسمية حياة خاصة بها. بدلاً من المنتديات الاجتماعية العالمية التي ظهرت بداية من المؤتمر الذي عُقد في مدينة بورتو أليجري Porto Alegre ، في البرازيل، في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وكانت تجمعات نسوية كبيرة وصاخبة شهدت مناقشات دولية ساخنة، وساعدت في تكوين صداقات دائمة وشبكات اتصال وسط الفوضى التنظيمية؛ إذ حضرت نحو 8000 امرأة اجتماع كوبنهاجن في عام 1980 . وفي عام 1985 ، احتشد أكثر من 13000 شخصًا في حدائق جامعة نيروبي، ومعظمهم من المنظمات النسائية الأفريقية الرسمية. وبعد عشر سنوات، تجمع ما يقدر بنحو 40000 امرأة حول مركز المؤتمرات نصف المبني في هوايرو Huairou ، في ضواحي بكين. ومما لا شك فيه أن هذه التجمعات قد ساعدت على تحفيز الحركات النسائية المعارضة التي نشأت في جميع أنحاء العالم في أواخر السبعينيات والثمانينيات، والتي تميزت بتنوع أشكالها وتركيزها؛ فازدهر النشاط النسوي في الهند في مرحلة ما بعد الطوارئ، مما أدى إلى إنتاج مجموعة غير عادية من المبادرات والحملات ومجموعات من مسرح الشارع، والمجلات، والتجمعات على مستوى الدولة والتجمعات الوطنية. وفي البرازيل والأرجنتين وشيلي، نظمت الجماعات النسائية المجاورة ضد الديكتاتوريات؛ وتبلورت الميول النسوية داخل المجموعات الطلابية والأحزاب اليسارية. تميَّزت فعاليات أمريكا اللاتينية في جميع أنحاء المنطقة والتي عقدت طوال الثمانينيات بمناقشات ساخنة حول الجنس والعِرق والطبقة.(1)

في الصين، اشتمل الهياج الديموقراطي في الثمانينيات على التيارات النسوية، وكان هناك حديث عن إلغاء البيروقراطية في الاتحاد النسائي لعموم الصين، الذي تم تهميشه بسبب الانحراف البرجوازي في أثناء الثورة الثقافية، ولكن أعيد إحياؤه على يد دينج شياو بينج Deng Xiaoping بعد عام 1978 . وحتى في اليابان؛ حيث أحبطت المحاولات المبكرة لحركة لتحريرة المرأة الذي انبثق من الحركة الطلابية الثورية والمشهد الفني، فقد حفز عِقد الأمم المتحدة للمرأة الاحتجاجات النسوية.

وغالبًا ما كانت هذه الحركات المستقلة تنتقد الهيئات الرسمية التي أنشت لمراقبة تقدم المرأة في مؤتمرات الأمم المتحدة؛ فقد أدانت النسويات الهنديات اللجنة الوطنية للمرأة ووصفتها بأنها نخبوية وبيروقراطية، وأنها بيدق في أيدي الحكومات المتعاقبة. وفي نيبال، عينت الملكة أيشواريا Aishwarya نفسها رئيسة لمجلس تنسيق

(1) cedaw : اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.

الخدمات النسائية الذي كانت مهمته الرئيسية، وفقًا لأحد الناقدين النسويين المحليين، تمجيد جلالة الملكة والسيطرة على أموال المنظمات غير الحكومية الأجنبية. وفي كينيا، كانت هناك شكاوى من أن الرجال كانوا يستخدمون زوجاتهم كواجهات شكلية من أجل إنشاء منظمات للحصول على منح حكومية، إذ ارتفع عدد المجموعات المسجلة من قبل مكتب المرأة ستة أضعاف على مدار العقد.[1] ثقافيًا، كان التأثير النسوي العالمي يتدفق عمومًا من المركز إلى الأطراف، ولكن أحيانا كان يُسيطر عليه ويوجه في اتجاهات معينة. وشهدت الثمانينيات انطلاقًا عالميًا للطروحات الكلاسيكية لتحرير المرأة الأمريكية؛ أجسادنا، أنفسنا (1970)، والتي ظهرت بأكثر من عشرين لغة بحلول نهاية القرن، وغالبًا ما تفتقد إلى نقدها الحاد لمعاملة الصناعات الطبية للنساء، وكذلك فصوله حول الفحص الذاتي والمتعة الذاتية.[2]

متدفقة في الاتجاه الآخر، قامت المطبعة النسوية، بدعم من فورد وروكفلر Ford and Rockefeller، بتنفيذ مشروعين أدبيين طموحين للغاية، والتنقيب عن الكتابات النسوية «المخبوءة» في الهند وأفريقيا، وترجمتها إلى طبعات متعددة، وإنتاج مجموعات ثنائية اللغة من الإسبانية، والشعر النسوي الممتد من العصور القديمة إلى الوقت الحاضر عن اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية والفلمنكية والعبرية والفيتنامية، في سلسلة Defiant Muse.[3]

التكيف الهيكلي بوجه أنثوي

لم يؤد تولي ريجان الحكم إلى تغيير السياسة الخارجية الأمريكية «المؤيدة للنسوية»؛ وبالفعل قادت الابنة الأولى مورين ريجان الفريق الدبلوماسي الأمريكي في مؤتمر الأمم المتحدة النسائي لعام 1985 في نيروبي. حتى الآن كان المد العالمي يسير في ركاب الولايات المتحدة، وقد تسببت أزمة ديون العالم الثالث في ركوع العديد من دول مجموعة الـ 77، كان إدوارد شيفرنادزه Shevardnadze الذي يتسم بالتهدئة، قد تولى المسؤولية من جروميكو في الكرملين، وكانت قيادة منظمة التحرير في حالة هروب.

وفي ذروة عقد الأمم المتحدة للمرأة، تمكنت إدارة ريجان أخيرًا من التوصل إلى نتيجة دبلوماسية كانت مقبولة بالنسبة للولايات المتحدة. من الناحية الأيديولوجية، كان هناك استمرارية واسعة في خطط العمل التي أكدتها المؤتمرات الثلاثة بين عامي 1975 و 1985، على الرغم من أنه بحلول وقت «الاستراتيجيات التطلعية» في نيروبي، عُكس ترتيب موضوعات الكتل الثلاث ضمنيًا؛ فجاءت مكافحة التمييز أولاً، يليها التنمية، ثم السلام.[4] والأمر الأكثر لفتًا للنظر، وسط مستنقع قوائم الرغبات غير اللفظية والفارغة، أن الإجراءات القليلة الممكنة عمليًا، والتي تتميز بجودتها الفولاذية، كانت كلها من كتاب مناهضة التمييز النيوليبرالي «تحسين إمكانية حصول المرأة على الائتمان»، و«تعزيز التنقل المهني للمرأة»، «ساعات عمل مرنة للجميع».[5]

ومع ذلك، فقد بدت وصفات «تقدم المرأة» والسياسة النيوليبرالية وكأنها مستعدة للتصادم المباشر؛ ففي أجزاء كثيرة من العالم الثالث، ساء الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمرأة بشكل حاد خلال عقد الأمم المتحدة. أدت أسعار فائدة فولكر البالغة 20 في المائة في الاحتياطي الفيدرالي إلى امتصاص رأس المال الدولي مرة أخرى لصالح الولايات المتحدة، مما أدى إلى تعميق الركود العالمي وزيادة تكلفة ديون العالم الثالث المقومة بالدولار. وبحلول أواخر الثمانينيات، كانت مدفوعات الفوائد للبنوك الغربية تستهلك 25% من عائدات الصادرات الأفريقية، و 40 %من عائدات الصادرات في أمريكا اللاتينية؛ وانخفضت الأجور الحقيقية بنسبة تزيد عن 30 %في جميع أنحاء أفريقيا وأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي.[6]

كانت كل من أزمات الديون و«حلها»، وبرامج التكيف الهيكلي، شديدة التمييز بين الجنسين، مما أدى إلى القضاء على المكاسب الهشة التي تحققت في السبعينيات؛ فطردت النساء في الرتب الدنيا من وظائف القطاع العام أولاً، بالإضافة إلى انخفاض الإنفاق الحكومي، وتعني التخفيضات في إعانات الوقود والغذاء أن نساء العالم الثالث يقضين ساعات إضافية في الطهو والعناية بأسرهن من أجل تلبية الاحتياجات الأساسية؛ فتتدهور مداخيلهن وحالتهن الصحية والغذائية، وتصبح تبعيتهم الثقافية أكثر رسوخًا في ظل «إصلاحات» صندوق النقد الدولي. وهكذا بنيت الآلية الجديدة للنسوية العالمية على رأس الظروف المتدهورة للنساء في معظم أنحاء العالم.

(1) فيرجينيا آلان، مارجريت جالي وميلدريد بيرسنجر، «المؤتمر العالمي للعام الدولي للمرأة»، في آن وينسلو، النساء، السياسة والأمم المتحدة، ويستبورت، ط م 1995، ص. 41.

(2) «برقية من وزارة الخارجية إلى جميع المناصب الدبلوماسية والقنصلية» 327، المحفوظات الوطنية، آر جي 59، ملف السياسة الخارجية المركزية، 31 ،D790246–0969 مايو 1979. كان ... يتوافق مع حديث كارتر عن حقوق الإنسان، وهو أساس ... جديد ضد الاتحاد السوفيتي وإشارة للتجديد الأخلاقي ... ووترجيت، قام كارتر بترقية مجموعة من النسويات في ... استشارية، بينما مُنِح المعين في مكتب المرأة في ... المتحدة ميزانية قدرها 10 ملايين دولار ... الأمريكي في المؤتمر العالمي الثاني للأمم ... في كوبنهاغن في 1980 لحقوق ال...

(3) كان هذا جزئيًا بفضل تمو... الدعوات ونفقات السفر. بعد ... المنتدى غير الرسمي هناك على ... وهو مركز محكمة المرأة الدولية، ... الإخبارية بالبريد وتولى مسؤولية ... الأمم المتحدة المستقبلية للمرأة ... نشأت أيضًا، ولا سيما isis، خدمة ... التي أطلقتها ماريلي كارل، والتي ساعد... النسوية الدولية في باريس وأمستردام ف...

(4) نويتا يوكو وياماجوتشي ميتسوكو وكوبو كيميكو «اتفاقية الأمم المتحدة للقضاء على التمييز ضد المرأة ووضع المرأة في اليابان» في كتاب باربرا نيلسون ونجمة شودري، النساء والسياسة في جميع أنحاء العالم، نيو هافن 1994، ص. 401؛ شيرين راي، الجندر والاقتصاد السياسي للتنمية، كامبريدج 2002، ص 2-181؛ مينا أشاريا، «المشاركة السياسية للمرأة في نيبال»، وماريا نزومو وكاثلين ستودت، «الآلات السياسية من صنع الإنسان في كينيا: الفضاء السياسي للنساء؟»، في كتاب كل من نيلسون وشودري، النساء والسياسة العالمية، ص 485 و 1-420.

(5) كاثي ديفيس، إصدار أجسادنا، أنفسنا: كيف تسافر النسوية عبر الحدود، دورهام، ن سي 2007، ص 8-52. بعد الطبعات الإيطالية والدنماركية والفرنسية واليابانية في السبعينيات، نُشرت تعديلات للكتاب في السويد واليونان وهولندا وإسبانيا وألمانيا وإسرائيل ومصر في الثمانينيات. ظهرت الترجمات باللغات الروسية والتايلاندية والماندرين في التسعينيات؛ باللغات البلقانية والأرمينية والبولندية والكورية في أوائل القرن الحادي والعشرين.

(6) على الرغم من أن ريجان، مثل ترامب، اتخذ بادرة بقطع الأموال الفيدرالية عن منظمات تنظيم الأسرة التي ذكرت كلمة «إجهاض»، سرعان ما سُدَّ النقص عن طريق دولارات المؤسسات الخيرية.

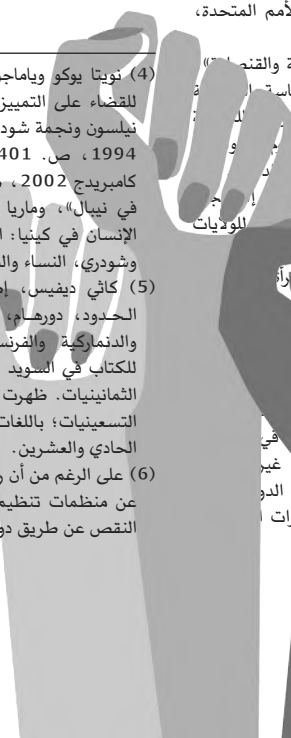

لوركا وعبد الوهاب

عماد أبو صالح

الفن التشكيلي
هل يثبت أركان المدينة من جديد؟

دينا قابيل

الإيقاع المرن للفوتوغرافيا

سارة عابدين

نعيم كواسمى..
الأسرة في مواجهة العالم

حسام الخولى

مرسي جميل عزيز

ماجد وهيب

فنـــــون

1

لوركا و عبد الوهاب

عماد أبو صالح

ألقى الشاعر الإسباني فيدريكو جارسيا لوركا محاضرة «لعب ونظرية الدوينديي» لأول مرة في بوينس أيرس بالأرجنتين سنة ١٩٣٣، ولا تزال تحظى بشهرة واسعة في مختلف بلدان العالم، رغم مرور أكثر من ثمانية عقود. صدرت ترجمات لها في لغات متعددة، إضافة إلى كتب كثيرة خصصها أصحابها لمناقشتها، ومقالات ودراسات وعروض فنية لا تزال تتوالى إلى اليوم، وتحاول فك أسرار جمالها الشرس والغامض والصعب.

ما هو الدويندي؟

الإجابة شبه مستحيلة. لوركا نفسه يقول إنه «قوة غامضة يشعر بها الجميع ولا يفسرها أي فيلسوف».

لكن باختصار مخل، يمكن تعريف الدويندي بأنه جمالية طورها لوركا لمكافحة القواعد الفنية التقليدية، وتقويض الأساليب التي بالغت في تقدير البراعة والشكل والبنية الكلاسيكية على حساب العاطفي والجسدي والحسي في الأعمال الفنية.

تشير كلمة دويندي duende إلى روح الفولكلور في شبه الجزيرة الأيبيرية، ومعناها الحرفي «عفريت» أو «شبح» في اللغة الإسبانية. كما يمكن فهمها على أنها «الكاريزما»، و«الروح»، و«الشيطان»، و«السحر». إنها طاقة يستحيل شرحها، تبث الروح في شيء عادي ليصبح شديد الخصوصية، وتتيح لأي شخص في أي مكان وزمان أن يدركه. تُستخدم الكلمة بكثرة في موسيقى الفلامنكو، لكن يمكن أن نجدها في بقية الفنون للإشارة إلى قدرة الفنان الغامضة على جذب المتلقي. إنها «الإثارة» التي تندلع من الداخل كاستجابة عاطفية، وتتجلى في قشعريرة أو ضحك أو بكاء كرد فعل جسدي لأداء فني فريد وخلاق.

يصف لوركا الدويندي بأنه: «قوة لا كدح، صراع لا فكر. بمعنى أنه ليس مسألة مهارة، بل أسلوب حي، بمعنى أنه في العروق، بمعنى أنه أعرق ثقافات الخلق الفوري». ويؤكد أن «تجلي الدويندي يتطلب تغييراً جذرياً لكافة القوالب القديمة، ويجلب إحساساً بِكراً وغير معروف تماماً، كروعة وردة نبتت للتو، كمعجزة».

في كتابه «دويندي، رحلة البحث عن الفلامنكو»، يقول جيسون ويبستر إن الدويندي تجربة جبارة يمكن أن تعبر عن الفرح والحزن والنشوة والفراغ والوحدة، وتجمع غالباً كل هذه المشاعر في وقت واحد. ويشير إلى ضرورة أن تكون خبيراً بالدويندي لتتمكن من فهمه وإدراكه، لأنه لا يمكن تعريفه إلا بصورة تقريبية. إنه ينطبق عليه تعبير الصوفيين: «من ذاق، عرف».

شاهد ويبستر مغنية فلامنكو في مدينة أليكانتي جنوب شرق إسبانيا؛ استطاعت الوصول إلى دويندي، ويصف لنا الأثر الذي تركته فيه: «تغني، ولكن لا يوجد صوت حلو، ولا لحن لطيف، ولا توجد نغمة يمكن التعرف عليها على الإطلاق. إنه شيء أشبه بالصراخ أو البكاء أو الصياح. خلفها، يبدأ عازفو الجيتار بعزف ضربات قصيرة سريعة، ويضيء صوت المرأة مثل نداء المؤذن للصلاة. امرأة بدينة تغني على خشبة المسرح، ترقص كأنها بالكاد تتحرك، لكنني أشعر بأنها تجرني إليها. تداهمني قشعريرة، إحساس مدهش ينتقل إلى عينيَّ. دموعي تسيل، في حين أن صرخة رئتيها تجد صدى في داخلي، وتجعلني أرغب في الصراخ معها. شعر جلدي يقف، ويتدفق الدم إلى قدميَّ. تسمرت في مكاني، تخدرت بين العاطفة التي خرجت ضد إرادتي، وعار ما أشعر به».

قد يكون هذا الشعور سريع الزوال، وقد يستمر لفترة طويلة، لكن المدة التي يستغرقها تحتاج وقتاً طويلاً لاستيعابها، ويمكنها أن تحدث تغييراً كبيراً في حياة الناس. وسواء نجحنا أو فشلنا في إدراك الدويندي، فإنه يوقظ إحساساً مقلقاً ورائعاً في الجسد والروح.

ووفقاً لكريستوفر موريس، في كتابه «في البحث عن دويندي»، فإن الدويندي يجبر الفنان على تجاوز حدود العقل، ويجره وجهاً لوجه أمام الموت من أجل فن لا يُنسى وتقشعر له الأبدان. إنه بديل للأسلوب، للبراعة، وللمعايير الكلاسيكية. ويشدد على أن الدويندي حين يحضر في الصوت، فإن المغني لا يغني؛ الموت هو الذي يغني، بحيث نشعر مع الأغنية ببريق

السكين، ونشم الدم.

■ ■ ■

من أجمل وأعنف حالات الدويندي، تلك الحالة التي اجتاحت محمد عبد الوهاب سنة 1921 أثناء سماعه أحد ألحان سيد درويش. كان في الثانية عشرة من عمره، حين اصطحبه زميله الممثل فهمي أمان لحضور بروفات أوبريت «شهر زاد» في مسرح «برينتانيا». ينقل عنه محمود عوض في كتابه «محمد عبد الوهاب الذي لا يعرفه أحد»، تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم: «جلست في صالة المسرح أستمع إلى الألحان. كنت في هذه اللحظة أجلس في خشوع وإنصات كما لو كنت في معبد أصلي فيه صلاة روحية. وكانت الأنغام تصل إلى أذنيَّ كأنها أوامر مقدسة لا تُرد. وكنتُ بالجملة قطعةً ترمز إلى الإعجاب والتقديس لهذه الموسيقى التي تهدهد النفس».

نستخلص مما رواه عبد الوهاب أنه كان يستمع إلى موسيقى جميلة، ويمكننا أن نقول: «مريحة»، تدفع إلى الاسترخاء، وتمنح إحساساً مقدساً أو دينياً. إنها موسيقى ليست عادية، لكنها ليست خارقة. فجأة، ودون سابق إنذار، تتبدل السكينة إلى قلق، والطمأنينة إلى فزع. يقول عبد الوهاب: «حدث لي أمر غريب ما زلت لا أدري له تفسيراً. إنه حادث لا يحدث مثله إلا في دنيا المجاذيب، ومع ذلك وقع بالضبط كما أرويه. فقد بدأت الفرقة تؤدي بروفة لحن في رواية شهر زاد مطلعه: أنا المصري كريم العنصرين، وجلست أستمع إلى ذلك اللحن ذاهلاً عن كل ما حولي، كما لو كان فيه سر يصل ما بينه وبين إحساسي بشيء يسلب إرادتي».

ما حدث، وما لم يستطع عبد الوهاب تفسيره، هو أن الدويندي اندلع بكل عنفه وناره وجنونه، اكتسحه ولبسه أو تلبسه، حتى أصبح بلا إرادة ولا عقل. ويصف رد فعله بعد انتهاء اللحن، قائلاً: «رأيت نفسي أجري بكل ما أوتيت من قوة. وظللت أجري حتى وصلت إلى ميدان باب الحديد، ثم جلست على أحد الأرصفة ألتقط أنفاسي، وأمعن الفكر في السبب الذي دفعني لهذا التصرف الغريب. لم يكن ثمة سبب واحد أراه معقولاً لتفسير ما فعلت. كل ما استطعت أن أصل إليه هو أنني سمعت لحناً خارقاً لم أتعود سماعه، وأنني جريت بكل قوتي كما لو كان شيء مخيف يطاردني، أما ما عدا ذلك فلا شيء!».

شأن كل ممسوس أو «مضروب» بسهم الدويندي، يبدأ عبد الوهاب في طرح الأسئلة: «هل هو إعجاب شديد كان مكبوتاً في نفسي ثم انطلق مرة واحدة يعبر عن نفسه ويجعلني أطلق لساقيَّ العنان بغير سبب وبغير وجهة؟ هل هي لحظة من لحظات الجنون التي تعتري العقل إزاء مصادفة خارقة أو صدمة نفسية تتفاعل في داخل المرء فتدفعه إلى مثل هذا التصرف

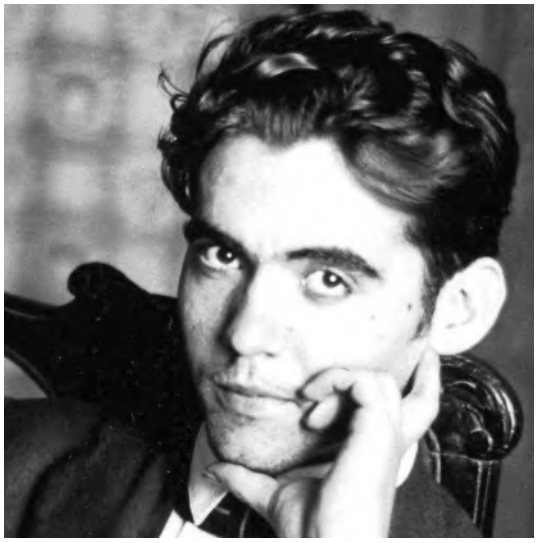

الشاذ؟ أو هل هو في النهاية مجرد جري للجري فقط؟».

لا إجابات بالطبع يتوصل إليها، ليس سوى الشعور الذي هز بدنه كله، وأجبره على الجري أو الهرب: «لا أعرف سوى حقيقة واحدة هي أنني قطعت المسافة من التياترو حتى باب الحديد جرياً دون توقف، بعد أن سمعت ذلك اللحن».

ما يحكيه محمد عبد الوهاب يلخص حالة دويندي كامل ومكتمل، دون أن يقرأ محاضرة لوركا، بل قبل أن يلقي لوركا محاضرته باثني عشر عاماً. ومن الملفت والمدهش أن الفنان المصري يستخدم نفس المفردات التي يستخدمها الشاعر الإسباني لتعريف الدويندي، مثل: «غريب»، و«مخيف»، و«صدمة»، و«خارق»، و«جنون» و«يطارد»، و«سر»، حتى أن عبارته: «لا أدري له تفسيراً»، تكاد تتطابق حرفياً مع قول لوركا: «لا يفسره أي فيلسوف».

حكى عبد الوهاب هذه التجربة النادرة أكثر من مرة، مع تغيير في بعض الكلمات. في الحلقة الثالثة عشرة من مسلسل «حياتي» بإذاعة «صوت العرب» عام 1962؛ يسمي الشعور الذي مسَّه باسم الدويندي نفسه في اللغة الإسبانية: «شيطان من الجن». ويصف حالته فور سماع اللحن بأوصاف إضافية: «جريت، جريت، ظللت أجري في الشارع وأنا خارج وعيي. من شارع الألفي، إلى شارع عماد الدين، حتى وصلت إلى باب الحديد. أردت أن أهرب من نفسي، من عبد الوهاب، أردت أن أطلع من جلدي، وأترك خلفي عبد الوهاب الذي حفظ القديم. يومها اكتشفت الفرق بين الفن الذي أدرسه في المعهد وبين الضوء الجديد الذي جلبه معه الشيخ سيد درويش». وينهي الحكاية بالوصول إلى خلاصة ما توصل إليه لوركا في محاضرته، قائلاً: «يومها اكتشفت أن الفنان الذي يملك بذرة التطور يمكن أن يخلق من القديم جديداً».

لمن يسأل: هناك طرق أخرى كثيرة للتعبير عن الإعجاب بعمل فني، فما الذي دفع عبد الوهاب للجري على «القدمين»؟

الإجابة نجدها في محاضرة لوركا: «دويندي ليس في الحلق، إنه ينبثق عالياً من باطن القدمين».

(*) نص من كتاب تحت الطبع بعنوان: «عن لوركا».

2

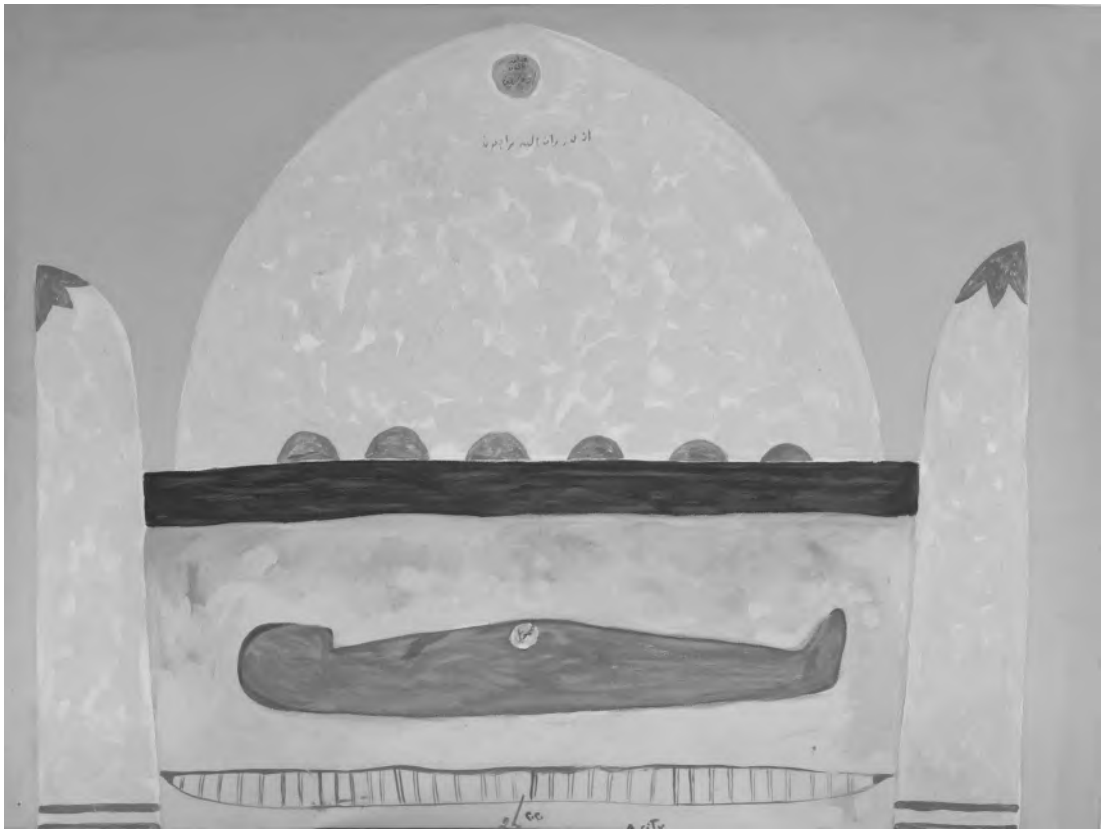

وسط البلد: أنا لا أكذب ولكني أتجمل

الفن التشكيلي هل يثبت أركان المدينة من جديد؟

دينا قابيل

في لحظة تتبدل فيها ملامح المدينة شيئًا فشيئًا بوتيرة سريعة ومربكة وتسحب الحياة من قلبها النابض، أي وسط المدينة، بادرت مجموعة من أصحاب قاعات الفن التشكيلي بوسط البلد بتنظيم معارض افتتحت في اليوم نفسه، في 31 أكتوبر الماضي. تنطلق الفكرة من العمل بشكل جماعي من أجل توفير مسار للزائر ليتجول بين المعارض المختلفة، ويشاهد معرض للنحات والمصور ماجد ميخائيل في جاليري كريم فرنسيس، ثم يعرج إلى معرض «أشيائي المفضلة» في جاليري مشربية، ليشاهد مجموعة من الفنانين الشباب، ثم ينتهي بمعرض «الضوء الخالد» في «الفاكتوري» في مكان جاليري تاون هاوس الشهير، والذي نظمه «أرت ديجيبت» حول الفن المصري القديم.

بهذه المبادرة، أراد كل من كريم فرنسيس وستيفانيا إنجارانو أن يبادرا بأولى خطواتهم في تحريك المياه الراكدة بعد فترة طويلة من الخمول، وهما اللذان شهدا زمنًا كانت فيه وسط البلد تضج بالنشاط، وكانت ملتقى ثقافيًا بحق، ليس فقط على صعيد الفن التشكيلي، ولكن في السينما والموسيقى والأدب وتبادل الأفكار؛ حيث مقاهي المثقفين وأماكن الثقافة الأثيرة، مثل ريش وأتيلييه القاهرة والجريون، ودور السينما المتمركزة فيها، وقاعات العرض السينمائي في جمعية النقاد الشهيرة بـ36 ش شريف، أو قاعة النيل، ونوادي السينما التي كانت تنظمها الجامعة الأمريكية في التحرير، وقاعات الفنون التي أغلقت أبوابها مثل تاون هاوس الذي أسسها وليم ويلز، أو تلك التي هجرها الزائرون مع كل التغيرات الديموغرافية

والسياسية الاجتماعية التي حلت بوسط البلد.

هل لا زال ممكنًا استعادة هذه الحركة الصاخبة، وهذا الزخم الثقافي الذي تشكل من طبقات عديدة عبر سنوات بعيدة ثم خفت نجمه؟ صحيح أن سنوات ما بعد ثورة يناير شهدت إغلاقًا للمجال العام وكل الروافد والمنابر الثقافية، وصحيح أن وسط المدينة شهد محاولات لإحياء القاهرة الخديوية وتحويلها إلى أماكن متحفية وسياحية، مثلها مثل سائر العواصم الكبرى، لكنها ظلت في معظم الأحوال مشاريع استثمارية تتعامل مع الثقافية كحلية لتزيين مشروعاتها، وصارت قاعدة البيانات التي رصدت البيوت التي سكنها نجوم ومشاهير الفن والأدب والفكر لا تتجاوز مجرد لوحة ارشادية أسفل المبنى هي غاية المُنى. لا بد وأن مبادرة اليوم تحاول استعادة مهرجان نطاق الذي شهد نجاحًا باهرًا في أولى دوراته، ذلك الذي أقيم في بداية الألفية واستمر لدورتين على عامين متتاليين، ونجح في أن يجمع الاتجاهات الجديدة في الفن المعاصر بجميع أشكاله حيث اعتمد على عرض الفن التشكيلي والموسيقى والرقص والمسرح والسينما والشعر داخل «نطاق» وسط البلد، واتخذ من شكل النطاق شعارًا له، أي شكل أشبه بخريطة تمثل قلب العاصمة وتتفرع منها شرايين مختلفة تسير بالزائر في جولة بين الفنون المختلفة يجمع بينها جميعا روح وثابة ومتمردة، روح ترنو إلى المعاصرة وترفض الأشكال الكلاسيكية القائمة. فنذكر كيف تبلورت آنذاك العديد من السجالات الفنية حول «شرعية» أعمال الفيديو آرت والعمل المركب، هل ينتمي الفيديو آرت إلى الفن السابع أم إلى الفن التشكيلي، وهل يمكن اعتبار التكوين في الفراغ والأعمال ثلاثية الأبعاد أعمالاً فنية، حتى وإن كانت بعيدة كل البعد عن الصورة التقليدية للفن كلوحة أو قطعة نحتية تُقتنى.

هل يمكننا اليوم استعادة مهرجان «نطاق»؟ لا يملك كريم فرنسيس سوى فضيلة التفاؤل، إذ يعتبر أن ما تم اليوم من دعوة الأطراف الفنية المختلفة وجمعها في قائمة واحدة مصحوبة برابط إلكتروني خاص بكل جهة هو أولى الخطوات والنواة الأولى لما يمكن أن يسمى «مهرجان» أو «نطاق» جديد. حيث من المفترض أن يتم الاتفاق بين كل الفاعلين الثقافيين في وسط البلد، فبالإضافة إلى قاعات الفن، يتسع هذا الدليل ليشمل مركز التحرير التابع للجامعة الأمريكية، وورشة حسن الجريتلي وسينما زاوية، ولم لا مسارح ومكتبات ومطاعم؟ نقطة البدء بالنسبة إلى كريم فرنسيس هي تجاوز حالة الجزر المنعزلة التي صار عليها وسط البلد اليوم، إذ يرى فرنسيس أن المرحلة الأولى هي تكوين منصة للفن المعاصر تقدم أنشطتها الفنية المتنوعة بصورة شهرية في وسط البلد ويتجمع من خلالها الأماكن الجغرافية المتقاربة. «المرحلة الثانية ستكون توسيع دائرة العارضين أو المشاركين شهريًا، لنصل إلى المرحة الثالثة وهي تنظيم مهرجان أو حدث فني جماعي تشاركي».

الفن المصري القديم: عنوان المعاصرة قاعة كريم فرنسيس

كانت أولى محطات الجولة وأكثرها إدهاشًا هي زيارة جاليري كريم فرنسيس، حيث تعرض أعمال الفنان ماجد ميخائيل، إذ بمجرد دخول القاعة تنقلك الأعمال إلى عالم من الصفاء تذكرك -دون أن تعي- بأجواء فيلم المومياء والمشاهد الفنية التي صممها شادي عبد السلام. إذ ربما تكمن هذه العلاقة في البناء المعماري للوحات-المشاهد والخطوط الانسيابية الخالصة التي تميل نحو التجريد والنقاء، أو ربما بسبب تيمة الموت التي تسيطر على الأعمال ولكنها مع ذلك تدعوك إلى عالم بعيد عن القتامة، عالم شديد الرحابة يجمع بين براءة الطفولة وعمق جدلية الموت-الحياة.

أما تيمة الموت والحياة فلا بد أنها تنتقل إلى الزائر من خلال موضوعات الأعمال مثل المقابر والأعمدة والبناء المعماري الذي يستوحى خطوطه من الفن المصري القديم.

لكنه في أعماله جميعها لا يشبه ماجد ميخائيل سوى نفسه حتى وإن ذكرنا بأجواء الفن المصري القديم، وحتى وإن كان

تتلمذ على يد النحات الأكبر آدم حنين الذي تدرب في مرسمه بالحرانية لمدة 6 سنوات وتعلق به تعلقًا شديدًا جعله يهديه إحدى أعماله التي يصور فيها مقبرة يرقد فيها الجثمان في سلام وقد كتب أعلى اللوحة «مدفن الفنان آدم حنين» وفوق قبة المدفن نقشت الآية «إنا لله وإن إليه راجعون»، لكنا لا نجد مع ذلك أي علامات نقل أو تأثر ولو من بعيد بأعمال معلمه الفنية. بل يمكن القول إنه في ولعه بالفن المصري القديم استطاع أن يلمس جوهر هذا الفن من حيث الأجواء الروحانية وحالة الصفاء المهيمنة على المكان، وذلك دون أن يعيد انتاج القديم، وإن كان هناك من ملامح غير مباشرة يتقاسمها مع الفن المصري القديم فقد نجدها في السيمترية والخطوط التجريدية التي لا زخرفة بها، تلك التي تبحث عن النقاء. وقد نجد في بعض الأعمال موتيفة فرعونية هنا أوهناك مثل زهرة اللوتس، أو الإله هابو أو المنحوتات الصغيرة لأجساد اشبه بالمومياوات، لكنها تتخذ ملمحًا شديد المعاصرة في أعماله، فتختفي تفاصيل الوجه والجسد لتكون أكثر تجريدية، وتتحول الخطوط الهندسية الحادة إلى انحناءات واستدارات تستلهم من الفن الشعبي، إذ يجمع شكل المقبرة بين المقابر الفرعونية والأضرحة والمدافن المعاصرة.

أما الجانب الطفولي الذي نطلق عليه البراءة الأولى فيتأسس من مجموعات الألوان الباستيل الرائقة الهادئة التي تبعد تمامًا عن الألوان المعروفة في الفن المصري القديم مثل درجات خاصة من الأزرق والأخضر والطوبي، هذه الطفولة المنعكسة أيضًا في الخطوط تتأكد من عنوان المعرض نفسه «الحياة الأولى».

الجدارية بين اليوم والأمس البعيد قاعة الفاكتوري

ومن خلال العمل المركب الذي يعرضه ميخائيل في قاعة الفاكتوري، تتأكد جدلية الموت والحياة، الموت ليس كنهاية بل كبداية أولى، الموت كما في الحضارة المصرية القديمة كمرادف للبعث والحياة الجديد. يسكن العمل المركب «الحياة الأولى» جنبًا إلى جنب مع أعمال تسعة فنانين آخرين مثل محمد عبلة وعادل السيوي ونهال وهبي وإبراهيم الدسوقي وثروت البحر وإبراهيم خطاب ومجموعة أعمال فوتوغرافيا من جاليري تينترا. سعت مجموعة آرت ديجيبت التي نظمت هذا المعرض لإلقاء الضوء بدورها على الفن المصري القديم ولكن بصورة شديدة المعاصرة، واتخذت منظور خاص في تناول تراث الأقدمين وهو الضوء، إذ حمل المعرض عنوان: «الضوء الخالد». هذه المهارة في التحكم في الضوء والظل عبر المنحوتات الجرانيتية الصلبة هي ما لفت النحات الأشهر رودان وخطف لبه، إذ يروي في مذكراته ما حدث له حين كان بعد فتى غر يذهب إلى متحف اللوفر ويتأمل المنحوتات الرومانية الإغريقية، ثم ما إن وقعت عينيه على قطع الفن المصري القديم حتى قال متعجبًا: «تأملوا هذا التوزيع العبقري للضوء والظل».

تتمثل فكرة الإضاءة بوضوح في عمل الفنان محمد عبلة الذي يقدم فكرة الجدارية في صورة معاصرة، حيث تتعدد الرسوم المستوحاة من النقوش الفرعونية على مسطح مستطيل، ولكن بدلاً من الجدارية المسمطة المعروفة تتحول إلى وحدات مفرغة مثل قطعة الدانتيلا التي تسمح بمرور الضوء من خلفها وتكوين ظلال لا متناهية من الأشكال المصممة.

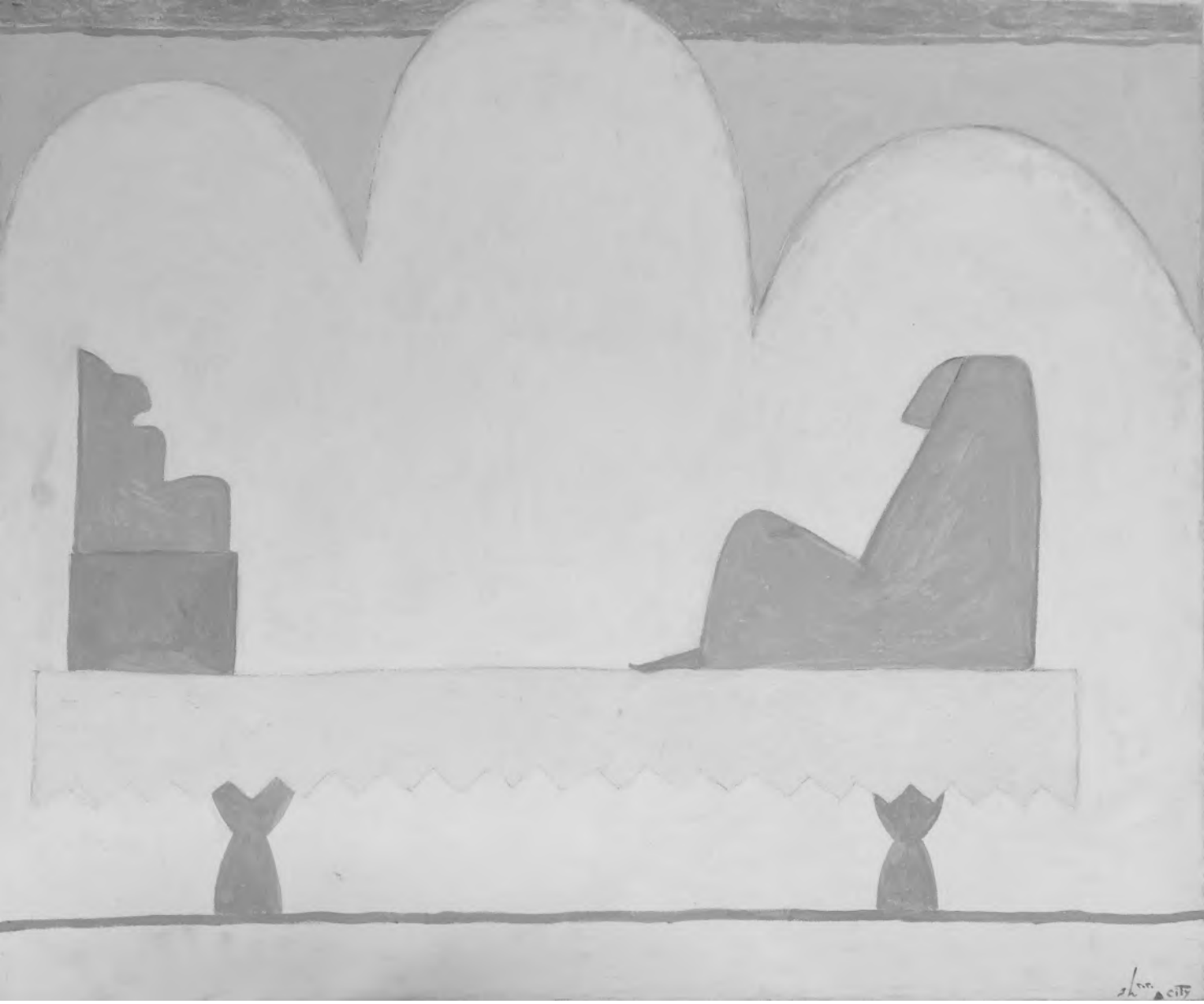

أما عادل السيوي، فيُعرض له عمل واحد من مجموعة أعماله عن الحيوانات، وهو الإيبس، هذا الحيوان الأسطوري الذي يرجع للحضارة الفرعونية أيضًا والذي يحتل مساحة لوحة ضخمة تصل إلى مترين، متصدرًا برقبته الطويلة في شموخ، يذكرنا بالتاريخ البعيد ولكنه في خطوط وتناول معاصر يفرض حضورًا طاغيًا.

بينما استخدم هاني راشد مفهوم الجدارية كركيزة ليقدم من خلالها مجموعة من الصور عبر تقنية الكولاج، وهي صور متنوعة اقتطعها من مجلات الموضة وقد أضاف الرتوش هنا وهناك ومحى ملامح الوجه باللون الأبيض لتتراص صور الملابس على أجساد مجهولة جنبًا إلى جنب مثل جدارية ضخمة. لكنها فيما عدا هذه الفكرة لا تبدو متماشية مع محيطها من أعمال فنية وهي اللوحة التي كانت سبق وعُرضت في معرض «الاستغراب».

وتنتهي الجولة بقاعة المشربية التي تقدم معرضًا بعنوان «أشيائي المفضلة» وهي الدورة الخامسة لهذا المشروع الذي تسعى ستيفانيا أنجارانو من خلاله لتأسيس منصة مصرية تركز على تقديم الفنانات المصريات للعالم، من خلال معرض جماعي سنوي يسلط الضوء على أعمال فنية يبدعها الجيل الجديد. يضم المعرض 19 فنانة تقدم كل منهن عمل أو عملين، وتظهر فكرة المعرض أو «أشيائي المفضلة» من خلال أعمال الفنانات التي تسعى لتقديم المدينة كل من زاويته الخاصة كما لو كان هذا الفضاء الواسع والمستغرب يروض و»امتلاكه» إذا جاز التعبير عن طريق الأشكال الفنية المختلفة. فتضع المصورة سارة يونس بالونة زرقاء تصاحب كادراتها المختارة للمدينة، وسط الأبنية الضخمة وأجهزة الإنشاءات العملاقة والمدن الجديدة الفاقدة للروح، تضع الفنانة البالونة داخل الكادر كما لو كانت تستدعى عنصر إنساني رهيف رهافة البالون قبل أن يتم إغفاله.

بينما يتأسس عمل مركب لأمينة قدوس عن مدينة المحلة الكبرى على صور في حجم الكروت السياحية كتب عليها «أجمل التهاني من المحلة الكبرى»؛ جمعت الفنانة بعضها من أوراق جدها الذي ينتمي للمدينة الصناعية، وأبدعت البعض الآخر من خلال صور حديثة التقطتها الفنانة للتكوين المعماري لمدخل المدينة ولصورة ميدان التحرير التي تحتل أحد جدران مدخل المدينة، ونفذتها على الكروت التي تحمل علامات القدم. جعلت الفنانة من تاريخ المدينة مساحة تخصها وحدها، من أشيائها المفضلة حيث تحيل الصورة إلى فعل التذكر، وتدعو زائر المعرض إلى مشاركتها هذه اللحظة من الحنين التي صار فيها شعار «المحلة الكبرى قلعة الصناعة» مرادفًا للنضال وللحركة الوطنية الناصعة ولحظات التغيير الكبرى.

3

الإيقاع المرن للفوتوغرافيا

سارة عابدين صور: على زرعى

«الكاميرا هي الطريقة المرنة للالتقاء بواقع الآخرين»..
جيري أولسمان Jerry Uelsmann

إذا نظرنا إلى صورة فوتوغرافية سنتعرف من خلالها على ترتيب في الفضاء يشبه تمامًا ذلك الذي ندركه في الواقع. على الرغم من كوننا على يقين أن الصورة مسطحة، إلا أننا نرى فيها قطعة من الزمن والفضاء بثلاثة أبعاد.

تمتلك بعض الصور نشاطًا أكثر من غيرها، وهي الصور التي ننغمس في الرؤية عندما نشاهدها، ليتصور خيالنا جميع أنواع الحركة بداخلها، تلك الحركة التي تعد أحد أهم أسباب إدراكنا لواقعيتها، لأننا عندما ننظر إلى الصورة الثابتة، نستكشف الحركة خلالها، لأن العقل البشري يخلقها، حتى لو كانت غير موضوعية. يحدث ذلك لأن العقل البشري نفسه لا يتوقف عن الحركة، لكن كيف يحدث ذلك في الصورة الفوتوغرافية؟

إيقاع العناصر المتكررة

عندما يتحدث المصورون عن الحركة في صورة ما، غالبًا ما يشيرون إلى التأثير الإيقاعي لبعض العناصر المرئية التي تتكرر، مثل: مجموعة من الأشخاص يقفون في صف، أو صف من الطيور على غصن شجرة، كما يمكن أن يكون للأنماط والزخارف المتكررة شعور إيقاعي مماثل. تخلق العناصر المتكررة إحساسًا بالزخم والاستمرار، تمامًا مثل الموسيقى المتدفقة من مقطوعة موسيقية.

على الرغم من تأكد المشاهد أن الصورة لا تتحرك، لكنه في بعض الأحيان وبفضل براعة المصور أو حتى بفضل المصادفة، يشعر أن التكرار والحركة تتجاوز بالفعل إطار الصورة وتخرج عن حدوده، اعتمادًا على الصفات المرئية والرمزية بداخل الصورة.

بالإضافة إلى تكرار العناصر، تبقى التغيرات التدريجية بداخل الصورة أيضًا محفزًا لشعور الحركة في عين المشاهد. التغيرات التدريجية يمكن أن تكون في الحجم والشكل واللون والملمس، مثل مجموعة من الزجاجات متشابهة الشكل، مع اختلاف أحجامها من واحدة لأخرى، أو كومة من الأحجار تتلاشى تدريجيًا إلى حجر وحيد في نهاية الصورة.

يعني التدرج الحركة بشكل ضمني، لأنه يحاكي الانتقال ومرور الوقت في تسلسل مرئي للأحداث، كما أن التحولات التي تحدث، على المشهد وعناصره والتي تجعل العين تتبع المشهد من بدايته حتى نهايته، تعزز الشعور بالحركة داخل الصورة.

الضبابية

مع ضبط عدسة الكاميرا على سرعة أبطأ، يبدو الهدف المتحرك ضبابيًا وغير واضح. كلما زادت الضبابية زادت الحركة المتخيلة داخل الصورة. في الحياة الواقعية، تسجل العين بشكل طبيعي الأجسام سريعة الحركة، على أنها ضبابية. أحيانًا تكون الكاميرا هي

المتحركة بدلًا من الهدف، مثلما نهز الكاميرا أو نقوم بتدويرها في أثناء اللقطة أفقيًّا أو رأسيًّا. تقدم هذه الأنواع المختلفة من الضبابية بعض الخيارات المثيرة للاهتمام، مثل أن الهدف ينزلق أو يرتجف، أو يتجاوز الإطار، ويجتاحنا كمشاهدين.

تقدم أيضًا بعض فلاتر الفوتوشوب وبرامج تحرير الصور الأخرى، أنواع مختلفة من أحاسيس الحركة، مع تأثيرات تتراوح بين الحركة السريعة والحركة البطيئة التي لا يلاحظها المشاهد بعينه، لكنه يشعر بها في عقله الباطن عند إمعان النظر إلى الصورة.

تشمل طرق خلق الحركة في الصورة أيضًا التأثيرات البصرية الناتجة عن اختلاف عدسات التصوير، مثل الزوايا الواسعة التي تنتج شعور الانتشار والاتساع، بينما العدسات المقربة، تجعلنا أقرب إلى نقطة التركيز. توحي كل تلك الاختلافات بأنواع مختلفة من الحركة، خصوصًا في ظل تغيرات الضوء وكميته واتجاهاته.

الحركة المجمدة والحركة الضمنية

ننظر إلى الصور طوال حياتنا، وقد اعتدنا على أنها تلتقط لحظة مجمدة في الوقت الذي يختاره المصور. نفترض بوعي، أو بغير وعي، أن هناك قبل وبعد، وأن هذه اللحظة مفعمة بالحركة على الرغم من ثباتها.

تتيح لنا اللقطات عالية السرعة، التي تجمد الأشخاص أو الحيوانات والسيارات والأنهار والكرات وكل ما هو متحرك، بوضوح معرفة أن الصورة مستخرجة من مشهد متحرك بالأساس، ثم يقوم العقل الإنساني بملء ما قبل الصورة وما بعدها، لنتعرف على ما وراء اللقطة الثابتة.

كل لقطة لشخص ما في صورة تشجعنا على قراءة الحركة الخاصة بهم، جالسين أو مستلقين أو واقفين. حتى الاتجاه الذي ينظر إليه الأشخاص والحيوانات وهو ما يسمى بخط الرؤية، يعني ضمنيًّا أن الحركة في هذا الاتجاه، ولا يمكن تجاهل أهمية حركة العين كم أجل عملية الرؤية، إذ ينبغي أن تتحرك العين باستمرار حول المشهد بالكامل، كما يشجع ترتيب الأعمال المعروضة على الجدار العين للالتفاف حول الصورة، لأن العين تميل إلى التحرك مع الاتجاهات المختلفة للخطوط التي تخلق بدورها مشاعر مختلفة من إيحاءات الحركة.

تغير الخطوط المنحنية اتجاهات الحركة باستمرار، وتقدم تدفقًا رشيقًا، أو تسارعًا، اعتمادًا على درجة الانحناء. تتأرجح الخطوط ذهابًا وإيابًا في الملابس أو العناصر المحيطة. تتباعد تتلاقى، تتحول لدوائر، أو إشعاعات. تتفاعل حركات الخطوط المختلفة معًا، لتعزيز مشاعر الحركة المختلفة، من خلال خلق توتر ديناميكي، مثل الصعود مقابل الهبوط، أو الذهاب إلى اليسار مقابل اليمين.

يمكن لمجموعة متنوعة من استراتيجيات التكوين أن تولد الحركة، عن طريق المنافسة والتباين بين الخطوط، أو الغموض بين مقدمة الصورة والخلفية، أو بين السماء والأرض. تشير العناصر الثقيلة بصريًّا عندما توضع في الجزء الأسفل من الصورة إلى الاستقرار، بينما يثير وضعها في الجزء العلوي إحساس يتحدى الجاذبية، لنشعر بالفارق بين الاستقرار والتأرجح، والثقل مقابل الخفة.

لغة الجسد في التصوير الفوتوغرافي

توجد أنواع أخرى من الخطوط تنشأ من لغة الجسد الموجودة في الصورة، مثل حركة الأصابع، أو اتجاهات الرأس، أو ظهور صخرة تطفو على الماء، أو طائر في وضع الطيران، أو سائل على وشك السكب. كل هذه الدلالات في الصورة تشير أن الحركة قد حدثت، أو في طريقها للحدوث.

وعلى الرغم من أن الصورة لا تلتقط الأصوات، ولا تنقل ما يقوله الناس، لكن الاتصال غير اللفظي يكشف أكثر من الكلام. طريقة البشر في ارتداء ملابسهم، وكيفية تحركهم، ووضعياتهم، تعكس مشاعرهم التي لا يرغبون في التعبير عنها، أو التي يحبسونها في العقل الباطن. على سبيل المثال أولئك الذين يفكرون في المستقبل يميلون قليلًا إلى الأمام في أثناء التصوير، بينما الذين يفكرون في الماضي يميلون قليلًا إلى الخلف.

على الرغم من أن الصورة لا يمكنها تسجيل حركة الجسم على مدى زمني معين، مثلما يفعل الفيديو، إلا أنها تتفوق في تصوير جوهر الشخص واكتشافه من خلال لغة الجسد في لحظة معينة من الزمن، ذلك الجوهر الذي لا يمكن ملاحظته أو اكتشافه في أثناء حركة جسم الشخص.

فهم الأنماط المختلفة للغة الجسد

قد يستفيد المصورون الذين يرغبون في تصوير الأشخاص من التعرف على أنماط لغة الجسد الأساسية التي تصور عواطف أو حالات عقلية معينة، إذ تشكل مجموعة من الإشارات الجسدية نمطًا يعبر بشكل موثوق عن الحالة النفسية والعقلية للشخص. يستخدم المصورون هذه المعرفة لتوجيه الموديل إلى وضعيات معينة حسب الحالة التي يريدون تصديرها للمشاهد. قد تؤدي مجموعة الإشارات الجسدية التي تبدو متضاربة مثل القبضة المضمومة والوجه المبتسم، إلى صور تلتقط الأبعاد المتباينة لشخصية الإنسان.

يلعب الوجه واليدان دورًا حاسمًا في التعبير عن المشاعر والأمزجة المختلفة، ويظهر ذلك بوضوح في لغة الإشارة والتي تحمل معاني مختلفة مثل الإغراء، والمصافحة والتحية. إذ يشد الناس قبضاتهم عند الشعور بالغضب، يظهرون التململ والتوتر بحركات الأصابع، يلوحون بأيديهم تلويحات مختلفة قد تحمل معاني الترحاب أو معاني التجاهل. يستخدم الناس أصابعهم وأيديهم في أثناء الحديث بشكل لا شعوري. تظهر هنا اللحظات المناسبة لالتقاط صور حقيقية تعكس بالفعل شخصيات أصحابها.

ويعكس الوجه تعقيدات وفروق التعبير وتنوع ودقة المشاعر الإنسانية. يبرز الوجه الشخصية حتى عند الرغبة في إخفاءها. يقول عالم النفس بول إيكمان Paul Ekman إن هناك سبع عواطف أساسية، تنقلها سبعة تعبيرات وهي: الحزن، والمفاجأة، والغضب، والازدراء، والاشمئزاز، والخوف، والسعادة. ما يزال هناك جدل كبير بشأن هذه الدراسة، تتعلق بإمكانات الوجه وقدرته على التعبير عن مشاعر أكثر، لكن يوجد بالطبع العديد من الفروق الدقيقة في تعبيرات الوجوه، حسب شدة تعبير كل وجه.

كما لا يمكن تجاهل دور البيئة المحيطة بالموديل داخل الصورة، في تفسيرنا لغة الجسد الخاصة به. إذ لا يمكن المساواة بين رجل مستلقٍ على السرير في المنزل، وبين آخر مستلقٍ على مقعد في محطةٍ مترو، أو على أحد الأرصفة.

في النهاية، لا يمكن تجاهل المصور كجزء من الصورة، حتى لو لم يكن بداخلها، لأن المتفرج عندما ينظر إلى الصورة يفكر بشكل غير واعٍ في المصور الذي يختبر الصورة من خلال عينيه. قد تستهدفنا لغة الجسد في الصورة بمشاعر قوية، أو قد تدعونا بما تشعه من لطف، أو تدفعنا بعيدًا بعدوانيتها، أو تبدو غافلة عن وجودنا عندما يبدو الحدث بداخلها حميميًّا للغاية، مما يضعنا في موقف تلصص.

قد تبدو عينا الموديل ونظراته، وكأنها تعبر عن شعور أو فكرة تجاه المتفرج، على الرغم من أن الأمر الأكثر دقة هو وجود هذا الاتصال مع المصور، وحتى عندما لا ينظر الأشخاص إلى الكاميرا، نشعر أحيانًا بما يدور داخلهم في أثناء التصوير خصوصًا عندما لا يُوجهون جيدًا من قِبل المصور إلى ما يفترض أن يفعلوه في أثناء التقاط الصورة.

4

نعومي كواسي
الأسرة فى مواجهة العالم

حسام الخولى

عالمٌ فسيح، معولم، قاسٍ، مليء بالتناقض والتضارب؛ الجملة التي يظن إنسان بأنها كليشيه وهمي وساذج يؤمّن آخر عليها كعقيدة راسخة.. «المال يصنع السعادة» غالبًا ما تُستقبل من فقير كعقيدة، لا يلتفت إلى كلمات أخرى تمجِّد الحب والاحتواء والأسرة على حساب المال، وفقًا لتجربته القاسية مع الحاجة. لا يمكنك البرهنة على رضوخ الإنسان أمام معايير حقارة العصر الحديث باعتباره السبب الأهم، وتترك صراعات الإنسان مع ذاته وتحققه الفردي منذ خُلِق، الأمر ليس بجديد. تتسارع المجتمعات في تصنيف نفسها وأهدافها ومن ثَم دورة حياة أفرادها واهتماماتهم؛ في اليابان على سبيل المثال، كمجتمع صناعي يصدّر عبادة العمل على أي شيء آخر، تجد أن الجميع يعلم عن فكرة «استئجار أسرة»؛ هذا المجتمع السريع، المستهلَك، نادرًا ما يفكر أفراده في تكوين أسرة كبيرة أو صغيرة، وفي أثناء الاضطرار إلى الظهور داخل أسرة، في حفلات الزفاف أو غيرها من المناسبات الحزينة والسعيدة يمكن أن يستأجر أحدهم أسرة يحدد عددها ونوع أشخاصها وهوياتهم لحضور المناسبة، وبعد الانتهاء يذهب هذا إلى طريق والآخر إلى عكسه، هنا يوجَز دور الأسرة ظاهريًا فقط، تلك معضلة أكثر تعقيدًا من شرح سياقاتها في سطور قليلة لكنها تعبر ضمن ما تعبر عن مدى تجريد مجتمعها من كل شيء إنساني خالص لا يترجم إلى أرقام، استثناءات قليلة تحتقر الامتثال لذلك وتصنع فنها لمواجهة هذه الشيطنة، مثلما تفعل المخرجة والكاتبة اليابانية نعومي كواسي خلال مشوارها الفني منذ فيلمها الأول وحتى آخر لقطة في فيلمها الأحدث.

هذا الشهر، وبعد عامين، المسافة التي فصلتها عن فيلمها الأخير «رؤية» 2018 التي حكت خلاله قصة فتاة تسافر إلى العالم لتجرَّب وتكتب تفاصيل ما تراه، وحيدة، يقسو العالم على وحدتها على الرغم من كل شيء، استخدمت خلاله قطعات مونتاج حادة على غير عادتها، قدمت كواسي ككاتبة ومخرجة أيضًا فيلمها الأحدث «أمهات حقيقيات» الذي كان الفيلم الأطول بين أفلام مهرجان الجونة السينمائي 2020 وربما في تاريخ أفلام كواسي ذاتها، يصل إلى نحو ساعتين وثلث الساعة؛ أوديسة سينمائية متقنة، تُعزف ببطء دون ملل، قصة يمكن أن ندور حولها لتروضيها وتصفية عسلها، هادئة، دون فجاجة ولا مباشرة.

ثلاث مشاهد متصلة منفصلة

(1) أسرة هادئة؛ زوج وزوجته يتشاركان المنزل والعمل ذاته، لا يفترقان، مع انتظار الزوجة طويلًا لطفل/ـة، يدركان

عن طريق الطبيب أن الزوج لديه مشكلة في الإنجاب، من ثَم لن يستطيعا إتمام ذلك معًا، يرغب الزوج في إنهاء الزواج، يعتقد أن قراره من حق زوجته عليه، تخبره أنها تريد الاستمرار، يوافق حزينًا، لأنه يدرك داخله ما سيخبرها به لاحقًا: «أريد أن أكون في أسرة».

(2) مراهقة صغيرة أربعة عشر عامًا فقط تقع في حب زميلها في المدرسة، يمارسان الجنس بدافع الحب، وتكتشف الأسرة وجود جنين. تُبعد من المدرسة وتذهب بها الأسرة بعيدًا لتجنب حديث الأقارب والأصدقاء.

(3) سيدة عجوز والفتاة المراهقة السابقة يدخلان على فتاة وحيدة، تقول العجوز إن الفتاة القادمة معها ستعيش مع الأخرى وتتركهن، نرى ملامح الفتاة التي كانت تجلس وحيدة ونسمع منها قصتها مع الوحدة بسبب أسرتها المفككة التي كانت السبب في مجيئها إلى هنا.

ثلاث مشاهد لا يربط بطل أحدهما بالآخر سوى رزانة السرد لدى نعومي كواسي، والتي دائمًا تبدأ من منطقة غير متوقع البدء من خلالها وتؤسس لها مع موسيقاها الهادئة، فيما يبدو يصبح فهم لقطاتها إجمالًا أكثر تركيبًا كلما تداخلت المشاهد فيما بينها لقطة بعد أخرى.

تأسيسية المشهد الأول

أسرة، طعامها ساخن، دافئ مثلها، داخل بيت صغير، فقط زوجة وزوجة وطفل، وكاميرا قريبة من وجوههم وحركاتهم، يخرجان من المنزل صباحًا، ينغلق الباب وتبقى الكاميرا بالداخل ثابتة في المنزل، تتلصص، لا يدرك بوجودها أحد. تؤسس للحظة الأولى من الريبة والحزن الذي يُنتظَر خلف مأساة تعايش الأسرة الصغيرة، والفتاة التي تعيش وحيدة، والمراهقة «هيراكي» البطلة الأهم والأم الحقيقية الأولى لطفل جاء نتيجة حب متسرع وغير مناسب في تلك اللحظة من الزمن.

الأبطال الثلاثة لا يمكن إدانتهم في أي سياق، داخل غزارة بصرية متنوعة ومتعمدة في الفيلم، تتكشّف مرجعيات كلٍ منهن الأخلاقية والظرفية التي جعلتها تفعل ما أقدمت عليه. تذهب الأسرة إلى مؤسسة صغيرة نفهم أن من يديرها هي السيدة ذاتها التي اصطحبت معها المراهقة ببطنها المنتفخ بحبٍ ليس أوانه؛ يؤسس الفيلم بشكل تعاقدي بين الأسر المستقرة التي لم يحالفهما الحظ في الإنجاب وبين هؤلاء الأطفال الذين من المتوقع تشريدهم، تأخذ الأسرة الصغيرة المحرومة قدريًا من الإنجاب الطفل الذي ستلده المراهقة للتعايش دون مرارة انتظار طفل لن يأت. بعيدًا، ترحل الفتاة التي كانت مستقرة للتشرد في الشوارع لأنها لم تجد أمها منذ ولدت، تأقلمت على دورانها في الشوارع الحزينة مثلها، وستترك المراهقة بيت أهلها الذي تعتقد أنه السبب في حبها الخاطئ الذي ذهبت إليه هروبًا، تعيش داخله ولا تعتقد بوجود علاقة تجمعها مع أفراده. الجميع مؤسَّس لتصرفاته ورغباته نفسيًا وأخلاقيًا حتى، لا يمكن أن تُدين أيًا منهم.

قد تظن، وبعض الظن إثم، أنني مثل آخرين أحاول شرح الفيلم وحرقه ودهسه بقدمي لإفساد المتعة على الآخرين، لكن ما حكيته توًا لم يتجاوز أي شيء، ما سوف تشاهده سوف يكون إرهاصًا لما حكيته، مجرد فتح باب الشقة الذي يصيبك بالتوتر يلزم تجربة مشاهدته، لا الحكي عنه.

كواسي دائمًا لديها رهبة من العالم الخارجي المليء بالمصاعب، البيت هو الأمان الوحيد بين العالم، ينعدم فيه الملل والوحدة والمفاجآت غير السارة. دائمًا ما تمزج المخرجة بين حركة الطبيعة: الشمس والقمر والنجوم والهواء وبين المشاعر التي تنتاب الأبطال في الخارج وبين سكوت كل ذلك

في أثناء الوجود في المنزل: السكن.

تضع كواسي خلال قصتها أقدام راسخة لأهمية الأم/ المرأة من أبعاد تبدو بديهية حد النسيان لدى البعض وغير ذات جدوى لدى آخرين. الأم عصب الأسرة/ المجتمع/ العالم. تمد العالم بمشاعره ورغباته وحُبّه غير المشروط؛ ما يجعله أنضج أفلامها هو الانتقال قليلًا من نظرتها الأثيرة: أهمية وجود أسرة تحفظ هوية أفرادها، لأهمية وجود أم داخل هذه الأسرة تحفظ توازنها ضد أي شيء: وجود أم داخل أي أسرة يحفظ الأشياء والأشخاص من السقوط.

سيرة ذاتية متوحدة مع الأفلام

تخرجت كواسي عام 1989 في معهد الصورة، ثم عملت مدرّسةً لنحو أربع سنوات، وخلالها قدمت فيلمها القصير الأول كقصة ذاتية تبحث خلاله عن والدها الذي لم تره منذ سنوات، ثم قدمت فيلمها التالي الذي ستعرض فيه قصة جدتها. هي إذن تؤسس من اللحظة الأولى للعالم الذي تريد عرض قصصها وتصوراتها عن العالم من خلاله؛ الأسرة ومدى تأثيرها في حياة أفرادها.

قامت بعد ذلك بكتابة وإخراج فيلمها الروائي الأول Moe no suzaku الذي يحكي قصة حياة أسرة في قرية يابانية نائية. وحصلت بعد عرض الفيلم على جائزتها الأولى في مهرجان كان (فرنسا) السينمائي، ثم حصل الفيلم على جائزة الاتحاد الدولي لنقاد السينما في مهرجان روتردام (هولندا) السينمائي الدولي.

مهووسة بأهمية الأسرة، بدأت عملها منذ منتصف التسعينيات، ومنذ أفلامها الروائية الطويلة الأولى حاولت

أن تحكي قصة تفكك العائلة، من خلال حكاية أسرة يابانية صغيرة تتحلل بفعل الزمن ومله، تنسحب ثيمة وهاجس كواسي الذي يحركها في الفيلم على أعمالها القادمة: بحث الإنسان عن معنى لحياته؛ وحيدًا أو وسط أسرته. في فيلم firefly التي تعني «يراعة» أو الخنفساء الرخوة الجسم، والمرتبطة بالدودة المضيئة، الذكر المجنح والأنثى التي لا تطير لهما أعضاء مضيئة تنتج الضوء بشكل أساسي كإشارة بين الجنسين، خصوصًا في الومضات وهكذا يمكنهما التواصل مع بعضهما البعض، ما يعني أنه دون أحدهما يموت الآخر؛ خلال الفيلم تبحث البطلة عن معنى حياتها في الحب وتترك أبطالها يهيمان في آثار حب قديم يبعث جديدًا من أحدهما تجاه الآخر؛ يحكي الفيلم رحلة عجوز فقد زوجته منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ومتابعته رحلة استكشافهما لحياتهما من جديد. يبدأ مشاهده الأولى بمراسم عزاء لميت ويتساءل بطله «ما معنى أن أكون على قيد الحياة»، هكذا مباشرة يتساءل أحد أبطال الفيلم الذي يعني «غابة الأحزان» كتأسيس لسؤاله المخرجة والكاتبة الرئيسي في الحياة التي تحاول دائمًا البحث بناءً عليه، تترك الإجابة غير المباشرة مستخدمة قطعات مونتاج هادئة وعدسات الكاميرا الواسعة على أبطالها كي لا تزعج أحدًا، وربما تبرهن على أن هذا الكون الفسيح سيصبح خاليًا وحزينًا لولا الحصول على الحب والوجود داخل أسرة. كان هذا ثامن أفلامها الذي تذهب به إلى مهرجان كان السينمائي الأهم بين مهرجانات العالم، وفاز الفيلم بجائزة لجنة التحكيم هناك عام 2007.

في أنضج أفلامها على الإطلاق radiance «إشعاع» تحكي قصة المصور فاقد البصر الذي يصبح طوق النجاة الأخير للفتاة التي تعمل كقارئة وشارحة للأفلام لفاقدي البصر في المركز الذي يقيم فيه. مثل كل أفلامها تحكي قصة بطل يقترب من الشيخوخة، يحمل المرض، بطل غير كامل مثل باقي أبطالها، تقدمه حكايتها المتجاوزة للواقع وتمزجه مشاهداتها ومشاهداتنا بالطبيعة وسيطرتها على الجميع في ميتافيزيقية رومانسية وحالمة دون فجاجة. الرومانسية الحالمة غير التقليدية ذاتها ستجدها في فيلمها الأشهر والأكثر تناولًا من قبل نقاد هوليوود هو «sweat bean» الذي تحكي خلاله قصة خباز تثقله الديون بينما يجد نجاته الوحيدة في خبرة طعام/ حب عجوز يراها يساعده العمل عملها على حل مشكلاته التي تتقدمها وحدته.

كاميرا هادئة، قريبة من أبطالها وانفعالاتهم، تنسجم مع الطبيعة حولها كعنصر أساسي في أفلامها، كل الأبطال مدفوعون بشغف الحب والخيالات التي يسعون من خلالها معرفة جدوى وجودهم.

لا تقف هذه الأفكار التي تعتقد بوجود الأسرة كعنصر مكمل غير ضروري في الحياة عند اليابان كمجتمع صناعي مادي، تتجاوزه لتحمّل عاتق صعوبة تكوين هذه الأسرة على ما يحدث من مساوئ وحزن مقيم بين أفراده في العالم كله، سردية استئجار أسرة قد تبدو مضحكة وحزينة، وميتافيزيقا نعومي كواسي الحالمة تبدو ردة فعل على قسوة عالم نعيشه، كذلك تبدو لدى البعض مضحكة وحزينة، لكن على ما يبدو أنها لا تترك الأثر السيء ذاته الذي تتركه الوحدة أو وهم التخلص منها في العالم القاسي الذي نعيشه.

شاهدت الفيلم في مهرجان الجونة السينمائي الرابع، الذي ذهبت إليه لأسباب عدة كان على رأسها مشاهدة فيلم نعومي كواسي الجديد هذا، المشاهدة الثانية اضطرتني إلى السفر من المدينة التي أقيم فيها لعدة كيلو مترات إلى مدينة أخرى تعرض الفيلم للمرة الثانية، وكان عليَّ الرجوع بعد المشاهدة مباشرة، جلست في السينما وحدي، بعد نحو نصف ساعة دخل شاب وصديقته، بكيت كما تعودت أن أبكي وحدتي مع كل فيلم لها، تلفتُّ خوفًا من أن يراني أيًا منهما فوجدتهما نائمين ربما تحت تأثير كاميراتها الهادئة أو المملة للبعض وربما لأنهما لا يدركان أهمية ما تقول لأنه متحقق لديهما بوجودهما بجانب بعضهما الآخر، منذ أمسكت كاميرا وقلما تقدّم فكرتها الأصيلة التي تقول إن الأسرة هي مفتاح كل شيء ضد هذا العالم الهش السريع الحقير، ودائمًا ما تنجح في الاحتفاظ بلحظات الأنس الأسرية التي يوجد في داخلها بعض العزاء للوحيدين أمثالي.

5

مرسي جميل عزيز
شاعرية اللفظ و المعنى

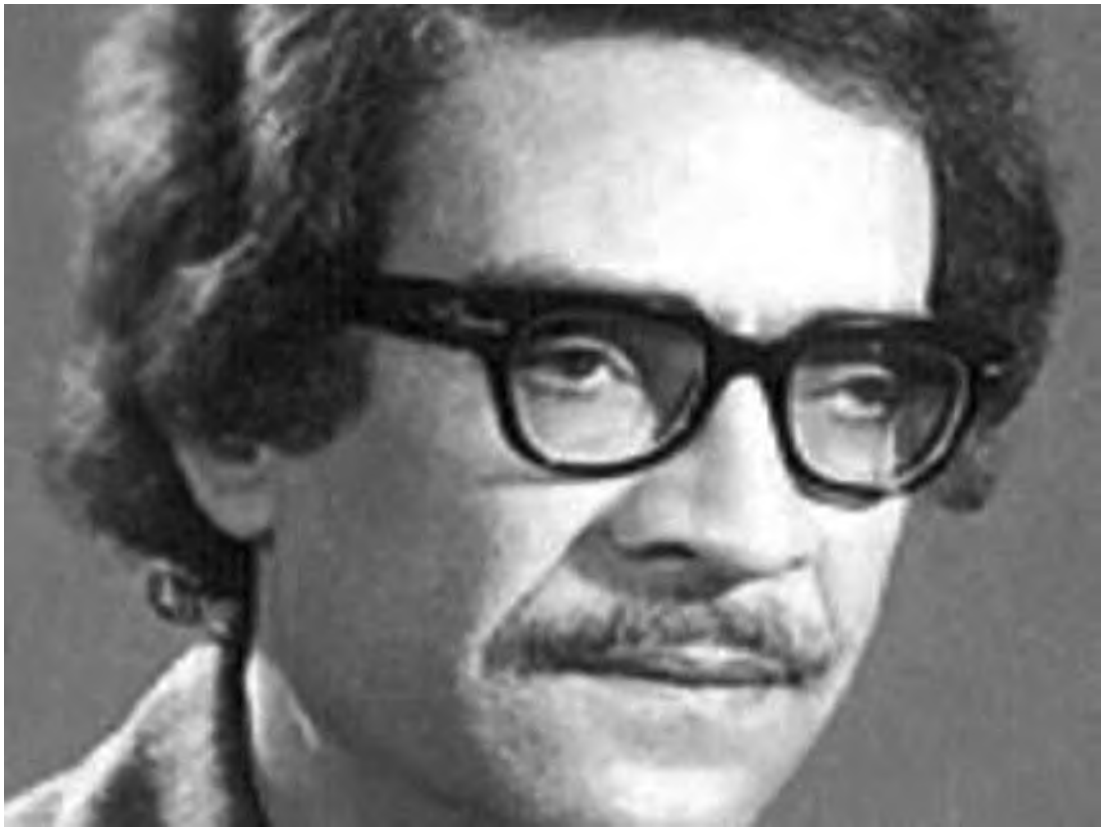

ماجد وهيب

كان طاغور، شاعر الهند الكبير، فخورًا جدًا بأنه كتب أغنيات بلاده التي يتغنى بها الناس، وبالمثل سيكون على شعرائنا الغنائيين الكبار الذين عاشت كلماتهم وتغنينا بها نحن، الذين لا نجيد الغناء، أن يكونوا فخورين بأنفسهم. وفي مقدمة هؤلاء يقف مرسي جميل عزيز محتلًا مركز الصدارة، وإذا كان من شعراء القصيدة من يطمع في أن ينظم بيتًا يجري على ألسنة الناس كحكمة يتداولونها كأبيات كثيرة لشعراء قدامى، فإن مرسي جميل العزيز، وهو الشاعر الغنائي وليس شاعر القصيدة، قد تحقق له هذا بالمقطع الذي كتبه في أغنية فات الميعاد لأم كلثوم عندما قالت: «وعايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان». إننا هنا لسنا فقط أمام جملة تقولها محبة لحبيبها السابق بعدما افترقا وجاء يطلب الوصل مرة أخرى، وإنما أمام جملة تصلح أن نقولها في كثير من الأحيان، فنقولها لأنفسنا إذا تغيرت طباعنا وصار من الصعب علينا العودة كما كنا، وتقولها لنا أحلام أهملناها، أو نقولها لأصدقاء لم يعودوا أصدقاء، تتعدد الحالات وتبقى الجملة صالحة ومعبرة، وهي من دلائل عبقرية شاعرنا، إذ استطاع أن يكتب، وسط أغنية عاطفية، بيتًا من الحكمة دون إقحام ودون إخلال بوزن أو قافية.

ولد في الزقازيق لأب من تجار الفاكهة، وحفظ القرآن منذ صغره والمعلقات السبع وقرأ لشعراء كثيرين من بينهم بيرم التونسي، وكتب، أول ما كتب، القصيدة وليس الزجل أو الأغنية. هذه

المعلومات القليلة التي نعرفها عن مرسي جميل عزيز تترجم لنا ما ميزه عن بقية الشعراء الغنائيين في زمانه، فمن قراءة المعلقات وكثير من الشعراء، والبداية بكتابة القصيدة، استمدت أغانيه رصانتها وصورها الشعرية العميقة فبدت وكأنها قصائد بالعامية في قالب الأغنية، ومن الميلاد والنشأة بعيدًا عن العاصمة، جاء انتقاؤه لألفاظ عكست اعتياده على البراح والطبيعة البكر والهدوء وليس على الزحام والضجيج، ومن قراءته وحبه لشعر بيرم التونسي جاءت القدرة على الجمع بين العمق والبساطة، بين الثقل والرشاقة.

وكانت انطلاقة شهرته عندما غنى له عبد العزيز محمود أغنية: «يا مزوق يا ورد في عود». إنه هنا ليس شاعرًا يطلب بيتًا من الحكمة يخلّده، لكنه شاعر يجيد الغزل في محبوبته بألفاظ عذبة وناعمة، وسوف تظل هذه العذوبة صفة من صفاته يبينها في كثير من أغانيه كما ستظل الرغبة في أن يكون شاعر غزل يصف المفاتن بصور شعرية بليغة، وتحقيقًا لهذه الرغبة، واستمرارًا منه في اظهار عذوبته، سيكتب لعبد العزيز محمود أيضًا «يا أسمر يا جميل» وسوف يضمنها مقطعًا من أروع الصور الشعرية في تاريخنا الغنائي وهو الذي يقول فيه: «يا اللي كعابك فوق قبقابك ورد في مية»، وسيكتب لفايزة أحمد أيضًا: «يا أما القمر ع الباب نوّر قناديله يا أما أرد الباب ولا أناديله»، وعن هذه الأغنية قال الأديب الكبير عباس العقاد إن بها من الشعر ما لا تتضمنه قصائد مطولة، ويستكمل مع محرم فؤاد، فيكتب: «شفة وردي وسنة لولي»، ويكتب له أيضًا: «الحلوة داير شباكها شجرة فاكهة ولا في البساتين» وهو هنا يبدأ بوصف شباك المحبوبة، ثم ينتقل إليها هي في الشطر الثاني مباشرة ويصف طلتها من هذا الشباك، ثم يصفها هي فيما بعد متغزلًا فيها: «الشفة وردة في عنقودها أما خدودها تفاح الشام». وهو في هذه الحيلة يذكرنا ربما بالشعراء القدامى الذين كانوا ينتقلون في القصيدة الواحدة واصفين أكثر من شيء وأكثر من موضع، بل ينتقلون بين أكثر من غرض شعري، وهو قد فعل هذا، ليتجلى واضحًا تأثره واستفادته من قراءة المعلقات والشعر القديم، في أغنيات كثيرة بما تتيحه طبيعة الشعر الغنائي، ففي أغنية «بتلوموني ليه» يبدأ برد اللوم عنه في حبه، ثم ينتقل إلى الوصف والغزل، وفي أغنية «ألف ليلة وليلة»، يبدأ بوصف ليلة هي عنده بألف ليلة وليلة، ثم ينتقل إلى مدح الحب نفسه كشعور جميل يشعره الإنسان «الحب نعمة مش خطية، الله محبة، الخير محبة، النور محبة». بالطبع كان غيره كثيرون من الشعراء الغنائيين الذين يفعلون ذلك، لكن يمكن القول إن مرسي جميل عزيز تفرد بالقدرة على الانتقال بسلاسة ومنطقية، دون أن يشعر المستمع، بين هذه الأغراض الشعرية المتعددة، وكان رغم هذا التنقل يحافظ على موضوع عام واحد يستند عليه كعمود فقري للأغنية، وبهذه الأغنيات، المذكورة كنماذج لغزليات شاعرنا، سيكون شعره من أجمل الشعر لأنه من أكذبه، كما يقال دائما في وصف الشعر البليغ، فهل أكذب من أن يكون القمر بنفسه واقفًا على الباب يطلب الرضا؟ أو أن يكون رمش عين المحبوب قادرًا على الجرح والذبح؟ أو أن يكون الكعب في القبقاب كالورد في الماء؟

ولم يكن مرسي جميل عزيز مجرد شاعر يجيد صياغة كلماته في صورة شاعرية متكاملة فقط، بل كان أيضًا فيلسوفًا في الحب، إذا جاز القول، وصاحب رؤية وموقف، فلا يترك اللفظ يأخذه إلى معنى لا يريده ويستسلم له حتى إذا بدت الجملة بليغة ومتماسكة وموزونة، وإنما على العكس كان يصطفي الألفاظ بعناية حتى لا تعطيه معنى لا يريده أو يناقض مثلًا ما يؤمن هو به في طبيعة الحب كعلاقة إنسانية، وهكذا لم تكن الأغنية عنده مجرد كلمات تُرص في وزن وقافية، ولأن الحب كان عنده شيئًا مقدسًا يعرف قدره خير معرفة، ويعرف تأثيره على حياة الإنسان وكيف يغيرها للأفضل، حافظ على هذا الرأي في كل أغانيه، فكتب: «ولقيت بيتي بعد الغربة قلبك دا، وعيونك دي.. الليل بعد ما كان غربة مليته أمان، والعمر اللي كان صحرا صبح بستان»، «وقابلتك أنت لقيتك بتغير كل حياتي» أو «وعشانك صحيت أحلامي ورقصت قدامي» أو «أيامي قبلك ندم وأيامي بعدك عدم» أو «ولقانا بيفتح وردي وياسميني». ونادرًا ما تجد عنده أغنيات تحمل إساءة من محب لحبيبه السابق أو رغبة في انتقام، حتى لما كان يكتب عن علاقة لم تنجح كان رقيقًا في عتابه كما بيّن في أغنية فات الميعاد مثلًا: «بيني وبينك هجر وغدر وجرح في قلبي داريته بيني وبينك ليل وفراق وطريق أنت اللي بديته»، أو في أغنية تخونوه «قلبي اللي مهما يشوف منكم عايش بيكوا ويبعدوه الناس عنكوا وبرضو شاريكوا»، وكان إذا ذكر عذاب الحب يذكره كعذاب جميل» يا للعذاب الحلو» كما كتب لنجاة.»وإن قالوا عن عشاقه بيدوبوا في نار أشواقه ناره دي جنتنا» كما كتب لأم كلثوم. ولأنه لم يكن يترك الألفاظ لتقوده هي إلى المعاني، لم يقع، كونه شاعر قدير، في فخ تكرار المعنى الواحد في الأغنية الواحدة، فما يقوله مقطع لا يقوله مقطع آخر.

في ألف ليلة وليلة يقول: «يا رب تفضل حلاوة سلام أول لقا في ايدينا»، وهو هنا رجل خبير بالحب يعرف أن أول لقاء بين حبيبين يكون ذا تأثير فريد والحب الصادق هو ما يظل بتوهجه مهما مرت السنين ويحافظ على لهفة اليدين للمصافحة في كل مرة، وفي أغنية «من غير ليه» تظهر فلسفته أيضًا فيؤكد على أن الحب شيء غير قائم على الفهم، وكما أننا لا نعرف لماذا أتينا إلى الدنيا أو إلى أين ستأخذنا، كذلك لا نعرف كيف نحب ولماذا نحب هذا دون ذاك، إنه هنا يضع الحب كسؤال وجودي كبير يتساوى مع سؤال: «لماذا خُلقنا؟»، ويجيب بأن السؤالين لا إجابة لهما، وهو هكذا يخرج من إطار الشاعر الذي يتكلم في الحب فقط، ويأخذ الوجود كله كمقدمة لما يريد أن يقوله، وفي أغنية سيرة الحب، وهي المكتوبة أولًا، قال أيضًا عن الحب معنى قريبًا «ما أعرفش إزاي أنا حبيتك ما أعرفش أزاي يا حياتي».

> **لم يكن مرسي جميل عزيز مجرد شاعر يجيد صياغة كلماته في صورة شاعرية متكاملة فقط، بل كان أيضًا فيلسوفًا في الحب**

وسنجده أيضًا كان سباقًا في إدخال ألفاظ جديدة، من تلك التي نستخدمها في أحاديثنا اليومية، إلى القاموس الغنائي، فكتب لنجاة «أما براوة»، وهي الكلمة التي نستخدمها كمعادل لـ«عفارم عليك أو برافو»، ونقصد منها أن نمدح شخصًا على فعل قام به، وأدخل أيضًا على لسان صباح كلمة «يا أنا يا أنا»، وعلى لسان عبد المنعم مدبولي: «بقينا انتيكا دقي يا مزيكا والدنيا فبريكا بتفرم الإنسان» وهو لم يكن راغبًا في إدخال ألفاظ جديدة إلى قاموسه الغنائي رغبة فقط في التجديد دون أي اعتبارات أخرى، بل كان ينتقي، من بين كل الألفاظ التي نتداولها كمصريين في حياتنا اليومية، اللفظ الذي يجد فيه ما يوافق ثقافته وشاعريته، ويبتعد متعففًا عن أي ألفاظ تبدو فيها شبهة إسفاف، والحق أن هذا كان منهجًا، أوجبته فطرتهم الشعرية ربما، عند أغلب الشعراء الغنائيين في ذلك الوقت.

وكان أيضًا كثيرًا ما يصنع مفارقة درامية في خاتمة الأغنية، مثال ذلك أغنية «أما براوة»، فبعد كل ما قيل نكتشف أن الفتاة التي تتغنى بهذا الكلام لا تملك محبوبًا أصلًا وتختم كلامها قائلة: «بحلم وأغني لحبيبي وفين حبيبي ما ليش حبايب يا عيني وأنا ونصيبي»، وكذلك كانت المفارقة أيضًا في أغنية «ابعد يا حب»، التي غنتها عفاف راضي وكتب هو الكلمات على لحن معد مسبقًا

لمنير مراد وهو أمر ليس بالهين، وكانت المفارقة في أنه بعد كل الرفض الذي تعلنه الفتاة للوقوع في الحب» يعني النهاردا بقول لك لأ وبكرا مش راح أقول لك آه»، تختم كلامها قائلة: «يعني النهاردة بقول لك لأ وبكرا يمكن أقول لك آه» وهذه الأغنية تبدي دلائل أخرى لشاعرية مرسي جميل عزيز إذا يقول مخاطبًا الحب «وأري عليك رمشي يجيبك صاحي ويسهرك زي النجوم صباحي لا تطول سما ولا أرض في محبتنا ولا يتفتحلك حتى شباك بيتنا»، هذه الكلمات لا تقولها فتاة لمغرم تصده عنها وإنما تقولها للحب نفسه، وهو ما يجعلها صورة شعرية بليغة.

ولا تتوقف عبقرية شاعرنا على كونه كتب صورًا شعرية في غرض الغزل فكانت من خير ما قيل منتقيًا لها أرق الألفاظ وأكثرها تعبيرًا حتى لُقب بجواهرجي الكلمة، وإنما أيضًا سنجده عبقريًا في قدرته على تضمين مشاهد سينمائية قصيرة وبسيطة في عدد من الأغنيات، مع الحفاظ على شاعريتها أيضًا، والنماذج على ذلك عديدة، منها على سبيل المثال «في موجة عبير م الشعر الحرير ع الخدود يهفهف ويرجع يطير»، أو ما كتبه في أغنية «من حبي فيك يا جاري» لحورية حسن: «لما تصادف ع السلم وتصبح ولا تسلم». وقوله أيضًا على لسان عبد المنعم مدبولي: «دلوقت بقت حتة مرسيدس تسبقني وتعفر على دقني». وتفسر لنا قدرته على تضمين أغنياته للمشاهد البصرية كتابته للقصة والسيناريو لبعض الأفلام. وعلى ذكر الأفلام نرى وجهًا آخر من وجوهه، وهو كتابته للعديد من الأغاني التي تُكتب خصيصًا للسينما لتحكي موقفًا دراميًا ما، فكتب في فيلم «مولد يا دنيا»: «ولما أقول شي الزفة تمشي ولما أقول هس كله سمع هس»، وكتب لفيلم الزوجة رقم 13: «في ايديك قوة تهد جبال في اديك قوة وعليك صبر وطولة بال وعينيك حلوة»، وفي الفيلم نفسه أيضًا كتب «على عش الحب»، وهو خير تعبير ستقوله فتاة وهي ذاهبة مع حبيبها إلى المكان الذي فيه سيعيشان. وبالتمعن في أغنياته سنجده كثيرًا ما يقدم قصة مستترة لها بداية ووسط ونهاية، قصة ليست كالقصص السينمائية أو الروائية، بل فيها من أسس القص ما تتيحه الأغنية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ذلك في أغنية «من حبي فيك يا جاري»، فهي قصة عن جارة تحب جارها منذ زمن وتخفي ذلك عنه خوفًا من الجيران، هنا قدم الشاعر الحدث والشخصية، ووضح لنا ضمنيًا مخاوفها كفتاة شرقية، وتستكمل الأغنية لتصور مشاهد اللقاء بالمصادفة بين الحبيبة ومن تحبه، وببراعة يصف مشاعرها عندما تنعم بهذا اللقاء وما يبدو عليها. وفي أغنية «عوج الطاقية» نجد أيضًا قصة قصيرة مكتوبة بعين سيناريست عن عاشق يعترف بحبه لحبيبته وهي تتدلل عليه، ثم يمشي «على أقل من مهله» كحيلة منه، ولما تعود المحبوبة إلى البيت تسأل أمها هل عوج أبوها الطاقية لها لإبداء الإعجاب، وهنا نجد أنفسنا أمام حكاية داخل حكاية، وهكذا تستمر الأغنية في الحكي بقدرة بارعة على التصوير.

وعلى ذكر «الطاقية» سنجد أن المجتمع الريفي كان حاضرًا في بعض أغنياته، فتخبرنا الكلمات ضمنيًا بأنها تحكي عن قصة حب بين اثنين يعيشان في الريف، مثال ذلك أغنية «يا أبو الطاقية الشبيكة» لحورية حسن، وأغنية «عوج الطاقية» السابق ذكرها لعفاف راضي، فالطاقية هنا، ملبس من تغني له الحبيبة، تخبرنا بالمجتمع الذي ينتمي إليه المحبوب، وكذلك أغنية مارضيش أبويا التي غنتها أحلام، ويقول فيها: «كتبولي كمان خمسين فدان مارضيش أبويا»، وهنا يحضر الريف متجسدًا في لفظة فدان، ويتجلى تأثير النشأة بوضوح شديد، وكانت الحارة حاضرة أيضًا بعاداتها، ومثالًا على ذلك الأغنية التي كانت أيضًا من نصيب أحلام «زغرودة حلوة رنت في بيتنا لمت حارتنا وبنات حارتنا»، وهي علاوة على كونها دليلًا على حضور الحارة تصور أيضًا مشهدًا سينمائيًا، وتبين أيضًا قدرته على كتابة الأغنية الشعبية وليس فقط الأغنية العاطفية، وقد ظهر تأثره بالمورث الشعبي جليًا في تأليفه للأوبريت الغنائي، وهذ وجه آخر من وجوهه، وهو أوبريت «عواد باع أرضه»، والأرض، باعتبارها بيت، يذكرنا بحضور البيوت أيضًا في أغنياته، فكتب: «بيت العز يا بيتنا على بابك عنبتنا» وكتب أيضًا: «يا بيت أبويا معزتك في عينيا ما شوفت منك غير ليالي هنية». وكما كتب الأغاني الشعبية كتب أيضًا الأغاني الوطنية مثل أغنية «بلدي يا بلدي» لعبد الحليم حافظ، وحتى في هذه الأغنية الوطنية لم يتخل عن ذكر الحب فقال: «عايزين اللي يصون مبادئنا وينور بالحب طريقنا». وكتب في الوطنية بالفصحى «بلدي أحببتك يا بلدي»، وهذا وجه آخر من وجوهه، غناها محمد فوزي، ولم يتخل فيها هي أيضًا عن ذكر الحب فقال: «أهواك ضفافًا لم تزل مرعى للحب وللغزل، أهواك ربيعًا كالأزل للعيش الحلو وللرغد».

ومرسي جميل عزيز، على ما يبدو من أغنيات كثيرة كتبها، كان مؤمنًا بالحب من النظرة الأولى، فكتب لأم كلثوم: «من همسة حب لقتني بحب»، وكتب لعبد الحليم: «بصيتله قوام حبيته»، وكتب لمحرم فؤاد «فات عليا الحلو الأسمر رمشه قال لي حب واسهر».

كان مرسي جميل عزيز متفائلًا في أغنياته عن الحب، ولم يكتب عنه ليبينه قاسيًا محطمًا لقلوب المحبين وإنما يمدحه» العيب فيكم يا ف حبايبكم أما الحب يا روحي عليه، في الدنيا مفيش أبدًا أحلى من الحب»، ويدعو الناس له «افتح البيان لقلبك ولشبابك ولحبيبك ابعد الخوف عن رموشك اوعي شيء في الكون يحوشك»، وينتقي في الحديث عنه أرق الألفاظ، كذلك أيضًا كتب أغنيات تدعو للتفاؤل عمومًا وحب الحياة بمعناه الأوسع «اضحك وافرح من قلبك وانسى الدنيا وما فيها خلي الأيام تفرح بك وأنت كمان افرح بيها»، وكتب أيضًا: «عيش أيامك عيش لياليك خلي شبابك يفرح بيك عيش بالروح والعين والقلب ضحك ولعب وجد وحب» وهكذا يظهر التفاؤل كطابع لديه، والحب كأسلوب حياة يعيش به ولا يتنازل عنه قط. وتفاؤله يظهر جليًا في الألفاظ التي كان يختارها دون غيرها، فقليلة هي المفردات التي من عينة: بكا، عذاب، ألم، نار.. إلخ، في أغنياته، وكثيرة هي المفردات التي تبعث على البهجة مثل: القمر، الجنة، النجوم، الورد، الربيع، البراح.. إلخ، واختيار مثل هذه الألفاظ، علاوة على أنه دليل على التأثر بالبيئة التي فيها ولد، فهو أيضًا انعكاس لنفسية الشاعر ولرؤيته للحياة، فلو كان يراها قاتمة ويرى الحب عذابًا للقلوب لكثرت الألفاظ التي تعبر عن ذلك وامتلأت أغنياته بالمعاني التي تعكس وجهة نظره واكتئابه.

وأخيرًا أقول إن هذه السطور، وهي سطور انطباعية في المقام الأول، ليست وافية إطلاقًا لشاعر بحجم مرسي جميل عزيز، لكني كتبتها حبًا في هذا الرجل الذي أراه مهدور الحق في اهتمام النقاد وكاتبي الدراسات الشعرية بشعره الغزير والأصيل. إن أغنياته ستظل حاضرة وصالحة عند كل تجربة نمر بها، ولن نجد أكثر منه معبرًا عن مشارعنا إذا أحببنا أو افترقنا أو تعذر علينا البوح بالحب أو إذا تعرضنا للخيانة أو إذا جمعنا عش الحب بما نحب، تتعدد التجارب والمناسبات وتبقى كلمات مرسي جميل عزيز قادرة على التعبير عنها جميعًا.

«الشعلة الخفيَّة للملكة لوانا»..

ترميم ذاكرة ضبابية

● باسم عبد الحليم

«أفكر في إنهاء الأمور»

الحياة داخل قبو عقل مُنهك

● منى أبو النصر

«أدب الحروب»..

كيف ألهمت المعارك الدامية الأيقونات الأدبية

● أسماء سعد

مراجعات

1

«الشعلة الخفيَّة للملكة لوانا».. ترميم ذاكرة ضبابية

باسم عبد الحليم

بتجربة بارزة في الكتابة الأدبية، رسخ الروائي الإيطالي الراحل أمبرتو إيكو مشوارًا سرديًا ينتح، في غير قليل، من تجربته الأكاديمية الموازية كأستاذ في السيميائيات. ليس خافيًا أن أعمال إيكو الأدبية تستفيد تمامًا من حقله الدراسي الفريد، وأنها موضوعية ومعرفية، بقدر ما هي شخصية. وفي رواياته السبعة، منذ أولاها في عام ١٩٨٠ «اسم الوردة»، وحتى آخرها في عام ٢٠١٥ «الرقم صفر»، جاور إيكو بين حقول عديدة، من النقد السيميائي وتاريخ الفن إلى نظريات أدب النوع والثقافة الشعبية، في نسيج متشابك ومتعدد الطبقات، صانعًا بصمة سردية خاصة صار يميزها قراؤه بوضوح كبير، وتميزت بهارمونية محتواها والتيمات التي استكشفتها، وبإدراكها للتراث الأدبي الإنساني بوصفه كلاً جامعًا يتعالق في ما بينه بعلاقات تحتية نشطة، وكذلك بطريقة إيكو البحثية الموسوعية في خلق وتغذية حبكاتها وشخصياتها الرئيسية.

وتحتل رواية «الشعلة الخفيَّة للملكة لوانا»؛ المُترجَمة حديثًا إلى العربية بتوقيع المترجم السوري معاوية عبد المجيد (دار الكتاب الجديد، 2020، طبعة خاصة بمصر في مكتبة تنمية)، الترتيب الخامس في أعمال إيكو الروائية. وفيها يضع إيكو قارئه، ومنذ الصفحات الأولى، في قلب حدث مفارق، هو الحدث الذي تتأسس عليه الرواية في كاملها. تبدأ الرواية في سطريها الأولين هكذا: «وما اسم حضرتك؟»/ «انتظر لو سمحت، اسمي على طرف لساني»، بمحو كامل لذاكرة بطلها، حتى لاسمه ذاته. ثم يتخم أمبرتو إيكو أحاديثَ بطله، والذي سنعرف لاحقًا أن اسمه جامباتيستا بودوني، ولقبه كما سنعرف

في الصفحات الأولى «يامبو»، بسلسلة لا نهائية من الاقتباسات الأدبية، والثرثرة السردية المدعومة باللوحات التي يختلط فيها الرسم بالفوتوغرافيا.

يفقد يامبو، تاجر الكتب القديمة والنادرة الستيني، إثر حادثة سيرٍ، ذاكرته وذاكرة كل ما كان يعرفه عن حياته؛ اسمه وسنه وماضيه بالكامل، وحتى زوجته وأبنائه وأسمائهم. لكنه مع ذلك، لا يزال يحتفظ بذاكرة كل ما قرأه في حياته على نحوٍ حاد. ذاكرة طبعات كل كتاب، وقصة، وصورة شعرية، ولوحة غلاف. أو بلفظٍ أدق: ذاكرة الموسوعة، ذاكرة فهارس وتباويب المعرفة في المقام الأول. وبينما يعجز يامبو عن تذكر أقرب حدث وقع له، لا زال يحتفظ بذاكرة حية قوية، وكأنما لها وعيها الخاص، لما قرأه في حياته بالكامل. وفي تيار استدعاء ذاكرة القراءة الجارف، تضحى حادثة السير غير ذات أهميةٍ تقريبًا، إذ يأتي ذكرها عابرًا على لسان الطبيب في الفصول الأولى، ثم لا يتكرر بعد ذلك. مجرد ذريعة واقعية لاختفاء الذاكرة، تفتح للبطل الراوي يامبو مسارَ رحلته لاسكتشاف ذاته وتاريخه من جديد، في الستين من عمره، وعلى طريقة راوي مارسيل بروست في «البحث عن الزمن المفقود»، أي الأثر الذي يختزن الذكرى. لكنه بخلاف بطل بروست، لا يستدعي تاريخه عبر رائحة ومذاق كعكة المادلين، أو مناظر كومبريه المعمارية العتيقة، بل عبر الحروف المطبوعة واللوحات الجرافيكية واقتباسات الكتب ومجلات الكوميكس الهزلية. وهو استدعاء يحيطه إيكو برمزٍ مُعبر، هو رمز الضباب، الذي يتهوس به يامبو بالبحث عنه في ثنايا الكتب والقصائد الشعرية، والمُستدعى على طول الرواية.

تغري الفكرة الأساسية لرواية إيكو برحلة متصاعدة من التحري البوليسي، لكنها تنحو شيئًا فشيئًا ومع تقدم السرد منحًى آخر. تتشكل الرواية من ثلاثة فصول طويلة، يتكون كلٌ منها بدوره من عدد من الفصول المُرقمة الأصغر. يعتمد الفصل الأول «الحادث» في معظمه على الاقتباسات والنصوص المتداخلة لذهنٍ مُشوَّش، بينما يتشكل الفصل الثاني «ذاكرة من ورق» من الصور والتاريخ. وما يبدأ في الفصل الأول نبشًا في الذاكرة الشخصية ليامبو، يتسع في الثاني ليصبح نبشًا له طابع توثيقي في ذاكرة وهوية جيلٍ كامل ينتمي إليه إيكو نفسه، بمقابلة بعيدة وعصيَّة في آن، بين المؤلف وشخصيته الروائية. هنا يتداخل الشخصي مع العام، في مسار سرد يُمكن أن نعتبره تاريخيًا بأغرب الطرق الممكنة، عن حقبة الفاشية الإيطالية في الثلاثينات وبداية الأربعينيات من القرن العشرين. لكن هذا التداخل يظل تداخلاً خلّاقًا مع هذا؛ لا يسقط بالرواية إلى بساطة الأدب السيرذاتي، وهي البساطة التي طالما عارضها إيكو نفسه بأعماله الأدبية.

بطل الرواية نقطة التقاء بين شخصيتين، فـ«جامباتيستا بودوني»، كما نعرف في الصفحات الأولى، هو اسم طباعي شهير من العصر البونابرتي، و«يامبو» كما سنكتشف لاحقًا، هو اسم تدليل مُلتَقط من إحدى قصص المغامرات المصورة. وذاكرة يامبو التي يجري البحث عنها نفسها، هي حلقة وصل بين ذاكرة فردية وأخرى جماعية، أو بين السيكولوجيا والتاريخ، يتم استدعاؤها عبر نصوص شعبية، ولوحات، وكتب دراسية، ومنشورات دعائية سياسية، وأناشيد وأغانٍ، وأفيشات أفلام قديمة، وقصص مغامرات، وأغلفة كتب - أو وثائق التكوين لطفلٍ استقبل سنواته الأولى في زمن الحرب، تتجمع في ما بينها لتكون ما يشبه كولاج ضخمًا متعدد المصادر، يعرض وبقوة تفاصيل زمن عمومي ماضٍ، لكنه لا يزال محتفظًا بتأثيره على نحوٍ مخيف. وهو كولاج ينزع عنه نوستالجيته، ذلك التحليلُ الذي يسبغه عليه يامبو، بالمقارنة المستمرة بين صور التربية المدرسية المتقاطعة مع تلك الوطنية، بقصص المغامرات التي جرت طَلْيَنتها في زمن حكم الدوتشي.

تكشف وثائق التكوين تلك، البصرية بالأساس، بمصاحبة سردها التفسيري، عن تربيةٍ عاطفية ووجدانية قاهرة على نحوٍ عميق. وكعادة روايات إيكو، يستعمل الروائي نصوصًا ووقائع وأفكارًا ماضية، ليعيد صبها في قصص تتعاطى مع الحاضر وإشكالياته. إن تلك النصوص والأفكار تختزن داخلها الطبقات المعرفية للحاضر. وتنزع شخصيات إيكو دائمًا، على نحوٍ محموم، إلى استكشاف ذاتها وفقًا لهذا الماضي. لا يحضر الماضي هنا بصفته التاريخية فقط، بل وبصفته السيكولوجية والنفسية أيضًا. وهو حضور يزداد تعقيده بالمضي قدمًا في السرد، ليدحض أي تفسير قريب أو سهل المنال لغرض الرواية الأصلي أو الدافع وراء كتابتها، مفسحًا المجال لتصوير مدى شيزوفرينية هذا الماضي وانقسامه على نفسه.

هل هذه رواية مُصوَّرة؟ إن مادة الرواية الجرافيكية سابقة على مادتها الحكائية تأكيدًا، وهي مادة جرى انتقاؤها

مرايا- 19

مراجعات

وتكثيف حضورها وترتيبه لتصنع مع تلك الحكائية نسقًا مغايرًا لوجودها الأول. قد يبدو في الفصل الثاني أن إيكو يستعمل تلك المادة البصرية استعمالاً أكاديميًّا مصاحبًا لمادته الحكائية الأساس. فالصور واللوحات لا تقوم مقامَ السرد المكتوب، بل تسانده وتدعم تأثيره. لكنه هذا التأثير ذاته ستتغير طبيعته ويتضح الهدف منه، على نحوٍ أكبر، في الفصل الثالث والأخير من الرواية، المعنون بـ»عودة». وستتكشف حقيقةُ أن دور الصور أهم بكثير من مجرد المُصاحبة التوضيحية، وأنها لم تكن قابلة للاستبعاد في أي مرحلة من مراحل الرواية.

بعد أن قُدِمتْ في الفصلين الأولين، تتدافع الصور والذكريات في الفصل الأخير، وقد فاضتْ عن قدرة ذاكرة يامبو على ترتيبها، وانحلَّتْ روابطها المنطقية، في انسيالٍ وتداعٍ متحرر من تاريخيتها وسياقاتها الأولى. ويسقط يامبو، ومعه الكاتب والقارئ، في معاينة سوريالية حرة تعرض نفسها على شاشة خاوية. لقد اهتزت الطبقات الأركيولوجية لذاكرة يامبو، وامتزجت إثر زلزال عنيف وضاغط، واكتسبت شخوص ذاكرته حياة جديدة. يستمد الفصلُ الثالث صورَه وشخصياته الخيالية بالأساس من كتب الكومكس وأبطال روايات المغامرات. ترتد الرواية في فصلها الأخير من جماعيتها التي طبعت الفصل الثاني، إلى فردية جديدة. ويشككنا يامبو في هذا الفصل الختامي في مدى واقعية ما يشاهده؛ هل هو في حال يقظة أم نوم، وهل هذا حلم أم حقيقة، أم دور جديد من لعبة التذكر والنسيان؟ إن حضور الشخصيات الهزلية فيه حضورًا مُلوَّنًا، هزليًّا، ومتخففًا من الثقل التوثيقي في الفصل الثاني إلى حدٍ بعيد. وإشارات إيكو المُضمَّنة إلى رواياته السابقة نفسها تزيد من سوريالية الفصل وغموضه. فهل هو جحيم دانتي، أم فردوسه، أم الجحيم والفردوس معًا وقد انكبا يبادلان موقعيها؟ إن النهاية لا تحسم، لتتركنا مع نقطة انتهاء غامضة ومفتوحة على الاحتمالات.

قد يجد القارئ العربي صعوبةً في استقبال رواية إيكو، فهي أولاً تخاطب قارئها في لغتها بذاكرة جماعية خاصة جدًا، وهي أيضًا تتحرك بأدب إيكو وطريقته المألوفة في السرد خطوة أبعد، فالقارئ العربي الذي تعاطى بيسرٍ أكبر مع «اسم الوردة» ببنيتها البوليسية المستلهمة للتاريخ، أو مع «مقبرة براج» بإثارتها ذات الطابع المؤامراتي، عليه أن يتخلى هنا قليلاً عن توقعاته بخصوص ما قد تكون عليه رواية لأمبرتو إيكو. وساعتها قد يتواصل بصورة أكبر مع الطريقة التي يستكشف بها بطل الرواية شرطه الوجودي، ومع أسلوب إيكو الفريد في إعادة النظر إلى التاريخ، والكيفية التي يجعل بها من هذا التاريخ حكاية شخصية تمامًا.

مراجعات

2

«أفكر في إنهاء الأمور».. الحياة داخل قبو عقل مُنهك

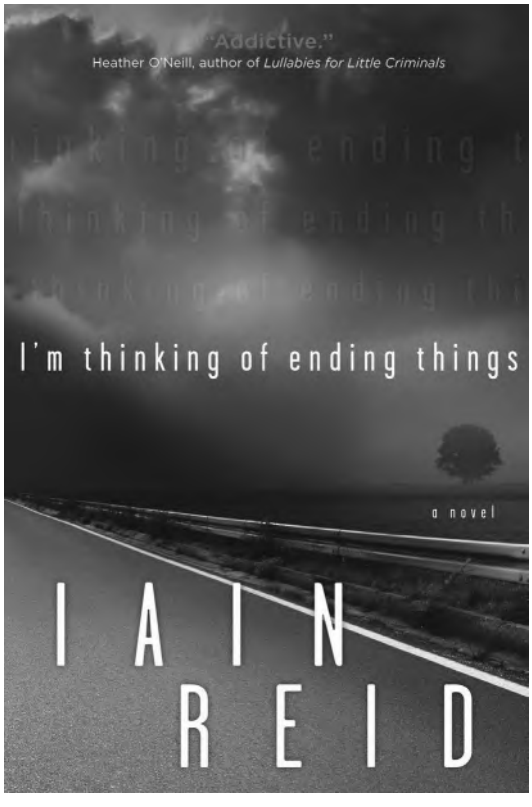

يجد المتفرج نفسه في أول مشاهد فيلم «أفكر في إنهاء الأمور» في مواجهة حائط، فالفيلم يفتتح ثوانيه الأولى بكادر يقترب من ورق حائط منقوش بورود تعكس ظلال جمالية قديمة، ولكنه ذلك الجمال المُقبض، تتحرك الكاميرا في مواجهة الحائط وورود ببطء طيلة ٣٠ ثانية تقريبًا، وكأنها تُجري عملية مسح ضوئي لها، لاستكشاف تاريخ تلك الورود، وما علِق بها من أرواح أهل هذا البيت، ربما يتساءل المتفرج عن صاحب هذا الذوق الحزين؟ لا شك أنه يملك حسًا شعريًا مرهفًا، ولا شك أن ذوقه، وتاريخه الشخصي، هما أحد أبرز مفاتيح هذا الفيلم، وستجد أن كادرات كاتب ومخرج الفيلم تشارلي كوفمان يتجدد بها ظهور ورق الحائط هذا على مدار فيلمه، وكأنه منزوع من ذاكرة داكنة، لا سيما ظهوره المتكرر كخلفية لأبطال الفيلم في أحد أبرز أماكن السرد الدرامي للفيلم، وهو بيت البطل، أو قُل متاهته العقلية.

منى أبو النصر

يستلب المخرج والكاتب الأمريكي تشارلي كوفمان جمهور فيلمه الأحدث «أفكر في إنهاء الأمور» I'm Thinking of Ending Things، عبر تجوال بطيء للكاميرا بين جنبات بيت يبدو خاليًا، مصحوبًا بصوت نسائي قلق، يضع المتفرج في دائرة حالة شعورية لا يمكن تفاديها، لا سيما وأن أولى عبارات هذا الصوت القلق هي عبارة من عينة المراجعات الذاتية المؤرقة التي تُشارف الحسم وهي «أفكر في إنهاء الأمور»، وهي افتتاحية خاطفة للعقل، ومُحرضة على التساؤلات والنبش في ذلك المجهول، فالمخرج يضعك في مواجهة مع حائط وصوت مجهول تائه، لا تملك سوى الانصياع وراء صاحبته، لمعرفة قصتها، وماهية تلك «الأمور» التي تُفكر في إنهائها.

حدس ثقيل

تلك البدايات المُلغزة، تجعل لغة المشاعر هنا تسبق الحدث، فخلال الدقائق الأولى للفيلم يكون المُشاهد في الغالب قد وقع في حالة تعاطف مع البطلة التي يبدو أنها في حالة حصار خانق، ومشاعر انزعاج كبيرة حيال فكرة ما تعلق في ذهنها، وتحوم حولها شاءت أم أبت، يقول صوتها عن تلك الفكرة «تلازمني حين آكل.. حين آوي إلى الفراش.. عندما أستيقظ.. هي دائمًا هنا.. فكرة جديدة وقديمة في الوقت نفسه»، عزلة ما تؤكدها كلمات الفتاة، التي باتت فريسة فكرة لا تزول؛ وهي أنها تفكر في إنهاء الأمور، حتى يبدأ صوت الفتاة في الإشارة إلى شخص اسمه جايك تربطها به علاقة حديثة نسبيًا، تتحدث عن رباط نادر يجمعها به، ولكن حدسًا ما يجعلها لا تستشرف مستقبلًا لتلك العلاقة، وهنا تظهر صاحبة الصوت أخيرًا، لتنتقل المشاهد إلى خارج جدران البيت الخالي، إلى مشاهد خارجية، حيث تقف البطلة بملامح حيّة، وملابسها الشتوية تعكس ذائقتها الفنية الحُرة، في انتظار صديقها الذي سيصحبها في رحلة لزيارة والده ووالدته للمرة الأولى في بيته بالمزرعة، ولكن على الرغم من ظاهر انفعالاتها الذي تبدو عليه الحماسة لتلك الزيارة ولعلاقتها ب جايك نفسه، فإننا نفاجأ أن حوارها الداخلي لم يهدأ لثانية، ليظل صوتها الداخلي يُردد على مدار رحلة السيارة «أفكر في إنهاء الأمور»، ومع ذلك فهي تقرر مواصلة الرحلة لأسباب عقلانية مرجعها أن جايك شخص جيد، ومتفاهم، ويُقدِّر ما تعمل، وهنا يجد المتفرج نفسه أمام ورطة فهم أبعاد تلك العلاقة العاطفية، فظاهرها ابتسامات ومشاغبات مرحة، وتفاعل وتلاقي، أما باطنها فمثير للقلق، ما يجعل أسباب التعاطف مع البطلة يتبدل تدريجيًا لحالة من الريبة، لا سيما وأن بطل الفيلم لم يُظهر عن نفسه أشياء من الخوف كالتي تضمرها البطلة التي لم تكف عن إرسال إشاراتها الإنذارية الداخلية للحظة، إلا أن هذا الأداء السردي لن يصمد كثيرًا مع تقدم الفيلم، الذي يكشف مع كل جملة حوارية بين بطليه بُعدًا جديدًا لجراح منفتحة على الزمن، والعقل، والقلب.

هامش كوفمان

تدور أغلب مشاهد الفيلم داخل تلك السيارة، حيث جايك وحبيبته، التي ليس لها اسم في الفيلم، وفي الوقت نفسه يناديها جايك بأكثر من اسم على مدار رحلتهما أكثرهما لعل تكرارًا هو اسم «لوسي»، لتكون تلك الرحلة عبر السيارة واحدة من المغامرات الإخراجية للفيلم، إذ يحتدم التصاعد الدرامي لأحداث الفيلم في مكان له خاصية الثبات والحركة في ذات الوقت، ما بين سيارة صغيرة مُغلقة تقطع طريقًا طويلًا في ظل مناخ غير مستقر، ليربط كوفمان بين حركة الانتقال وديناميكيتها هنا وبين حركة تحرر الأفكار، أو كما جاء على لسان البطل لصديقته الغارقة في تأملاتها «الخروج في رحلة سيارة، يجعلنا نتذكر أن هناك عالم آخر خارج رأسنا»، وفي خضم تلك الرحلة المُحتدمة بالمشاعر، تتسلل مشاهد متفرقة ومبعثرة لرجل عجوز يبدو أنه عامل في مدرسة، رجل بهيئة بائسة يقوم بمسح الأرضيات، حتى أن تلك المشاهد العابرة له تجعلك تشعر في

بعض لحظات الفيلم أنها مُقحمة، لاسيما في خضم التوتر والتركيز الرئيسي على رحلة البطلين ومشاعرهما المتلاحقة، حتى تبدأ ثمة روابط خاطفة في اتصال القصتين، ففي الوقت الذي يُحدّث فيه جايك صديقته عن شغفه بالمسرح الغنائي، لا سيما مسرحية «أوكلاهوما» ويستمعان إلى مقطع منها يبثه راديو السيارة، نرى العجوز في روتينه لتنظيف الأرض وهو يتابع تدريب لفتيات المدرسة لأداء ذات المسرحية الغنائية، وكأن ثلاثتهما يستمعون إلى المسرحية ذاتها، مرة أخرى يظهر العجوز في واحدة من فترات راحته وهو يتناول طعامه ويشاهد مقطعًا من فيلم رومانسي فج، ثم نجد على الطرف الآخر جايك وهو ينتقد الأفلام التي يصفها بالرديئة لأن «الأفلام الزائفة تنمو في العقل وتحل محل الأفكار الحقيقية، وهذا ما يجعلها خطرة» مثل الفيروسات، وهي عبارة «كوفماوية» بامتياز، فهو مخرج وكاتب لم يكن يومًا على مدار تاريخه سوى على يسار هوليود، ينتقد بوضوح الرومانسيات المثالية التي تنقلها السينما الأمريكية بوصفها سلعة سينمائية مضمونة، وهو ما يتحاشاه ويسخر منه أيضًا كما في هذا الفيلم.

شرود الصوت

تدلنا الحركة المتصلة للحوار الذهني القابع في عقل البطلة، المُتقاطع مع الحوار الظاهر بينها وبين جايك، أننا أمام واقع أقرب للسيولة لا يمكن القبض على ملامحه، هو بالأحرى واقع له زمنه ومزاجه الخاص، حيث تتنقل فيه الأحداث ما بين رعب نفسي إلى كوميديا سوداء حالكة، وصولًا للرقص والمسرح

الغنائي، وحتى الرسوم المتحركة، وجميعها تُشكل طبقات ومستويات ذهنية، تجعل المتفرج في رحلة أقرب للتعقيد التي تجمع بين جايك وصديقته «لوسي»، التي كلما تشرد في دوامة أفكارها اللانهائية، وتغرق في صوتها الداخلي، نجد جايك ينتشلها بسؤال عن سبب شرودها، فتجيبه عادة أنها تفكر في أشياء مبهمة، وعادة ما يُقاطعها في كل مرة تُحدث نفسها بالعبارة الأشهر في الفيلم وهي «أفكر في إنهاء الأمور»، الشرود أيضًا جعل له تشارلي كوفمان صوتًا في الفيلم، وكذلك فقرات الصمت.

الفيروس يريد أن يعيش

ولأن أغلب مشاهد الفيلم تقع خلال رحلة سيارة في جو ثلجي عاصف، بين بطلين رئيسين، فقد خلق كوفمان لحركة الكاميرا في الفيلم لغة بصرية تتراوح في زواياها بين المباشرة والتلصص أحيانًا، لتسهم بحركتها في تأجيج مزيد من التوتر الخلاق للفيلم، وحفاظه في المقابل على عدم التشويش على حالة الحوار المتصلة/المتقطعة بينهما، فكما جميع أفلام كوفمان، يعلب الحوار به دور البطولة، وهنا تحديدًا في فيلمه الأخير، يعتبر الحوار هو صلب الفيلم، حوار ينبش ويجادل ويسخر من مختلف المُسلمات حيال الحياة، والوقت، والحب، مرورًا بالسينما، والشعر، وحتى الفيروسات التي يرى كوفمان أنها ببساطة مثل كل شيء «تريد أن تعيش»، كما جاء على لسان البطلة، ردًا على وصف جايك لتلك الفيروسات أنها «وحشية»، وهو وصف لا يمكن المرور عليه بسهولة، في أيام نُعايش فيه فيروس مثل كورونا يُفسد علينا الحياة، فيما يرى كوفمان أن نتعاطى معه بتسامح لأنه فقط «يريد أن يعيش»!

وبمجرد أن يصل البطلان إلى منزل والدي جايك حتى تتعقد أمام المشاهد فكرة الفيلم برمتها، فتصبح علاقة البطلين العاطفية على الهامش، لتتوالد أسئلة من عينة: ما الذي يحدث؟ من هو جايك؟ ما كل هذه الغرابة؟ فيُصر جايك على عدم دخولهما المنزل، إلا بعد أن يدعو «لوسي» للإلقاء نظرة على حيوانات المزرعة التي يرعاها والداه، وفي هذا المكان يتضاعف الشعور بالانقباض، وحتى ألوان الفيلم تنزلق منذ تلك اللحظة لدرجات الزُرقة والرمادية والترابية الكئيبة، تركز الكاميرا على قسمات أحد الخراف، كأنه في مواجهة مع مصيره، تراه «لوسي» مثالًا لبؤس الوجود، فهو يأكل وينام ويتغوط مرارًا وتكرارًا يومًا بعد يوم، فتتساءل عن «الشيء الحزين الذي يملأ هذا المكان»، يتفاقم الأمر بعد أن تعرف

عن مصير خنزير المزرعة، بعد أن يحكي لها جايك قصة موته البشعة، فتتأمل مكانه الفارغ، الذي لا يزال يحمل آثار موته، يُباغتها جايك بقوله: «الحياة قاسية في المزرعة»، فالمزرعة والخنزير وسائر الحيوانات، أرواح هائمة في قاموس تشارلي كوفمان، يشعرون بقسوة الحياة، تمامًا كالإنسان، ويكمن الفارق الوحيد بينها وبين الإنسان، كما يقول على لسان بطلته، أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف بحتمية نهاية مصيره، فصار الحاضر لديه غير محتمل، «فاخترع لذلك الأمل»، ليستطيع مواصلة الحياة.

بتلك الحمولات القاسية التي خرجت بها البطلة من المزرعة، يدخل الفيلم نفق الغرائبية الأقرب للكابوسية، بمجرد ظهور الأم والأب غريبي الأطوار، حيث تتنقل الأم من أوج هيستيريا الضحك إلى النحيب والعكس، يُدون شغفًا كبيرًا بقدرات صديقته في الرسم والفيزياء، وسط انفعالات غير مفهومة لجايك الذي يبدو أنه يضيق بعفوية والديه، وبتاريخ طفولته معهم، ومع تصاعد درجات التوتر في هذا اللقاء، تبدأ كل الأزمنة في التداخل، فالأم والأب يتنقلون بين الشباب والشيخوخة مع كل تنقل لهم بين غرف البيت، تحتضر الأم في مشهد، ويقوم جايك بإطعام والدته في شيخوختها في غرفة أخرى، وفي لحظة تالية، تظهر الأم في هيئتها الشابة، فيما تتجول الفتاة داخل البيت وفي كل مرة تتعثر في أشياء تخص بجايك تُزيد من حيرتها حياله، لا سيما غرفة طفولته، والقبو الذي يلفت نظر لوسي منذ دخولها البيت، قبو له باب تظهر عليه آثار خربشات قديمة، باب مُهمل، يُبدي جايك خشيته وعدم ارتياحه له، وبمجرد قرار الفتاة النزول لذلك القبو، تبدأ في فقد هويتها، حتى تكاد تذوب في صورة جايك، وكأنها انسلاخ لصورة طفولته، وطيف من روحه الشعرية والفنية، فلوحاتها التي ظلت تتحدث عنها تجدها في القبو وهي بتوقيع جايك ، بل وما يُضاعف التعقيد أنها تجد داخل غسالة القبو قمصان العامل العجوز الذي تتقاطع مشاهده القليلة مع السياق الدرامي لجايك والفتاة، فهنا داخل هذا القبو تتجسد الحياة المُتخيلة داخل عقل باطن مُرتعش يريد «إنهاء الأمور»، عقل غارق في قبو من التساؤلات والأفكار الذاتية السلبية، وفوضى الغرف، وماضٍ من تعقيدات الطفولة، وصورته الذاتية عن نفسه.

ويُزيد من توتر السرد، توالي اتصالات هاتفية للفتاة منذ

عن الفيلم

الفيلم مأخوذ عن رواية الكاتب الكندي أيان ريد

I'm Thinking of Ending Things

من إنتاجات نتفليكس NETFLIX الأصلية

كتابة وإخراج: تشارلي كوفمان

بطولة

جايك: جيسي بليمونز

الفتاة: جيسي باكلي

الأب: ديفيد ثوليس

الأم: توني كوليت

بداية رحلة السيارة وحتى زيارتها لأهل جايك، اتصالات تأتيها من أسماء مختلفة مرة من «لوسي» وآخر من «لويزا» - وهي ضمن الأسماء التي أُطلقت عليها على مدار الفيلم ضمن أسماء أخرى- وكأن الاتصال الخارجي يأتيها من نفسها، وفي كل مرة كانت تتجاهل الاتصال، حتى قررت الاستماع لإحدى الرسائل الصوتية المسجلة التي وصلت هاتفها من إحدى صاحبات الاتصالات المتكررة، لتجدها أقرب لنداء استغاثة بصوت رجل يبدأ بقوله «أنا خائف»، كأنه صدى لصوتها الداخلي.

سوريالية الرحلة

تتصاعد دراما التعقيد بعد مغادرة البيت، وصولًا إلى المدرسة الثانوية لجايك التي يصل لها مع فتاته في مفارقات سوريالية مُقبضة، وهناك في بهو المدرسة البارد تجتمع خيوط السرد الدرامي، إذ يختفي جايك ليحل محله البطل الحقيقي للفيلم الذي ظل ظهوره محل تساؤل على مدار أحداثه، وهو عامل المدرسة، ذلك العجوز الذي يمسح الأرضيات، وكأن كل ما دار في الفيلم من رحلة، وبيت، ومزرعة، وطريق، وحبيبة، جميعها أضغاث أحلام، أو قُل كوابيس، وماض متصارع داخل

مراجعات

عقل هذا الرجل الذي يعيش حياة غير مرئية على هامش العمر، فهل لوسي هي جايك؟ هل جايك هو هذا الرجل العجوز؟ هل اكتفى العجوز من تهيؤاته وهلاوسه للحد الذي أصبح أقرب لقرار إنهاء حياته «الأمور»، لاشك أنه اكتفى منها، فهو يخرج في مشاهد الفيلم الأخيرة، في حالة أقرب للجنون، يتعرى في سيارته، على الرغم من العاصفة الثلجية، يتراءى له الخنزير الذي كان جايك يحكي مأساة قصة موته للوسي، ولكن وكأنه قد بُعث في هيئة جرافيكية سوريالية، يتجوّل مع العجوز العاري في طرقات المدرسة، يُلملم من على سطح الطرقات شذرات أفكاره اللانهائية، حتى نستمع على لسانه لواحدة من أبـرز الجمل المفتاحية الفيلم على الإطلاق وهي «أنا، أنت، الأفكار..كُلنا في الحقيقة شيء واحد»، وهي عبارة لا يمكن كذلك فصلها عن مشروع «كوفمان» الفلسفي بشكل عام.

يضرب الجنـون كـذلـك بطليه جايـك وصديقته، الذين تصاعدت انفعالاتهما في النصف الأخير للفيلم فوصلت إلى حافة الهستيريا، لعل أبرزها مشهد قرار جايك التخلص من مشروبات «الأوريو» المثلجة التي ابتاعوها في طريق عودتهما من بيت والديه وإلقائها في سلة للمهملات، على الرغم من أن التخلص منها يكاد يكون مستحيلًا، فهم على طريق سفر في ليل عاصفة ثلجية، تخبره لوسي أنه يمكنهما الاحتفاظ بها حتى يصلا للمدينة بسبب سوء الطقس، فيبدأ جايك للمرة الأولى في انفعال جامح بضرب عجلة القيادة بجنون لأ
التخلص من الأكواب «اللزجة»، يجعل كوفمان من
الذي يبدو للوهلة الأولى سببًا لا يستحق هذه
مفتاحي ليخبرنا عما وصل إليه عقل جايك من ح
يرغب فيه في التخلص من «الأمور» التي باتت
يُحتمل، أو بالأحرى عقل العجوز الذي يتراءى
لأمور لم تُحسم في حياته.

ديناميكية ذهنية

تلك المقاربات وانعكاسات المرايا الذاتية، تجعل
ديناميكية ذهنية حادة، سعى كوفمان أن يوازيها كة
والكاميرا المتمثلة في تتبع انفعالات الأبطال التي
مدار الفيلم، وتداخل موجات المونولوج في متن الحوا
بشحنات جمالية رمزية بديعة، كمشهد رقصة
جاء في ختام الفيلم، إذ جعل الراقص
جايك ولوسي، يؤديان رقصة ش
على مسرح الرجل العجوز وأش
اختتمت بتخيّل قتل جايك،
الذي بات يتخيّل الموت الس
تلك الحركة في متاهات العق
وربما تحتاج لإعادة بعض
ولكن غموضه يمنحه وه

ومحاولة حل ألغازه، وإيجاد تفسيرات للتغييرات الميتافيزيقية به، تلك التي تجسدت في التغييرات المفاجئة في الفيلم، التي استخدمها كوفمان كأحد ألاعيب السرد، فلا شيء في الفيلم يمكن إثباته، بداية من اسم البطلة، فهي في البداية تظهر باسم «لوسي» ثم في مرة أخرى هي «إيفون» و«لويزا»، مرورًا بملابسها التي تتغير، وتسريحة شعرها، وطريقة كلامها، وحتى مهنتها فهي في بداية الفيلم تكتب بحثًا عن داء «الكلب» ثم يقدمها كفيزيائية، فرسامة، فناقدة سينمائية، فالتغير يحدث فجأة في عناصر الفيلم في الرحلة ذاتها، وحتى العمر كذلك، فجايك الشاب تظهر يده في مشهد مُباغت على عجلة القيادة تنتشر فيها التجاعيد، وهكذا كان الأمر صارخًا في منزل والده ووالدته، وكذا يريد كوفمان أن يشير إلى تلك التغييرات التي تحدث في العقل، والزمن، فهل الزمن ثابت، أم متحرك؟ ومن يبدأ في التغير؟ لعل تلك الأسئلة هي ما حاول أن يعكسها في قالب غرائبيته، وكأن الملموس انعكاس لتغيرات لا يمكننا القبض عليها، كالزمن، والحب، وتقلبات القلب، أو قُل إنها لعبة الذاكرة/التذكر التي أراد كوفمان أن يلعبها مع جمهوره، على غرار ألعاب «استخرج عشرة فروق بين الصورتين»، فمثلًا هل تتذكر لون معطف لوسي؟ ماذا كانت وظيفتها؟ ولعل هذه العبثية هي في حد ذاتها مرآة لواحد من أثقل ثيمات الفيلم وأسئلته، فما الذي نتذكره في النهاية؟ هل توجد فروق جوهرية فعلًا؟ أو كما جاء على لسان البطلة في نهاية الفيلم، بعد أن يطلب منها عامل المدرسة العجوز وصف شكل جايك
لازمه على مدار الفيلم، ومن المفترض أنها تربطها به قصة
دها الصادم المُرعب بأنها لا تتذكر شكله، لا تتذكره
ف يمكنني تذكُر بعوضة لدغتني قبل أربعين سنة!»
لذاكرة المُنهكة في انهزام أمام رعب الحياة.

3

«أدب الحروب».. كيف ألهمت المعارك الدامية الأيقونات الأدبية

تحتفظ البشرية في عنقها بدين كبير للأدباء والمثقفين الذين لعبوا أدوارًا خالدة في مناهضة الحروب من خلال كتاباتهم الإبداعية، ومن المفارقات اللافتة أن الحروب القومية والإقليمية قد ألهمت الأيقونات الروائية الأدبية، إذ كان زمن الحرب والنزاعات والاضطرابات سببًا في ظهور الرواية باعتبارها أداة للمقاومة تارة، وحائط صد ضد شيوع الخراب والتمادي في الصراعات تارة أخرى، وقد أبدع الروائيون سواء في العالم أو في منطقتنا العربية في سرد واقع النزاع المرير الذي دمر شعوبًا وسحق مدنًا لقرون طويلة. فقد أمعن الأدب في محاولة سبر أغوار الحروب والكشف عن وجهها الكابوسي المظلم، برعت في تصوير ما لم تنجح الصورة في التقاطه من مشاهد الدم والفراق والفجيعة، وضع الروائيون سؤالاً أساسيًا طوال الوقت عن منبع كل هذه القسوة وجذور الشرور والرغبة التدميرية لدى الإنسان، نلمس ذلك فيما طرحه الروائي المصري صبحي موسى بشكل مباشر في روايته «أساطير رجل الثلاثاء» التي يُكتب فيها أسامة بن لادن مذكراته، كما حاولت الروائية والشاعرة سهير المصادفة تتبع أصل العنف القبلي في التاريخ عبر روايتها «رحلة الضباع».

تشتعل العديد من المناطق والمواقع في العالم الآن بالنزاعات العسكرية، وتمادت لتتخذ شكل الحرب التقليدي، كما نتابع في إقليم ناجورني قره باغ بين أرمينيا وأذربيجان، واشتعال الحرب في إقليم تيجراي الإثيوبي، الأمر الذي يعود بنا إلى تسليط الضوء على أوقات كانت الحرب فيها سببًا رئيسيًا ومباشرًا في نشاط الأدب، باعتباره حلاً لشعور الناس بالإحباط.

أسماء سعد

الأدب ضد الحرب

يمكننا الدفع بأن أثر الحرب على الأدب، يعود إلى عصور ما قبل الميلاد، وأنه حينما نفتش عن أكثر نصوص الأدب العالمي الضاربة في القدم، ففي الغالب سنرى أن الحروب القومية والإقليمية لعبت دورًا مباشرًا في سرد الروايات الأدبية في بدايات التاريخ، ولكن مع سريان حركة التاريخ والمضي قدمًا في حركة التطور الاجتماعي والفكري والعسكري والأدبي، بات لدينا تيار يستخدم الأدب ضد الحرب، ويدين الكتابات التي كانت تلعب على أوتار العصبية وتغذي الطائفية ونزعات القومية والدعوة للحلول العسكرية. وهنا يبرز لدينا كتَّاب بارعون أمثال دوستويفسكي وتورجنيف، سخروا في رواياتهم من رواة ودعاة الحروب، ونددوا بآثارها الفكرية الهدامة، وفي مطلع القرن العشرين، وعند
ساحة مستعرة لحربين عالميتين وحروب
كبير من الأدباء حالة اصطفاف ضد الحرب
وأمام محاولات الأدباء لشجب الحروب
الأولى والثانية، بادرت الحكومات المتورطة
وإرهاب المثقفين والكتَّاب، من أجل م
العسكري، فما كان من أسماء بحجم إ
هيمنجواي، وروجيه مارتن دوجار، ولويس
أن انطلقوا لإبداع أكبر كم من الاعمال الرو
أفكار ونظريات براقة مضادة للحرب.

ومع صعود حكومات يمينية متطرفة اكت
من السلطة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وا
جهود الأدباء بخطابات سياسية تعزز م
العالم، تصدى لهم عدد كبير من الكتَّاب
لإنتاج ونشر روايات مثيرة حول النتائج الك
أبلغ الأثر في تحريض الرأي العام لمناهضة
ومع تكثيف الأدباء والمبدعين لأعمالهم
جذب اهتمام الرأي العام، الخارج لتوه من
وظفر المجال الأدبي بروائع عديدة لكتَّاب
كامو، وصمويل بيكيت، وجان بول سارتر
ميلر، وآلن روب جرييه، الذين وصفوا
التنوع في الخلفيات الفكرية والميول السياسية لتلك الأسماء، فإن رابطًا قويًّا كان يجمعها في شكل التزام أدبي وقاسم مشترك قوي هو مناهضة الحرب.

من أبرز تلك الملاحم الأدبية، ما دوّن عن الحروب التي وقعت في أزمنة قديمة مثل «معركة طروادة». لكن هذه الأمثلة تختلف كثيرًا عن الروايات التاريخية التي ظهرت في عصور ما بعد الحداثة. وقد بدأت المحاولات الأدبية للاشتباك مع وقائع الحروب، محاولات بدائية غير ناضجة منذ ميلاد المسيح عليه السلام وما بعده، وفي بواكير ما قبل الحداثة، حين تعمد البعض حينها خلق بطولات وهمية وأسطورية مالت إلى أن تكون قصصًا هدفها الوحيد التسلية وإشباع رغبة الحكي، وهو ما شهد طفرة وتطورًا ملموسًا في مفاهيم أدب الحرب خلال القرون الثلاثة الماضية تحديدًا.

الحرب حافزًا للإبداع

ألهمت الحروب الكثيرون من أجل الكتابة عنها، وكانت سببًا رئيسيًّا في ظهور أعمال خالدة، ولم تكن الرواية وحدها هي الوعاء الأدبي الوحيد الذي التقط مشاهد من الحروب، وإنما الشعر أيضا، ففيدريكو لوركا الشاعر والكاتب المسرحي الإسباني، قدم أهم قصائده عن أصدقائه الذين ابتلعتهم الحروب الأهلية الطاحنة، قبل أن يموت هو أيضًا تاركًا كلماته خالدة في الأذهان: (لا تبحثوا عني، لن تجدوني)، كما أن الحروب الأهلية كانت سببًا في خروج
النور، وهو الشاعر الفرنسي المرموق وأحد
الية، وقد أبدع في كتابة تجربته القاسية
ية واحتلال الألمان لباريس، ليتوج جهوده
ية».

ب، حفزت أسماء بحجم الشاعر اللبناني
ه الأشهر «بسبب غيمة على الأرجح»،
ب عن الحروب من العرب، راصدًا تأثيرات
ة اللبنانية واستحضار مشاهد الأرض
ائعة، وكيف أمعن في وصف مدن كانت
ان، وما جرى لها من دمار شامل، وذلك
عمال لمبدعين عرب عن تجاربهم القاسية
ب، ليتركونا أمام نصوص بديعة تفيض
لجمالية، رغم خروجها من رحم الحرب

ط بفترة اشتعال جذوة الحرب، فحتى بعد
مريرة لا يمكن محوها بسهولة من أذهان
قون في سباق نحو توثيق التجربة عبر
لوا بهدوء وروية معالم أقسى تجربة أقدم
ذ أن هبط إلى الأرض، ليتفنن في جعل
للأدب الإنساني، بعدما تتيح له الظروف
، وكيف تكون الحرب نقطة تحول جذرية
في حياة كل المشاركين فيها، بعقد مقارنة تلقائية بين حالهم قبل جحيم الحرب وبعده.

أمثلة فريدة

لا يمكننا تجاهل أمثلة فريدة على رواد من الأدب العالمي والعربي، قد عايشوا بأنفسهم فظائع الحروب، لتخرج لنا بأعمال ستظل علامة على تشابك جرى بين خيوط الإبداع وطلقات المدافع، فالروائي الروسي ميخائيل شولوخوف، الحاصل على جائزة نوبل عام 1965 عايش بنفسه الأحداث المأساوية التي خاضتها روسيا إبان الحرب العالمية الأولى، وهو في بداية الشباب، واستطاع في روايته الأشهر ذات الأربعة أجزاء «الدون الهادئ»، أن يرصد التطورات المأساوية المُتلاحقة التي عاشتها

بلاده في تلك الفترة الحرجة من التاريخ، وما تلاها من سقوط نظام الحكم القيصري والحرب الأهلية التي تبعت هذا؛ كما خاض شولوخوف الحرب العالمية الثانية كمراسل حربي، ليكتب بعدها روايته «مقاتلون في سبيل الوطن».

كذلك الأمريكي إرنست هيمنجواي، الذي حصل أيضًا على جائزة نوبل عام 1954 عن روايته «العجوز والبحر»، شكلت الحرب شريانًا أساسيًا من شرايين الإبداع في أعماله، وذلك بعدما خاض بنفسه الحربين العالميتين، ولحقت به إصابة في أثناء مشاركته في الحرب العالمية الأولى، ليصاب بعدها في أثناء خدمته على سفينة حربية أمريكية مهمتها إغراق الغواصات الألمانية، ونال العديد من الأوسمة العسكرية جراء شجاعته، وإلى جانب مشاركته كمراسل حربي في الحرب الأهلية الإسبانية، انطلق ليدون عن الحرب والمآسي التي تخلفها ومصير الإنسان فيها، وذلك من خلال العديد من الروايات مثل «وداعًا للسلاح» و«لمن تقرع الأجراس».

كما أن صاحب رواية مزرعة الحيوان الروائي البريطاني جورج أورويل، قد شارك في الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب اليسار في مواجهة القوميين، وكتب في العام 1938 روايته «الحنين إلى كتالونيا» ليؤرخ بدقة متناهية وقائع الحرب الأهلية الإسبانية بشكل روائي وسياسي أبدع في إظهار فظائع الحرب والقضايا العادلة التي يُكافح من أجلها الثوار.

وبالنظر إلى أمثلة في أدبنا العربي، فلا يمكننا تفويت أدب المقاومة الذي يعود الفضل في تسميته بالأساس إلى الأديب الفلسطيني غسان كنفاني، والذي رصد آثار نكبة العرب في 1948 وما تلاها، وأعمال الروائي والأديب المصري مجيد طوبيا الذي كتب «أبناء الصمت» عن حال الجنود المصريين على الضفة الغربية لقناة السويس التي ألهمت صناع الفن المصري لإنتاج فيلم دراي حربي سيكون من أهم مئة فيلم في التاريخ.

بالإضافة إلى أعمال الروائي إبراهيم عبد المجيد أمثال «في الصيف السابع والستين» والتي تناولت المجتمع المصري وما أدى به إلى هزيمة يونيو 1967، وظروفها والتحولات التي طرأت على المصريين بعدها، وكذلك كتابات جمال الغيطاني عندما كان مراسلاً حربيًا، وسجّل في روايتيه القصيرتين «الغريب» و«الرفاعي» بطولات من حرب أكتوبر؛ بخلاف ما كتبته الروائية السورية غادة سمان مذكراتها التي وصفت فيها وقائع ومجريات الحرب الأهلية اللبنانية التي عايشتها تحت اسم «كوابيس بيروت».

أدب الحروب في أوروبا

مراجعات

حملت قامات أدبية كبرى على عاتقها مسؤولية تطوير أدب الحروب، وإحداث نقلة له تغير شكله من مجموعة نصوص مأسوية تراجيدية لا تحمل المقومات الكاملة للأدب، إلى أعمال ناضجة ومكتملة لا تقتصر على وصف مجموعة من المذابح، ومن تلك الأسماء الأيقونية سبينوزا وهيجل، الذين خرجوا من طائفة الكتاب اللذين سخروا بلا طائل من الحروب ومآسيها.

برزت على السطح روايات قيمة، وأعمال تكاد تقترب من حد المثالية، وأحد أهم عوامل تلك المثالية، أن أصحاب تلك الروايات لم يعمهم الانتماء القومي أو العرقي لأوطانهم، فقد وجهوا أقلامهم لنقد الواقع ككل، ومصارحة المتورط الغاشم بعيوبه حتى لو كان ذلك ضد أوطانهم، ونصرة المغلوب المستضعف حتى لو كان ذلك عدو حربي لشعوبهم.

وحينما تجردت الأقلام وتحررت من المنطلقات أو ذرائع القومية والوطنية، ظهر لنا الكاتب المسرحي والروائي ذائع الصيت ميجل دي ثربانتس، الذي يُعد أبا للرواية الحديثة في القارة الأوروبية، عبر ملحمته المبهرة «دون كيخوته» حول انطباعه بحتمية سقوط ونهاية الحقبة التي كان يتم فيها سوء استخدام واستغلال المحاربين. وسار ثربانتس عكس التيار السائد، فبينما كانت تعج أوروبا بأقلام تستنكر أصحاب الآراء والأفكار المناوئة للحرب، ويتهمونهم بخيانة أوطانهم، كان صاحب رواية العاشق المتحرر يسير وحده، لا مع الغالبية، مثله مثل الكاتب الكبير فيكتور هوجو الذي دأب على تخصيص قسم كبير من روايته الرائعة «البؤساء» لشجب المعارك الدامية التي سببتها الثورة الفرنسية في موجتها الرابعة والبكاء فوق أجساد قتلاها.

يضاف إليهن الروائي الفرنسي الشهير ستندال، الذي كان يُعد مقاتلاً شرسًا في صفوف قوات نابليون، إلا أن ذلك لم يمنعه في روايته «الأحمر والأسود» من انتقاد الاستعدادات العسكرية للحروب التي شهدتها القارة الأوروبية، ليكشف من تناول ما خرج عن هذه الحروب من مآسٍ. كذلك لا يمكن إغفال أعمال «أعمال الألماني العملاق هاينرش بُل، التي لامست جراحات وعذابات العالم أجمع بتناول الحرب وتداعياتها المؤلمة والمدمرة على كل المستويات، فهاينرش بل الأديب العالمي الملتزم بالقضايا الإنسانية، أدرك الحرب وعرف أهوالها ومآسيها، بل وصار من ضحاياها الذين لم تندمل جراح حزنهم، كما قال ذات مرة. وفي أعماله المبكرة بعيد الحرب العالمية الثانية جاهد بُل ليصور بشكل واقعي بعيدًا عن التزويق فظائع تلك الحرب والظروف التي سادت ألمانيا بعدها، حاله في ذلك حال جيل الكتاب الشباب، الذين وصفهم زميله فولفجانج بورشرت «بالجيل الضائع».

ووضعت أعمال بُل وبورشرت المبكرة تلك البداية الحقيقية «لأدب الأنقاض»، وواصل في وصفه لذلك النوع من الأدب في مقال أسماه «اعتراف بأدب الأنقاض»: «إذن فنحن نكتب عن الحرب عن العودة إلى الوطن وعن كل ما رأيناه في تلك الحرب وما وجدناه أمامنا عند عودتنا منها: أننا نكتب عن الأنقاض». ويبدو أن الجراح التي تركتها الحرب في نفس بُل لم تنتهي حتى مع انتهائها، فقد كتب في قصة «الرسالة»، التي نشرت عام 1947 يقول: «ثم عرفت أن الحرب لن تنتهي مطلقًا، طالما كان هناك ثمة جرح خلفته وما يزال نازفًا في مكان».

أدب الحروب العربية

ظل أدب الحرب محدودًا في عالمنا العربي، إلى أن دقت الحرب العراقية الإيرانية طبولها، فكانت بمثابة نقطة انطلاق للأدباء

، ولدينا عدد كبير من ضمن الأعمال الحربية، ولها في أوقات وأزمنة

«ذاكرة أدبية» قوامها ي العام 1990 ، وتحت ا يقارب 40 كاتبًا عراقيًا هوالها عبر عيون وعقول

، وهو ما يظهره كتاب فية العامة بالعراق وفيه: نذ سنوات تسع، ماذا كل شيء فجأة، عندما بتنا في البيوت الأمنة، واتر الموحشة والليالي ن العادي، فما بالنا على الأديب، الذي يمتلك أضعاف مضاعفه من المشاعر والأحاسيس.

ل إلينا مفارقة شديدة اعر المرهف الحساس وسط مآزق وتناقضات «ذاكرة الغد»: من المؤكد ، الذي يجلس أمامكم . قد استطاع أن يصوب »؟ هل كان يملك الجرأة اة» حياة بكاملها وبكل زوجة وأطفال؟، سؤال ل صولة لنا على العدو

ال جذوة الإبداع العربي يها حرب العراق وإيران، الأعمال الحربية، سواء نذ العام 1948 ، وحتى ل ذلك بعض الروايات على الغائبين» للروائي السوري «أديب نحوي» وهناك بعض الروايات التي تحدثت عن الاجتياح الإسرائيلي «الرب لم يسترح في اليوم السابع، آه يا بيروت، للروائي رشاد أبو شاور، ورواية «نشيد الحياة» للروائي «يحيى يخلف» وإذا أضفنا بعض الروايات التي تحدثت عن الحروب الداخلية/الأهلية، مثل رواية «حبيبتي مليشيا» لتوفيق فياض التي

تحدثت عن أحداث سبتمبر الأسود في الأردن، والروايات التي تحدثت عن الحرب الأهلية اللبنانية مثل «طيور الرغبة» لمحمد الحجيري.

ويتبين لنا براعة الروائي والمبدع العربي، وتوظيفه للأحداث من حوله ضمن وعاء أدبي إبداعي، وذلك بالنظر لحالة الروائي علي خيون، والذي يسرد في مجموعته القصصية الحداد لا يليق بالشهداء) الصادر عام 1981 : في آخر ليلة، لي هناك، قررت أن أمكث في ملجأ الطبيب كي أضمد الجرحى، وأن أعود مع (عجلة) مياه الشرب، التي كانت تقطع مسافة طويلة ومقصوفة، قبل أن أصل ملجأ الطبيب، سقطت قذيفة غادرة فالتهمت القطن النظيف والشاش والأدوية، كانت تنتهك بوحشية رموزًا للإنسانية ومع سيارة الماء عدت استمع إلى قصص أخرى وأحفظها في جهاز التسجيل الصغير الذي كان معي، وهي قصص صادقة، بسيطة، تحرك الذاكرة مثل أغنية أثيرة إلى النفس، فأخذت بعضها وأخرجته في مجموعة «الحداد لا يليق بالشهداء».

وحول التقنية التي يتم بها كتابة نصوص أدب الحروب، يسرد أحد أهم الأصوات الأدبية الحداثية التي برزت في الفضاء الأدبي العربي، في ثمانينيات القرن العشرين، الكاتب حسن مطلك «فحظ الخيال أقل، وكلمات العزاء أقل فاعلية وتأثيرًا من الفعل، فلا قيمة للعزاء إذا لم يقدم على شكل فعل، أن تعمق معي خندق القتال أفضل من أن تقول لي: اصبر، وكان عليَّ أن أنقل الفعل نفسه في القصة أو الرواية خاليًا من كل كلمة مفتعلة، خاليًا من كل تطلع آمل.. لكن هذه (الواقعية) لا تكون مجرد تقرير صحفي، بل تأتي/تقدم بصورة جميلة، حتى في أثناء الكتابة عن إصابة رفيقي في المعركة: «في إحدى الأمسيات من زمن الحرب، طارت شظية مسننة فنبتت في ظهر خالد وهو يضحك بكل قوة، لكن الابتسامة لم تسقط عن وجهه فجأة، بل انسحبت بتمهل لتحل محلها صورة الألم، وكأنه حقن بالحبر» لهذا الأدب يبقى أدبًا، ويقدم بشكل وبصورة جميلة، والتي بدورها تخفف على المتلقي من سواد وقسوة الأحداث.

الحنين إلى كاتالونيا
(1943)
ترجمة عبد الحميد الحسن

نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي
الحرب العراقية - الإيرانية
١٩٨٠-١٩٨٨
مذكرات مقاتل
مذكرات وشهادات
المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

المشاركون في العدد ١٩

■ أسماء سعد	صحفية وكاتبة
■ أسماء يس	شاعرة ومترجمة
■ باسم عبد الحليم	كاتب مصري
■ دينا قابيل	كاتبة ومترجمة
■ حسام الخولي	صحفي مصري
■ خالد يوسف	كاتب مصري
■ سارة عابدين	شاعرة وكاتبة
■ سوزان واتكينز	باحثة وأكاديمية أمريكية
■ عاطف سعيد	أكاديمي مصري مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية
■ عماد أبو صالح	شاعر مصري
■ عمر الشافعي	مترجم مصري مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية
■ ماجد وهيب	كاتب
■ د.محمد أبو الغار	كاتب وطبيب
■ محمد جاد	صحفي وباحث في الاقتصاد
■ مصطفى عبد الظاهر	باحث في العلوم السياسية وتاريخ الشرق الأوسط
■ منى أبو النصر	صحفية
■ هشام أصلان	كاتب مصري
■ يحيى فكري	كاتب وناشر

المشاركون في ملف "حيرة المترجم ومعضلات الترجمة"

- أحمد عبد اللطيف
- أحمد محسن
- أشرف الصباغ
- إسلام سعد
- سها السباعي
- محمد حسني
- محمد فتحي خضر
- محمود عبد الغفار
- نانسي محمد
- هبة شريف